يحيى جابر

ابتسم... انت لبناني

مسرحية من فصلين



■ تجري أحداث هذه المسرحية في بناية شقق مفروشة يسكنها مستأجرون ومهجرون وتقع في شارع الحمراء من مدينة بيروت.

١٩٩٤. المناخ صيفي شتوي،

الشخصيات:

عبد: رجل في الأربعين من العمر، يعمل محرراً صحافياً - مسلم.

روز: زوجة عبد تعمل في حقل الترجمة. مسيحية.

ملحم: صاحب بناية الشقق المفروشة - في الخمسين من عمره.

السمسار أبو خالد: بيروتي يعمل سمساراً على جميع الأراضي اللبنانية.

المزور: صاحب مكتب سفريات يزور تأشيرات سفر.

فاروق: حزبي سابق يعمل الآن في مجال العلاقات العامة.

سكرتيرة: تعمل لدى رئيس حكومة.

تعرض قريباً في بيروت

■ أثناء دخول الناس إلى الصالة... ثمة أغنيات وموسيقى لأغانٍ وطنية عن لبنان، وبيروت قبل الحرب من مثل:
وديع الصافي: «جايين يا أهل الجبل» «عمّر يا معلّم العمار». صباح: «مرجتين وين هالدبيكة وين» «آلو بيروت من فضلك يا عيني». (شبه انفجار)
فيروز: «لبيروت... من قلبي سلام لبيروت» مارسيل خليفة: «ياه ياه يا شوارع بيروت الحرب». زكي ناصيف: «راجع يتعمر لبنان...». «النشيد الوطني»□

الفصل الأول

(يدخل السيد ملحم وهو رجل في الخمسين من عمره ـ يرتدي ثياباً كلاسيكية ـ يرقص على بقية موسيقى «راجع يتعمر لبنان».

يحمل ماكيت ـ أوتيل ضخم ـ يضعه على الأرض، يتأمله، يدور حوله مبتهجاً يقترب، ويبتعد، ويعاينه عن قرب وبعد...

ينبطح، ينخ، يقبله، يستعرض، يصفق، يرقص... ويردد دائماً: «خمس نجوم»: «فايف ستارز» أوتيل... Hotel.

تدخل السيدة روز وهي امرأة في الثلاثين من العمر ـ ترتدي ثياباً سبور ـ تدخل مسرعة وهي تحمل أكياساً منوعة من الموز والبزورات وقالب كاتو... وأثناء الحوار التالي يتلصص ملحم على الأغراض ويلتهم بعضها.

ملحم: بونسوار مدام روز

روز: بونسوار عمو ملحم

ملحم: على مهلك، ربع ساعة، وبتجي الكهربا وبتطلعي بالأسانسور

روز: اليوم ترْبِمها؟

ملحم: خلص تِربِمها، راح يشعشعوا شارع الحمرا عاطول

روز: انشاالله

ملحم: راجعة أيام زمان... وين بيروت لَمّن كانت ما تنام! العترة على جيلكن شو شاف... بتعرفي يا مدام روز إنو هالأوضة اللي قعدتو فيها، نزل فيها عمر الشريف... شارل أزنافور وداليدا الله يرحمها (يتطلع إلى الأكياس ثم يتحسس الموز) صومالي!

روز: مبروك الأوتيل

ملحم: يبارك بعمرك

خمس نجوم... خمسين غرفة... أميركان سويت... شايفة هالقساطل، ركبنا حنفيات من جميعو ماء زهر... جلاب... ليموناضة... ويسكي... تكنولوجيا...

(يأكل من الموز)

سبحان من ريّحنا...

انتوا ما خصكن.. قصدي المهجرين

روحه بلا رجعه

إنتو فيكن البَركة... انت والاستاذ عبد الله خمس سنين ما شفنا منكن إلا كل خير راح نفقدلكن

(يقشر تفاحة...)

روز: تِسْلم

ملحم: كلها جمعتين ثلاثة ومنبلش نفضّي دبرتو حالكن؟

روز: بعد (تتطلع إلى ساعتها)

ملحم: قلبي عليكن...

روز: عبد الله داير من سمسار لسمسار

ملحم: دليتو على أبو خالد؟

روز: اليوم راح يشوفو

ملحم: الله يوفق (يقدّم لها موزة) مش من قيمتك

روز: صحتين

ملحم: ملبّكه كاتو... وورد ومخلوطة.. يخشخش كيس البزورات ويلتهم)

روز: اليوم عيد زواجنا

ملحم: العمر كلو... الله يهنيكن... بس حلّها بقا نقشعلكن عريس

(روز متوترة، تقف بسرعة، تلملم أغراضها وملحم يقصقص البزر ويقضم وردة)

روز: عمو ملحم، تعمل معروف بس يجي عبد الله ذكّرو يجيب معو البيف باف

ملحم: هالمهجرين، قبضو وفلّو وتركو الصراصير ما فيها تقلي ست روز.. انو اليوم ٢ بالشهر

روز: اليوم راح يقبضوهن من الجريدة

ملحم: عندي سؤال حشري

روز: تفضّل

ملحم: استاذ عبد الله إشبوشي؟

روز: ليه؟

ملحم: قللي مبارح إنو ناطر تليفون مهم

روز: وين؟



ملحم: عندكن بالأوضة

روز: ولو يا معلم ملحم ما إنت عارف انو ما في تلفون

ملحم: وهيدا اللي خاوتني... كيف قللي عم يرن...!

روز: هوي بيحب يمزح

ملحم: بس سألني أسئلة غريبة

روز: مثل شو؟

ملحم: قال راح يشتري الأوتيل... وعصّب عليّ

روز: ما تواخذو.. هوي موتر، لإنو مش عم يلاقي بيت ومسكّرة معو

ملحم: وضروري يا عمو تتعتري مع واحد جورنالجي

(تلم الأكياس من بين يديه)

... كأني لمحت ابن عمك جان بالمنطقة!

روز: هلّق وصلني

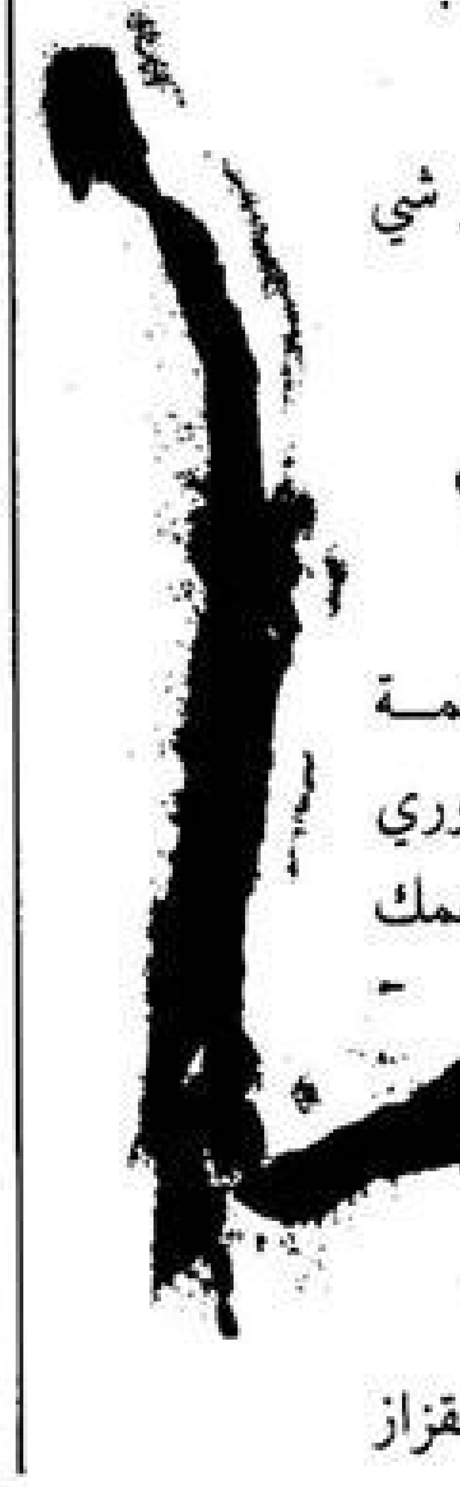
ملحم: يخزي العين عنو صاير شي مهم.. دبّر حالو باوستراليا

روز: التجارة...

ملحم: والماما والبابا كيفن باوستراليا؟

روز: بيسلمو عليك

ملحم: ماتواخذيني لو سمعت كلمة البابا... مش كان أحسنلك؟ ضروري تروحي خطيفة... ولو اخدت ابن عمك جان كنت هلق وين...



روز: (مقاطعة) بالإذن

ملحم: هلّق راح تجي

روز: تأخرت (تغادر)

ملحم (منادياً): ست روز هالقناني القزاز الفاضية حرام تكبوها حقها مصاري..

جمعولي ياهن...

(يرقص مع مجسّم الأوتيل.. اطفاء)

(روز تدخل إلى الغرفة...

الغرفة هي عبارة عن تفاصيل واكسسوارات معاش لبناني خلال ١٧ سنة. السرير عبارة عن عربة خضار، حيث تكون هي القبر والملجأ والفراش وساحة اللعب... في تحولاتها المتعددة...

ثمة رفوف من الكتب والملصقات التي تملأ الغرفة في كل جانب...

غرفة واقعية ـ غرائبية ـ حيث تشكل دواليب المطاط الملوّنة العنصر الرئيس في السينوغرافيا... بالإضافة إلى النايلون من أبواب نوافذ وأكياس زبالة وشراشف... وكذلك الجدران...

هناك جحش الكوي، ودمى أطفال ومكانس وشمسية.

وفي الغرفة منشر غسيل، وجالونات ماء، كيلات منوعة. صناديق كرتون، سراج، لمبه فلورسان ونباريش، وحبال وسلم صغير وسلة زبالة.

توجد تعاليق للثياب وكراسي بأحجام مختلفة وطاولات أيضاً. وتلفزيون

وفي الغرفة كمية لا تحصى من قناني الزجاج المنوعة التي تستعمل للشرب والورد والشمع والزينة... والزيت... والخل... والويسكي... والبيبسي. احذية منوعة من سكربينات وصبابيط وجزمات عسكرية. وكذلك هناك الشجرة التي ستركب على المسرح. من أدوات مختلفة.

انها غرفة وجع وحنان

غرفة كمزبلة انيقة

غرفة... الجمهورية اللبنانية

روز في الغرفة

تضع الأغراض وتوزعها بسرعة من الفاكهة حتى الورد.

تتنقز من شيء ما

تتطلع إلى ساعتها

تنزع سترتها

تصب الماء من جالون في طنجرة ثم تضعها على غاز وهمي

تفتح جزدانها. تأخذ حبة دواء

تشعل سيجارة. تطفئها

تنتبه إلى بطاقة تقرأها وترميها بسرعة في سلة الزبالة.

تأخذ منشفة. تحمل طشتاً لصب الماء.. وتختفي إلى الداخل).

(نسمع صوت عبد الله)

عبدو: يا معلم ملحم روق... ذوق... يا عيب الشوم. لوين لاحقني. معربط فيي... شو هربان؟ هلّق راح إدفعلك... مش شايفني كيف محمّل...

روز

يا روز **(يدق الباب)**

(يدفش الباب، ويدخل السيد عبد الله، يبدو لنا كمواطن بائس. حاملاً محمّلا حيث لا نرى منه شيئاً يحمل بيده غالون ماء، وبطارية سيارة معلّقة برقبته، حقيبة على كتفه، صندوق كرتون على رأسه، بالإضافة إلى حمولة من الصحف والمجلات والكتب)

عبدو: روز

روز (من الداخل): وينك لهلّق؟

عبدو: وينك لهلّق! تعي شوفيني جوزك معتّل دولة على راسو عشرين وزير.. والحالي

(يضع جالون المي) وزير المياه

(يضع البطارية) والموارد الكهربائية

(يضع لفّة الأكياس النايلون) البيئة

(يصف الجرائد والمجلات) ساحة الاعلام

(يضع صورة شبه عارية) السياحة

(يضع كروز دخان) الصحّة

(يستعرض الأغراض والأشياء وكأنه رئيس وزراء)

هاي حكومة... محرزة.. ومش بحاجة... عايز مستغني. حلفت ما حدا بيقوم... في كم وزير مش طايقني انت مش عاجبني... والله عم فكّر إحرّد... ناقص واحد... الهاتف اللاسلكي...

روز.. حدا اتصل بغيابي؟

روز: بَلا خَوّتك

عبدو: وليه منين عم تحكي؟

عم تتحممي؟

روز: عم اقرص راسي

(يصبص عليها ويصفّر)

عبدو: حلوي... بدك مساعدة...

بيجي بقرصك؟

(يدق على الباب ٌبهدوء)

عبدو (بصوت منخفض): روز

روز: عيب

عبدو: الله يخليك

روز: استحي

عبدو: ولو... يرحم كل شيء ميِّت لك

روز: قبضت؟

عبدو: ايه قبضت

روز: دفعتلّو الأجار؟

عبدو: بعد شوي

روز: وين المعاش؟

عبدو: معي

روز: ما تلعب فيه... ضاهرة

(يخبيء عبد الله خمسين دولاراً في كتاب)

عبدو: إستحياط

ناطرك

روز: شفتو لأبو خالد السمسار؟

عبدو: شفتو

روز: شو قلّك؟

(أبو خالد، سمسار بيروتي اللهجة يقف خلف مكتب سمسرة من صناديق ودواليب، ويحمل في يده عشرات المفاتيح من كافة الأنواع ويخشخش بها).

أبو خالد: يا أباي! قُلتلي صحافي...؟ الشغل مش عيب. في بيوت فاضية بالأشرفية. أمّة عيسى عم تفل.. في شقة أرضي، ثلاثة نوم، حمامان قدامن جنينه ورا ساحة ساسين، ٢٥٠ دُرر بالشهر، سنة سلف، شو قلت؟

عبدو: يا حرام عالأشرفية....! ليه عم يفلّو..؟ هلق صحيح مرتي... من اخوانا النصارى... بس أنا يعني راح يلقطوني من حكياتي... ويفتكروني شي! راح يسألني الدكنجي والخضرجي

ما تعرّفنا

ويزأوروني... ويبحلقو:

شو سكّنو؟

شو قعّدو؟

شو القصة؟

أبو خالد: على قد مصرياتك بتلاقي بيتك

وأنا حبيتك

روف بالجبل... عاليه

صيفي شتوي...

شي بيجنن... تحت منك سوق الغرب خَضار وهباط... كحالة... بيروت... تلت ساعة شو قلت؟

عبدو: عاليه؟

أبو خالد: عروس المصايف!

عبدو: ليك... بني معروف أكرم ناس... اخوانا الدروز أطيب عالم... بس ضروري عاليه...؟

أبو خالد: ليه...؟

عبدو: سيارتي يا أبو خالد بينقطع حيلها عالصباد وتانياً بدّك تنتبه للتلج وتسكير الطريق

أبو خالد: طريق عاليه عُمرها ما سكرت بالتلج

عبدو: إذا ما في ثلج... هني بيسكروها

أبو خالد: في شقة دولوكس لقطة، ٢٠٠ درر بالشهر وصاحبها صاحبنا قاعد باللاغوس مش عايزها هلق، وبين أهلك وجماعتك

عبدو: هيدا حكي زبّاط (ضبّاط)

أبو خالد: قوم معي فشخة عالضاحية

عبدو: الضاحية؟

أبو خالد: بير العبد... قبل الجامع بشويّ

عبدو: بير العبد؟

مش حرام الضاحية ناس مكوّمة على بعضها مجارير طايفة... شو الضاحية مش من البلد؟

أبو خالد: لشو عم تفجّع... بدك البيت؟

عبدو: ما تواخذني يا أبو خالد.. مرتي فزّيعة

أبو خالد: شو الإسلام بياكلو عالم؟

عبدو: ما بياكلو... بيزلطو.. زلط ... ومرتي أوقات بتلبسلي من هيدا الحفر

وياما قلتلها على شو هالزنطرة!

لشو هالبرمودا!

أبو خالد: شو خص بير العبد...؟

عبدو: انو عالطالع والنازل بتسمع حكي على شو مكشلحها لمرتك.. ها...؟

بيلحقك إثم... ها

وأنا يعني أوقات بحب مزمز

يقوموا بشي ليلة يمزمزوني...

يفتكروني العبد... ويزتوني بالبير

وصير بير العبد عن جدّ ... بلاها

أبو خالد: مارق على راسي زبونات كتير بس متل أفضالك، ما سنحتلي الفرصة

عبدو: الله يخليك

أبو خالد: العمى بعيون شيطانك... رجاع رجعو على ضيعكن عمّر لك أوضتين ومنتفعاتن... وعلى شو معربشين ببيروت...؟

عبدو: رجعنا عالضيعة تنعمرن... عنا دوغمين قاعدين فيهن نيجيريا...

أبو خالد: مين؟

عبدو: نيجيريا... .U.N

قلنالن... Master we want our دونم Go Nagoura

ناغورة... غو مجلس جنوب، وقالولي:

الموظف: بدك تطلع النيجيرية... يا عنصري؟

انت ضد الـ .U.N

ضد الـ ٤٢٥

يا عميل... يا خاين...

نيجيريا ما بيطلع ليطلعو اخوانها الإسرائيلية

عبدو: يعني لتطلع روحنا

الموظف: لجهنم

أبو خالد: أنا راح ابعتك عالجنة
ومني مفتاح صنع تايوان...
طلاع لحق حالك، عم يقولو بلّشو يحتلو
طلاع، حدّ منك هالعسل واللبن
وفيك تقطع لبنة وجبنة
وقريشة كمان

عبدو: شو قلت؟

(يختفي السمسار)

(تخرج روز من الحمام، تلف رأسها بمنشفة، عبدو يصفّر لها)

عبدو: يا نعيماً... حمام الهنا (**ويغني لها كالأطفال**)

(يركضان لبعضهما كما في الأفلام الرومانسية
يراقصها
تنزع روز المنشفة، تحولها إلى ما يشبه المنديل الأحمر لمصارع الثيران يتحول إلى ثور. ثم تحول المنشفة إلى أداة جلد وهي تلوّح بيدها إشارة إلى الفلوس)



عبدو: المعاش؟

روز: يقبرني اللي بيفهم

(يناولها ويعدّ)

عبدو: ٢٠٠ دولار... ٢٣٠ ألف لبناني
٥٠٠ فرنك... ٥٠ باوند قبرصي

روز: شو هيدا...؟ أول مرة بشوف هيك عملة

عبدو: يمكن شاقل

روز: شو فوتو بيناتن؟

عبدو: خليها... بكرا بتنعاز

روز: شو عم تراسل يديعوت أحرونوت؟

(تعد، وهو يصفّر.. خائفاً... فتصرخ)

روز: ايديك لفوق

(تفتشه على طريقة البوليس الأميركي. تدفشه إلى الطاولة، تفتح فخذيه)..

عبدو: عيب يا روز

(تجد روز أموالاً مخبأة في جيوبه الخلفية وفي سترته الداخلية)

روز: الصبّاط

(ينزعه طائعاً)

روز: اشلاح

عبدو: ما بيجوز

روز: وليه.. حدا بيسرق حالو!

عبدو: وحياة أم الروز

روز: ما تحلف

عبدو: والله العظيم

روز: رجعنا للبوكر!

عبدو: يحرم عليّ وحياة العدرا

روز: ما تحلف بالعدرا

عبدو: ما هيي ستنا مريم...

روز (تصرخ): يا ماما... (**وتقفز خلف عبدو مرعوبة**)

عبدو: يسميّ على قلبك وكبدتك، حوّطتك بالزهرا

روز: في شي مرق ... لمع
طبعاً ما جبت البيف باف

(عبدو يخبط على رأسه متأسفاً)

روز: يا سواد ليلك إذا شرّف

عبدو: يا ريتني صرصور لتخافي مني

(يتراجع مفتشاً)

روز: انتبه راح تروّح الكاتو بطريقك

عبدو (متفاجئاً): كاتو.. وأزهار كمان! شو المناسبة؟

روز: شو رأيك؟

عبدو: في عيد

روز: عيد شو؟

عبدو: ما تقولي.. على راس لساني... عيد العمال!

روز: لأ... عيد الاستقلال!
مثل اليوم انقبرنا... اتجوزنا...

عبدو: صاروا خمسة؟! شو مرق أيام!

روز: شو مرق حروب!

عبدو: شو نزّلو أوكازيونات وصفّو شباب!

روز: وشو صفّو ناس

عبدو: ايمتى تجوزنا؟ مش بحرب الالغاء؟

روز: لا يا حبيبي.. بنُص حرب التحرير

عبدو: وبالاجتياح تعرفنا على بعض

روز: يومتها ما كنا نعرف بعض

عبدو: تذكرت... انهبلنا ببعض
بين حرب العلمين... وحرب المخيمات... شي بيدوخ.. نسينا

روز: Love ربي بين الصواريخ...

عبدو: يمكن الحرب هي اللي خلتنا نحب
يمكن الحرب حببت الناس ببعضها بالغلط وتجوزت بالغلط؟

روز: زهقت مني هلق؟

عبدو: لا.. ولو... بعدني بحبك

روز: بتذكر أول مرة قلتها؟

عبدو: بذكر منيح... يومتها كان الدولار بـ ٣٢٠ ليرة و٣٠ قرش

روز: أول مرة كمشتلك ايدك، كنت تفرفر مثل شي عصفور بردان

عبدو: وانت مثل البسينة تكوكي بحضني، وملحسلك

روز: شو كنت حنون...!
بحّة صوتك حسّها مثل الجاز تولّعني تشعلني

عبدو: وأنا مثل الكاز أولع أكتر، واتشلفط

روز: لما تعبطني، تهز كلك سوا

عبدو: انتِ كانوا إجريك يسكسكو

روز: يا عين على أول لمسة!

عبدو: أول رجفة!

روز: أول عبطة!

عبدو: أول نومة!
يومتها نزلت دمعتك

روز: كنت مبسوطة فيك...

بعدك بتشتهيني؟

عبدو: واكتر

روز: مش متل الأول... الأشياء عالأول دايما أحلى

عبدو: كيف؟

روز: كنت تقول نكت بايخة، بس اضحكلك عن جد

عبدو: ما كنت مهضوم؟

روز: ... ولذيذ.. تبقى قاعد مكوّم على بعضك وراسك بالأرض

عبدو: ... مكوم على بعضي أوقات... انو كون مزروك واستحي منك.

روز: طفران، تهوبر وتهمدر وتسب بالعالي. امسكلك إيدك، تهدا وانبسط لما يحمرّو خدودك

عبدو: أنا اكتر شيء كنت استحي... لما تدفعي عني وبعدين صرتي تناوليني من تحت الطاولة

(خلال المشهد التالي تبدأ صور سلايد لهما وهما في أوضاع غرام وحب وعناق وركض وخلف كل صورة مشهد حربي معين: خلف دبابة ـ مسلحين ـ قذيفة مزبلة... والحوار سريع متقطع. كل واحد في عالمه الخاص)

روز: ما تعملّي بطل... بس تدبك انزال عالملجأ

عبدو: ما تطلعي بالخصوصي... شوفي النمرة إذا حمرا

روز: احتلو بيت أبو بطرس اللي فوقنا

عبدو: انا مين ناطر.. ليه ما جيتِ؟

روز: أبو نخعة عم يتفتل قدام البيت

عبدو: شو بدو ابن عمك جان؟

روز: بتغار... بحبك انت وليه.. افهام

عبدو: نامي الليلة عندي

روز: انت مجنون

عبدو: والله ما بعملك شي... بفرش عالأرض، وانت نامي عالتخت... صحيح الأوضة زغيرة بس بتكبر فيك... نامي عندي

روز: ناوي أمي تخوت... ويقولوا خطفوها الإسلام؟

(صور سلايد سريعة لمانشيتات جرايد من عام ١٩٨٨ حتى ١٩٩٠ من أخبار أمنية واجتماعية وفنية)

صوت والد روز: يا بابا الهيئة ما قصة بوي فريند... ومش بس صحافي... مسلم كمان!

أم روز: يا ماما بكرا راح يلبّسك.. ويحجّبك

أبو روز: وليه ما عجبك ابن عمك جان...؟ هيانا هاجينّ كلنا عاأوستراليا.. إلا حضرتك ليه؟

أم روز: يا ماما فكّري منيح، بيّك معو بالقلب، وما بدك تكفي الدكتوراه بفرنسا؟

شقيقها: شوفي أنا خيك طوني من هلق بقلّك لا اختي ولا بعرفك، يللا بكرا بتصيري حجة روز

عبدو: تتجوزيني يا روز؟

أبو عبدو: يا حجة قومي شوفي ابنك، عبدو بدو ياخد وحدي من أهل الدمة، ومش بس ما اسلمها رايح فيها عاقبرص، لا ابني ولا بعرفو

عارف آخرتو من أولتو، خريج حزوبة ما راح ورتو شي.

عبدو: مات وورثني دوغمين، أخدوهن نيجيريا.

روز: مثل الغنم هجّو من الـ Port ما قدرت ودّعن، ولا حتى طوني قدرت ودعو... طوني المزتوت تحت جسر الواطي.. ولحقو صهري بالقليعات

عبدو: خيي حسين تقطعوا اجريه بجباع.

روز: خشخشنا

عبدو: خش صدام عالكويت

روز: طارت الكويت

عبدو: طار الجنرال

روز: كل شيء عم يطير!

عبدو: طرنا عالشام ومن الشام عاقبرص وتجوزنا هونيك مدني.. نكاية

(فلاش لصورة فوتوغرافية ومبروك باليوناني)

(سيفاريتيريا SYFA RITIRIA)

عبدو: ومن قبرص عالشام، عابيروت عالحمرا على هالأوضة

روز: وبعدنا بنفس الأوضة

عبدو: شو مرق أيام!

روز: وشو تباوسوا!

عبدو: بابا... عندك صوت بيصير مطرب عندك صوتين بيصير نايب

روز: أبو نخعة حلق دقنو

عبدو: وشي حلقولن عالناشف

روز: كتروا السيريلانكيات

عبدو: لحقوهن الرومانيات.

روز: كترو الانتينات

عبدو: كترو الرّقاصات

وهزي حليمة

(يرقصان، يتبادلان الانخاب، يقصان قالب الكاتو)

روز: شيري جاي عبالي هالحبة الفريز

عبدو (بلهفة): جاي عبالك... شو؟

روز: ما في شي تطمن

عبدو: شفتي الحكيم اليوم؟

روز: ما في نوا

عبدو: بس... عم قوم بالواجب واكتر

روز: قللي الحكيم انو بدو يشوفك

عبدو: ليه؟

روز: قال يمكن البذرة تكون ضعيفة شويّ

عبدو: بذرتي؟

روز: **بتصير مع كتير رجال**

عبدو: بتصير مع غيري مش معي غيري الحكيم

روز: غيّر هالحديث

عبدو: بس صرلنا سنتين على هالحالة...

روز: شو خصني أنا؟

عبدو: ليش الأولاني مين جابو؟

روز: ورّوحتو حضرتك (ضربة موسيقى)

(يتبع... انت لبناني)

عبدو (مرتبكا): أنا...
روز: يا خيي غلطنا... وإجا عبالنا حبة فريز
عبدو: لأ... انو أنا فكرت... يعني بلكي... وانبسطت
روز: ليش من سنتين ما انبسطت... كان ضروري نروحو؟
عبدو: كان صار عمرو سنتين
روز: وثلاث اشهر
عبدو: طلعو سنانو
روز: صار يقول ماما...
عبدو: انكخ... ابوشيني... نعالبابا...
«تريمسي يا تريمسي... يا حبة العديمسي باعتني خالتي، تجيب كوز البصل، وقع مني وانكسر حطي اجرك يا عروس... وخبيها بهيدا الصندوق»
Flash Back (مشهد استرجاعي)
عبدو: ليه ما انتبهتِ للعد؟
روز: شو ابني الحالي..؟ ما تنبر بوجي
عبدو: قلتلك نأخرو، لاحقين
لوين جاي ومشرّف..؟ ما إلو مطرح بهالأوضة
وين منحطو؟ بدقلّوا مسمار بالحيط؟
رزقتو عليّي، مش معو
انت عارفة، انو عايشين عالسِّلَف
الشغل خافف وكل العالم بدها تعمل صحافية
...
نروْحو
روز: ولا ممكن... لا... لا...
عبدو: عندك حل؟
روز: شيري... نحنا ما إلنا شي هون، منهجّ، منسافر... منشفلنا شي دولة... تحبنا اكتر
عبدو: كيف؟ ولوين؟
(المزور يحمل كرة أرضية، يفتلها، يبرمها، كأنه لاعب كشاتبين يحمل ختماً، يلبس بنطلوناً مع كل علامات شركات الطيران. إضافة إلى أعلام صغيرة، ونسمع أثناء الحوار التالي، أصوات بواخر وطائرات وثغاء ماعز وخوار بقر).
المزوّر: قرّب وجرّب
فيزا ياليزا
هولندا... ايرلندا، سويسرا...
السويد... USA
يا الله، هجّو، وتغرّبو
محسوبكم، ابو سمرا الطيار
اللي ما عندو وطن منخترعلو وطن
فيزا
يللا يا لبنانية... خيّمو براً.. كلنا نوَرْ
(يفتل الكرة الأرضية)
المزوّر: يا أهلين...
طلعتلك برلين Guten Nacht... يا أشلوخ.
عالوصلة لبنانون... بوم... بوم...
بيت... خمسمية مارك
مرتك حبلى عال... الدولة بتربيه
بيكبر كرشك، بتصمد قرشك، بتشتري سيارة
على بور بيروت... وركز عالمرسيدس
(يفتل الكرة الأرضية)
المزوّر: فيزا يا ليزا U.S.A
صعبة شويّ O.K never mind
ابن خالك هونيك
بيبعت باسبور اللي عليه غرين كارت
منقيم صورتو، منحط صورة حضرتك
بيتغير اسمك، بيبقى كسمك
بتوصل، بتفقعها جوازة مع اميركانية
بتاخد الغرين كارت، بتطلقها،
بتبعت وراء المدام، بعد عمر طويل
(يفتل الكرة الأرضية)
المزوّر: قرّب... وجرّب
فرنك بالربع
عشرتك بالنص
ربعك بالليرة وربع
افتل... إبرم...
اوستراليا...
سيدني... سيدني معك سيدني...
ابن عمها للمرا هونيك... عال Listen to me
بتطلق مرتك... عالورق
بتجوزها لابن عمها... عالورق
بيسحبها لعندو... بتاخذ إقامة
بيطلقها هونيك... بترجع هي بتتجوزك وبتسحبك
عبدو: وبلكي ما طلقها؟
المزور: في أحلى من العزوبية... رزق الله عالعزوبية
(يفتل الكرة الأرضية)
لندن... فتح عينك تاكل ملبن
منجيب فيزا عافنزويللا
عبدو: شو خص فنزويلا بلندن...؟
المزوّر: Listen to me... الميدل ايست بتعمل اسكال بلندن
نزلتو ترانزيت...
بتمسك هالباسبور، وبتشقفو
بتاكلو، يمكن تغص بالارزة شويّ
لانو صعبة تنبلع
بتتشردق... بتشرب.
بيجي البوليس مان
No passport...
بتتمرمغ عالأرض
نو... ليبانون... هُزب الله....
بوم... بوم
مرتك بتشلف... انت بتتمرمغ
شلّفو...
ولولو
جعروا يا لبنانية
بدن يرجعوك، بتسحب هالشفرة
وبتشطب حالك
بيسحبوك بالأمبلانس، صرت جوات
الملكة اليزابيت Welcome to London
ويمكن الله يوفقك هونيك وتغرم فيك
الليدي ديانا
عبدو: ما أنا متجوز
المزور: بتعطي مرتك لتشارلز
المزوّر: يللا بيعو وهجّو
وحياة ولادي الفيزا بتكلف اكتر من ثلاث الاف

يطفو عيوني... ما بتوفي... ريتني اعدم ولادي

يللا بيعو.. الله بيعوّض عليكن عالوصلة.

البراد بـ ١٥٠ (على آلة حاسبة، يحسب...)

الغسالة بـ ٥٠

التلفزيون بـ ٤٠

طلعو الدهبايات.. مباريم، اساور، دمالج

يللا بيعو وهجّو

مسجلات. سجاد. ساعات

كتب. ملاعق. شوك جاطات

قمصان... كلاسين...

محبسك لو سمحت...

باقي ٢٠٠

محبس المدام لو سمحت (**يشد اصبعها، تفلت منه**)

بسيطة، ما في شي غيرو ينباع؟

عبدو: بعد في اللي ورتني اياه الوالد... بتاخدو؟

المزور: الله يسامحكن

روز: الله لا يسامحو... رجعونا من مطار بيروت

عبدو: طارو الثلاث الاف

روز: طار العفش

عبدو: انبسطتِ هلق؟ بدي هج، بدي سافر منيح اللي خلينا هالأوضة على حسابنا

روز: ما تزيد على قلبي

عبدو: هلق شو؟

روز: شو؟

عبدو: الاخ لازم يغادر (**مشيراً إلى بطنها**)

روز: قالتلي كاتيا حرام

عبدو: انا اللي بيعرف الحلال والحرام

روز: بيقولو اذا راح الأولاني صعبة يجي الثاني

عبدو: اللي جابو بيجيب غيرو

روز: خلينا نفكر شويّ

عبدو: فكري معي، منين بدنا نجيب الـ ٥٠٠ دولار حق العملية؟

بسمع... انو خدي خبيزة... لو ليكي عملي حالك انو زحطت

روز: عبدو... (**ترمي له جالون الماء أو دربكة**)

دقلّي... انا اللي راح رَوْحو

(**ترقص روز كأفعى تشب من مكان إلى آخر والإيقاع يرتفع إلى حدٍ هستيري**)

روز: رقصني.. دقلّي اكتر...

حاسستو... بعد...

عبدو: روز!

(**تفلت منه، وتقفز من مكان إلى آخر وهو يطاردها مرعوباً**)

روز: اتركني

عبدو: نور عيوني

روز: فلتني

عبدو: يمكن تنزفي

دخيلك... بيبع حالي ولا يصير فيكِ شي بخسر الولد... ولا بخسرك

(**يحضنها بقوة**)

...

...

(**هنا ينتهي المشهد الاسترجاعي**)

عبدو: خسرناه.. وبعدنا مطرحنا

روز: وهلق صار بدّك

عبدو: هيانا لحالنا لا أنيس ولا جليس

روز: منحزر حزازير... منستحلي ولاد العالم

عبدو: منتحسر، منشوفون بالدعايات

يا ريتني سمعت منك وجبناه

روز: شفت!

عبدو: كنا ربيناه، وبعناه... واخدنا بحقو شقة عالخريطة

روز: تفو عليك

عبدو: بيقولو حق الولد خالص مخلص لسويسرا ٢٠,٠٠٠ ألف دولار

روز: اسكت

عبدو: شوفيها... منفقع ضرب تاني، منعفش البيت

هلق انت بتحبلي، وأنا بصدر

نحنا منخلّف، وسويسرا بتربيّ

روز: حاجي تبيع وتشتري

عبدو: شوفيها، كلو بيزنس

روز: شفنا تجارتك انت وصديقك فاروق

عبدو: فاروق!

(**فاروق... شخصية علاقات عامة... أناقة مبالغ فيها... غروتسك**)

فاروق: وليه انا صديقك فاروق... فهام عليّ

الحياة Public Relation...

طيّرتو الولد، يكسّر دياتكن

بس على شو بعدك رابخ، نزال، انتقم، Revange

قوم

غيّر حياتك، غيّر حلاسك

تصرف، تعرّف، تعرّفو عالناس

ما تقللي شو بتعرف، قللي مين بتعرف

Public Relation

حاجي مجبجب، ولا كأنك من هالبلد

كون حربوق، مِلْسِن، مهضوم Smile...

ابتسم... انت لبناني

احفظ نكت

مرة أبو العبد

مرة واحد حمصي

كلو Public Relation.. كوناكشن.

جينراليشن

حرّك لسانك، شغل راسك

عملّك مشروع مجلة، رسالها Public Relation

ما تقللي شو بتعرف، قللي مين بتعرف
تعــرّف عــاحــدا مقــرش، خليجــاني،
افريقاني، اميركاني
حيا الله. . . تعرّف وتصرّف
هيّصلو، اسمعلو
فرفشلو، تشتشلو
طوبزلو Public Relation
كل الـ money بالبلد من الطوبزبيشن
على علمي جورنالجي! دوّر بهالكوكتيلات
بالكوكتيل بتتعرفو، وبتوفرو حق عشا.
وخود معك كيس نايلون عبو للغدا
ما تقولولي شو بتعرفو
قولولي
مين بتعرفو
يللا عالكوكتيل Public Relation
(مناخ كـوكتيـل. . . ضحك وكؤوس، وبربسة حكي، وموسيقى ناعمة)

روز: حاجي تعق
عبدو: قلتلك ما بسكر. . . بدوخ
روز: تهدّا فيي
عبدو: شايفة ملّا كوكتيل!
ليكي هيدي ام تنورة
روز: وين؟

عبدو: هيـدي ممثلة كـومبـارس زاغتـا مخـرج. . . والمخرج لاحق المنتج، والمنتج عينـو عـلى الصحـافيـة الشلّوفـة، والشلّوفـة معـربطة بـالتاجر، والتاجر لاحق الرقـاصة والرقاصة فلتانـة على مغـترب طازة والمغـترب مشوشح بـالنايب. . . والنـايب لاحق السفير الاميركاني. . قرّبت الانتخابات.
وكلو لاحق بعضو Public Relation
وكلو عالحمام شي عم ينخع
شي عم ينتع
(شخص مخنث: ياي. . .
يمـر بين الحين والآخر: منلك هـالعضل! زيز ياكلك
ويخبطه بجدولـة) انت مليون، لارج. . خزيق. . .
عبدو: مرتي وينك؟
عبدو: شو وقفّك حدو؟ شو قلّك؟

روز: ضروري تعرف!
عبدو: طبعاً
روز: قلي إذا فيي ترجملو أفلام
عبدو: عال. . . رزقة ما تطيريها
روز: افلام سكس
عبدو: سكس. . . امو
روز: خلينا نمشي
عبدو: طولي بالك مـاجينا لنشـوف تاجـر السكر
روز: منشان شو؟
عبدو: ما قلتلك قنعو فاروق يفتحلي مجلة
روز: قلبي ناقزني
عبدو: ما تزني، شوفي العالم كيف عايشة كلو نازل بيع وشرا. . . خلينا نبيع مرة
روز: شـيري. . . ليش الرجّـال إذا بـاع حـالو بيقـولو عنـو شاطـر. . . شاهـا من تم السبع؟ والمرا إذا عملتها بتصير. . .؟
عبـدو (مقاطعـاً): يا أهلين بـأهم تـاجـر سكّر بالبلد
التاجر: شو استاذ عبد الله خبروني بدك تعمل مجلة
عبدو: Oui
التاجر: بس مرتك حلوي
عبدو وروز معاً: شكراً
التاجر: حلوي مرتك
عبدو: نزّل إيدك عنها
اخت الـلي عملكن وسـواكن ونفضكـن وعرفني عليكن
روز: يومتها جرجروك وضربوك

عبود: هجمو عليي متل الوحوش. . كل الكـوكتيـل كـل الـريـلايشـين من دركيشن، وزرايشـن، سفـرايشـن، صحـافيشـن، مطربيشن. . وكلّه هيشن عليي
روز: وقفلي هالـذكريـات. . هلكتني شو ها لليلة عيد زواج ولّا فيلم هندي؟!
(يـرن التلفـون الـذي لا يسمعـه سـوى عبدو)
عبدو: عم يرن
روز: بلا مزحك
عبدو: مش سامعة؟

روز: روبصت. . . أيا تلفون؟
عبدو: لأنك طرشة
روز: كـلما سكّـرت مـعـك، بتـصـير بتروبصلي وتهسترني. . . زهقتني
عبدو: روحي يا عمي
(تغادر)



(رنـين تلفـون مـع أصـوات مـوسيقى تلفون، متسارعة وبلغات متعددة)
آلو
أصوات سكـرتيـرات: استاذ عبـد الله هون مكتب دولتو خليك لحظة
مسـتر عبـد الله Just minute **(صـوت موسيقى تلفون)**
مسيـو عبـد الله Une minute**(صـوت موسيقى تلفون)**
بالاسباني **(صوت موسيقى تلفون)**
Momento بـالايطالي **(صـوت مـوسيقى تلفون)**
بالصيني **(صوت موسيقى تلفون)**
السكـرتيرة: عبـد الله انا هنيـة سكرتـيرة دولتو، ودولتو بدّو يشوفك
عبدو: أكيد؟
السكـرتـيرة: مش انـت عبـدالـله من كفـرجرة Journalist طولك ١٦٥ عيـونـك سود وبتحب الكبة النية؟
عبدو: Ya
السكرتيرة: مش انت اللي بيشمر بنطلونو لفوق؟ قهوتك سكر قليل. نمرة إجرك ٤٥؟
عبدو: Ya
السكرتيرة: دولتو عايزك
عبدو: خير؟

السكرتيرة: بس قول دولتو، يعني خير مش هيك؟ كلو خير
عبدو: طبعاً
السكرتيرة: بكرا، راح تجي سيارة سودا تنتعك الساعة ٩ إلا ربع
تعا بلا عشا لحالك، توب سيكريت
بوابة القدر انفتحتلك
باي...
عبد الله... شمّر بنطلونك
(عبد الله متفاجئاً، فرحاً، مشمراً بنطلونه، أعلى ما يمكن)

روز: بعدك عالتلفون؟
عبدو: روز... خليكي معي عالخط
روز (ضاحكة): شو حبيبي...؟ نعم...؟ أمر؟
عبدو: دولتو بدو يشوفني
روز: مين؟
عبدو: ما تضحكي
روز: أيا تلفون أصلاً ما في ساعة؟
عبدو: هوّي قادر على كل شي... بدو يوقف بوجو شقفة تلفون...! بس شو بدو مني؟
روز: مين؟
عبدو: دولتو... مش مصدقة؟!
روز (تسايره ضاحكة): مبلى... يمكن بدو ياك لتعمل معو مقابلة
عبدو: عندو رؤساء تحرير.. هوّي التلفزيون كلو وأنا شقفة جورنالجي تَبَع شعرا ورقّاصات
روز: شيري.. يمكن بدو يعيّنك وزير
عبدو: ناقصو وزرا! وما كان عندي ميليشيا ومرة وحدِي طالع عالشام
روز: معقولي شيري يتبناك
عبدو: يتبناك...؟ شو هالذكا... بنت فِتْحَة الله يخليلو ولادو
روز: لقطّها.. واحد متلك، بدوياك بودي غارد
شبوبية
جسم خزيق
حط العوينات
سنسال دهب
(يتحول إلى مرافق)
عبدو: إرجعو لورا وليه
(يحطم ويدكرب الدواليب)
قرّب... ياب أم..
اختك.. يا مرسيدس... كيفني معك؟
روز: شفت ما أحلاك...
إذا حراسو ملكات جمال، مرتبين، محلوقين، متوفين
عبدو: هولي اللّي برا... كيف اللّي قاعدين جوّا؟ معقولي يكون قرا افكاري؟ حس فيي؟
شاف مناماتي.. انا مهودس فيه
هوّي أملي
أكيد... أكيد بدو ياني مستشار
روز: طبعاً... وين بدو يلاقي أفهم منك شيري؟... شو هوي المستشار؟
عبدو: واحد آكل شارب نايم وشو ما قال دولتو راسو نزول
مظبوط، معك حق شي حلو...

روز: مستشار يعني حمار
عبدو: المهم مستشار
(تتصاعد وتيرة أحلامه وتخيلاته وتشاركه زوجته).

عبدو: وبيت عاراس بيروت
روز: لا... عالرملة البيضا
يتقاسمان الكلام معاً: اربعة نوم، خمس حمامات
خمسة لشو؟ منين منجبْلن كاكا؟
رانج روفر، شيكات، اميركان اكسبرس
شوفير، طباخ، كريستال، صيني
رخام، فضة، بودي غارد، شاليه، باليه
سيجار، مسبحة، الكترون، ريموت كونترول

إبتسم... أنت لبناني

كبس أزرار

شي بيضوّي

شي بيحلّي

ضهرات، سهرات، سواريه، ماتينيه

عبدو: حلوي السلطة

روز: ومنتبرع لليتامى

عبدو: والناس بدها خدمة

روز: وفينا ما نخدم؟!

عبدو: فيليبينية حاملة الصينية Good morning master



روز: سيريلانكية يا بو عين بيضا

عبدو: بتشكي فيي؟

روز: الرجّال بس تنتلي جيبتو بيفضا راسو

عبدو: والبرندة شرحة عالرملة... وتحت منا هالبحر

نفز ونط، نشك ونغط

يللا يا بابا... مين بدو يروح مع بابا تش؟

روز: راح صدقك عن جد

عبدو: ما تنقّي

روز: قملي هالأوهام من راسك

عبدو: مفكرتيني عم احلم؟

روز: لكان شو؟

عبدو: بكرا بتشوفي ٩ إلا ربع

بس اللي داوخني انو كيف عرفو نمرة اجري ٤٥

اكيد مراقبيني. لاحقيني عالدعسة

عم يقولوا حطّو كاميرات مخفية بالشوارع

روز: قوم حبيبي... بكير عليك لتخرف وقملي هالتلفون من راسك قوم يللا غسّل اجريك وإلبس بيجامتك

يللا يا عيونا لروز

نام وفيق بكير

لتشفلنا شي قرنة نتقبر فيها

بكرا راح يزعبونا

ما عاد في بالشهر غير جمعتين

عبدو: انو انت مش مصدقة انو تلفنولي؟

روز: مبلى... خود بيجامتك

(روز فجأة، ترتعب، وترتجف وتهتز كلها، وتصمت كأنها خرست وفقدت صوتها وتشير إلى البيجاما)

عبدو: خدي نَفَس

روز: صر.. صو...ر عالبيجاما شفتوا عم يتمختر، عم يتغندر شايفو كيف عم يفتول شواربو؟

(يخبطه)

روز: فز عالتخت وراك... **(تقفز عليه)**

من الصبح وصيتك جيب البيف باف يا قليل المروّة

عبدو: بلشّتي تعرقي؟

روز: بتعرفني... **(يهدىء من روعها ويلاطفها)**

عبدو: يا روز.. ما بدها هالقد.. كلو شقفة صرصور يعني شي تافه.. حقير مثل حضرتي

تانياً بأميركا بربوه وإلو جمعية Sarsour Foundation cooperation

تالتاً بكوريا وفيتنام بيقلوه بيعملوه بوشار

روز: يلا قرفك

عبدو: يا روز... إنتِ أوعى منو للصرصور

اشطر منو

ابوك يا صرصور

قرّب... اعتذر وبسلها ايدها لتانت روز

روز: شوف هيي كلمة وحدي

يا بتقتلو، يا بهجّ من البيت الليلة

يا أنا... يا هوّي.

عبدو: وصلت للطلاق؟

روز: مرق.. مرق ليكو فات بين الكتب... سامعو عم يخشخش؟

عبدو: لأ يا مخشخشة

(يخبط الصرصور بكتاب، تقع منه الخمسين دولار التي خبأها، تلاحظ زوجته طيرانها، تتابعها بعينيها، يلاحظ انه انفضح، تلم روز الخمسين دولاراً بهدوء... يتهرب هو منها كأن شيئاً لم يكن... يرتبك تحدق إليه... فينادي)

عبدو (صارخاً): وليه صرصور

روز (بهدوء): عبودي

عبدو: يا صرصور. يا ابن الكلب مين قلك تنزل عالحرب؟

روز: عبد الله... تعا لهون

عبدو: شيري الـ...

روز: قصة الصرصور انتهت، تفضل لهون

(يأتي إليها مذلولاً، مضموماً على بعضه كأنه صرصور)

روز: منين هالخمسين؟

عبدو: طلعتلك هدية

روز: منين؟

عبدو: شو بعرّفني.. عم بلاقي دولارات بالأوضة

تعي نبحبش

روز: منين الخمسين؟

عبدو: هيدا حق مقال عن المهجرين بعتو لجريدة الفجر الخليجية

روز: المهجرين بخمسين؟

عبدو: هوّي حقو ميه بس وكيلن يعني عميلن بياخد كوميشن

البلد كلو وكلا... كلنا عملا...

روز: هلق ما تخطب، ليه مخبيها...؟

عبدو: الـ... **(مرتبكاً، يتأتىء، يتلعثم)**

روز: جاوب بسرعة

عبدو: بشرفي ايدي عالقبلة

روز: ما تحلف

عبدو (بجدية مبالغة): كنت عاملّك مفاجأة، مخبيها لعيد ميلادك

روز: ميلادي كان من شهرين

عبدو: والله...

انا قصدي لعيد ميلادك السنة الجايي

عم صمّد من هلق

على كل حال هابي بيرث داي..

روز: عم تخبي علي... وبتكذب؟

بتعرفني الكذب ما بطيقو

عمري ما كذبت عليك

عبدو: ما تبلشي

روز: شوف، خود هيدا معاشك تعبك أصلاً

عبدو: ولو... عيب

روز: هولي مصرياتك، عرق جبينك

الله يقدرني على مكافاتك

لأني قاعدة بلا شغل

عبدو: .دغري بتشنكي راسك بالطلوع مثل اس السبيتي

روز: طبعاً راسك بشو مشغول غير بلعب الورق؟

وشدّي ايديك يا روز... ايام صعبة

جوزك بدو يلعب... وبتدحوش هالمصاري

وبتحاسبني عالمصروف... ويا ريت بتربح

عبدو: شو بعملّك إذا ما إجت بنت الكُبا؟

لو تجي ستريت فلوش.. كنت عازمك عالبيتزا

روز: المشاوير مقتّلة بعضها

عبدو: ولو... أول مبارح ضهرنا

روز: حاجي تضحك عليي.. بتاخدني عالمنارة

منكزدر رايحين جايين

هلكتني بالترمس والكلاوي

وبتقللي «مبسوطة حبيبتي»؟

عبدو: البلد زغير

روز: نحنا الزغار، ومحبوسة بهالأوضة... مش عارفة هيدا بيت ولا مزبلة؟

لا منزور حدا ولا حدا بيزورنا

مقبورة بين أربع حيطان... وحضرتك ليل نهار

داير برا

كأني شي ناطور أو خيال صحرا

ولا كأنك عايش مع حدا

ولا بتمد إيدك على شغلة

حدا بيشلح صباطو عالتلفزيون؟

قهوتك مدلوقة، كلسائك على المجلى

وحالي.. مع مين بدي أحكي.. وانت داير

شو بستأجر حدا؟

عبدو: طيّب ضهري.. منعتك شي؟

روز: لوين بدي روح؟ إذا مشيت أو قعدت لحالي بيصيرو.. هيدا بيحلق وهيدا يغمّز.

قليلة.. بس المرا تقعد لحالها بقهوة، بيصيرو الرجال بيفتكروها شي...

عبدو: الرجال كلاب

روز: بفتح هالستارة لأتشمس لشوف وج ربي

بيوقفلي هالشب الاشبهي يعملّي حركات

ما حدا بيستحي

ماحدا بيزوق

على شو عم تتنقوز

ما عندك اخت

سبلّي أمي.. ليه... ليه؟

(تصرخ) عبد الله

عبدو: نعم

روز: عالحيط

عبدو: انا؟

روز: هوّي

عبدو: وينو؟

(يحمل مكنسة طويلة.. يلحقه وينتبه إلى أن الصرصور وقع على ظهرها، فيحدق إليها وتحدق إليه متسائلة)

روز (مرتعبة): شو؟

عبدو: ولا شي، ما تحرْكي، ما تبرمي

روز: وينو؟

عبدو: لأ.. شبري بسيطة.. الصرصور على ضهرك

(تقع مباشرة مغمياً عليها)

عبدو: روز.. ما تموتي هلّق

(يرن التليفون)

السكرتيرة: عبد الله... .. قدمنا الموعد من تسعة إلا ربع للساعة تنتين وخمسة وتعا بلا غدا

باي

عبد الله... شمّر بنطلونك

عبدو: وقفولي هالتلفونات

المرا عم تموت

روز... يا روز **(يندبها ويلطمها)**

قومي نعيّد، قومي ناكل كاتو



الفصل الثاني

(يأتي عبدو من الصالة حاملاً مكنسة ويسأل الناس وينادي)

عبدو: حدا شاف شي زغير إلو شوارب؟

«يرتدي قميصاً احمر وشورتاً أسود

عن إذنك... يا أخ

ارفاع اجريك.. استاذ

مدام لو سمحت.. ما تفزعي

روز (تناديه): شو نزلك لتحت عالشارع؟

عبدو: افتكرتك متّ... نزلت انتقم آخد لك بتارك

روز: جرّصتني، هتكتني، اطلاع

عبدو: انا هتيكة؟! مش حرام انا؟ شو عاملّك؟ ما بستاهل اللي عم يصير فيي ولا كأني رجّال **(يبكي... مبالغاً)**

(تجرّه روز بحنان، تحتضنه، تضعه على السرير، تهدهده)

روز: روق... ريلاكس...

خلاص... انت حبيبي.. عيوني

عبدو (بهدوء وجدية): روز... أنا بحبك

روز: عن جد؟ صر لك زمان ما قلتها

عبدو: بحبك أكتر لما بقبض المعاش كامل

روز: ليه ما بتنسى المصاري وانت عم تحبني؟!

عبدو: لما بكون مهبّر، منتوف، بحسّ كل الرجال احسن مني بشك بكل شي... بشك فيكِ.. بغار

(تنام إلى جانبه)

روز: بنبسط لما تغار عليي

عبدو: بحبك... أوقات وانت نايمة، وبيكونو مطفيين هالموتيرات والدنيا همدانة

ابتسم.. أنت لبناني

بتفرج عليك كيف مكوكية
بيدمعو عيوني
روز: دخيل عيونك شو حلوين!
عبدو: انو ضروري عتّرك معي لا بيت ولا ولد!
ضروري كان تتعرفي على هالمنصَب حضرتي!
روز: ما تقلبها غم
عبدو: لا.. قصدي مش كان أحسنلك تروحي مع اهلك عااوستراليا وتتجوزي ابن عمك جان؟
روز: ما عندك سيرة غير ابن عمي؟
عبدو: عافكرة شو اخبارو؟
روز: ليه عم تسأل؟
عبدو: قصدي طوّلت سياحتو للبلد...
ما بدو يرجع عاسيدني؟
روز: بعد جمعة راجع
عبدو: شو عرّفك؟
روز: شفتو اليوم
عبدو: والله شفتيه؟!
روز: معك خبر.. إنو بدي ابعت معو مكتوب للماما والبابا
عبدو: وين التقيتو؟
روز: ليه هالسؤال؟
عبدو: عم نقروش
روز: شفتو بالـ قهوة.. بالويمبي
عبدو: بالويمبي.. ايا ساعة؟
روز: شو تحقيق؟
عبدو: ام (غمغمة)
روز: ام
عبدو: شو؟
روز: شو؟
عبدو: لما إحكي معكِ.. اطلّعي فيّ
روز: الله يرضى عليك... قلبي من الحامض لاوي
عبدو: لاوي؟
روز: حاجي تحُر
عبدو: حُر
روز: المشكل معك واقف عاصوص ونقطة
عبدو: صايرة بتمثلي.

روز: الله يوفقك خلينا ننام وبلا سمة بدن
عبدو: قولي سمّة البدن هي.. هي معك...
بالشوب ولاّ بالبرد
طفرانين واللاّ قابضين
بأوضة ولاّ بفيللا
المشكل بدّو يولّع...
لانو المرا مرا
يرحمك يا جدي
مسمار بالحيط ولا مرا بالبيت
روز: زهقتني حياتي
ومنكدلي عيشتي، وما مخلصا معك
حاجي تبربس... وتبلش كر...
وبر... بر
...
على شو بتجقرني كأني عدوتك؟
وكمان بتشك فيّ؟
لوين...؟ (يخرج إلى الداخل)
ما عارفي حالي شو.. عندك؟
صانعة ولاّ جلاية؟
سكرتيرة ولا ممرضة؟
غسالة ولا طباخة؟
عبدو (من الداخل): هلّق السلطة طبخ؟!.. وين الرز؟
الله يرحمك يا امي
روز: حاجي تترحم ساعة على جدك ساعة على امك
يا عمي أنا مرتك مش إمك
عبدو (خارجاً): ما تدقي بالماما.. أمي
روز: ما إلي كرامة عندك
صرلي جمعة عاجقة حالي
وملبكي بها الليلة
قال عيد زواجنا
مشغولي فيك وانت مثل صباطك لا عيد ميلاد ولا عيد زواج
عبدو: قايلك ألف مرة، بكره الأعياد وساعتها بغب على قلبي إنّو على شو هالفرح
روز: مبين بعيد الفطر بتطلع عالضيعة، وبتنعجق بالمعمول والسنيورة
عبدو: اتركي السنيورة عاجنب

بطلع عالضيعة لاقرا الفاتحة على روح أمي وبيي
روز: وبتسحبني معك
عبدو: يا ما طالع عالجوي نويل اختك عابرمانا!
روز: اختي أرمة لحالها مع ولادها
عبدو: آخر مرة عملتوني بابا نويل، ونزلتوني بالداخون وكسرت إجري وعالفصح نفس المعمولات وكمان يللا يا عبد الله... فقش بهالبيض فقش
روز: ما أنتو بتفقشو حيدر
عبدو: ما تجيبي سيرة حيدر
قصّرت بشي عيد؟ ابن اختك لما عمّدو، ما قبلتِ إلا بْلَكّ وصليب مدهّب الله يحرسو
روز: ابن خيك جبنالو سنسال وماشاالله لما طهروه
عبدو: منشان حمامتو
هلق لشو هالسيرة...؟ يلعن أخت العيل وساعتها
روز: بتعرف انك صاير واحد طائفي؟
عبدو: طايفي براسك انا قلت العيل مش الطايفة
روز: قول ما هوّي بلد بيعدي
عبدو: أنا محصن... انت مصدقة انو هيدا بلد طائفي؟
روز: لكان شو؟
عبدو: يا غشيمة.. ثلاث أرباع الاسلام بالبلد أصلن نصارى وثلاث أرباع النصارى اصلن مسلمان
روز: جوزي عم يتفلسف
عبدو: روحو شوفو الكتب... شوفو السنسفيل
(ويبدأ بتركيب شجرة غرانيه على المسرح اثناء المونولوغ)
عبدو: جبل عامل... بني عاملة اصلن نصارى وإجو من اليمن، بعدين اجا عمو أبوذر ومتولن... شوفو الكتب
جبيل... كسروان.. نصن مسلمان كانوا
بيت الهاشم مش بس متاولة وسيّاد...
هويدا الهاشم بيطلعلها خمس وزكا!

جـزين تسلمـلي عينهـا كـانت مسلمان وصارت كريتيان

بيت شهاب نصن بيارته ونصن موارنة

بيت جابر بالنبطية وبعاليه وفيه روم.

بيت جرب... الشيخ بطرس عم يجمّع العيلة من كفرحتى لبكفيا

بيت العبد الله بالخيام اصلن تنوخيين يعني شـو...؟ كـانـوا من بني معـروف وغيروا... اسألي خينا عماد

الميتر حسين اللي بالويمبي مطرح مـا تبلعزني قهوة انت وابن عمك، اسمو حسين ماروني، حسين عيلتو ماروني!

عِيَل فايتة ببعضها

شوفو الكتب... شوفو السنسفيل

نصنا نور ونصنا حوارنة

قبايل فايتة وطالعة، رايحة وجاية

شي من بني مرة، شي من بني جحش

وشي من بني كلب

ثلاث ارباعنا جايي من الصحرا.. جايين من اليمن

باليمن نازلين دك ببعضن... السوسة من اليمن.

رجعو للتاريخ.. قبل الميلاد وبعدو

شوفو شو صار بالقرن الخامس والسابع والخمستعش والتسعتعش.. شوفو بأي قرن

شوفو القروني

القرمية

شوفو الشجرة، شجرة العيلة، كل واحد شجرتو بإيدو

واللي بأيدو..

طلّعو الحجج

بلد مقطّع موصل

بس بحبو.. متل ما هوّي

الغزاوي.. غزة

بين الحمصي شو... حمص

الحلبي.. حلب

الأيوبي... اكراد

بقرادوني... ارمن

آغـا... اسطمبـولي... عثملي...

عبيدو باشا تركي

شوفو العيل

الشامي، الجزائري، المصري، المغربي، الصليبي

شوفو القرعة

شوفو السجلات.. أبيض على أشقر، عيون زرق، شوكولامو شعب مخلوطة،

فستق، جوز، لوز كاجو، فايت ببعضو

عيل إجت وراح تجي

بكـرا راح نسمـع بعيلة الفيليبيني..

الروماني.. السيريلانكي..

كوهومو كاهيداي، نوكو كومادي (سيرلانكي)

بلد عيل.. وابن مرهج بشارة، مش عم يلحّق رخص عيل وجمعيات

آل سنو آل برو، آل حرو، آل ترو.

يللا كلو علم وخبر. وبشارة عم يختم

آل طائفية آل؟!

ضيعتنا، نفس الطايفة، نفس المذهب، نفس الجامع، نفس القبلة، نفس الأكلة

بس عيلتنا بيت حازم مـا بيعطو بيت كاظم، ولو بتقوم القيامة

من مية سنة ما بيجوزو بعضن

جوزو وتجوزو من كل الطوايف.. إلا من بعضن

مرة علقو ببعض بالعصي وشلوفة الحديد

نزلت حاميهن

عيلتي تتطلع فيي بالقلب... «ليه ماعم اهجم»

وعيلة كاظم يحأوروني، «إنو شو عم ساوي»

ولما راح قتيل من بيت كاظم

قالو بيت كاظم «بدنا ناخد بتارو من أفهم واحد بعيلتن ومين أفهم واحد؟ أنا طبعاً... قمت هجيت

كلّو بيغير يا عيونو وكل من عادينو الله يعينو

فلان بيتشيع ليورّت

علتان بيعمل روم ليطلق

ولك روجيه عساف اسلم وصار اسمو روحية

محمد بيضون بأميركا صار اسمو مايك

جونيور خالتي اخت أمي يعني ندرت ابنها لمار الياس

ودايما تقلي:

يـا عبد الله... البلد اللي مـا فيهـا نصارى... يا خسارة

شو خص الطوايف؟

عِيَل... إلا أنا... ممنوع أعمل عيلة

افرحلي بشي بيت... بشي ولد

روز: شو؟

عبدو: إنّو القصة بيناتنا ما خص المسلمان والكريتيان

القصة، قصة رجّال ومرا مقبورين بأوضة

روز: ما دام هالقد ذكي ليه ما عم تفهم عليي؟

عبدو: ليكي الرجّال قديش راسو كبير بيوطي قدام أزغر مرا ولو كانت عشرة سانتي

روز: لأنو ما بيفهم عليها

عبدو: لأنو هيي ما بتفهم شو بدها بتعرفي ليه الغول أكل كل العالم إلا مرتو؟

روز: لأنو بحبها

عبدو: لا.. لأنو ما بتنبلع

روز: منّك مهضوم

عبدو: الكنغارو الأوسترالي أهضم

روز: رجعنا.. وليه حبيبي افهام لآخر مرة

انو مش مهم مين بيحبني

المهم انو أنا مين بحب

عبدو: ومين حبيبو لروز؟

روز: انت يـا واطي... ما كل عمري وشبابي رايح معك ضيعان.. لأنو المصيبة إنو بحبك

عبدو: بعتز فيك

حقك عليي

روز: راضيني أكتر

عبدو: كيف؟

روز: كون رقيق، شفاف، ما كنت هيك

عبدو: راسك لبوسو، ايدك، اجرك، غبرة سكربينتك قومي شيري، ريّحي حالك.. ونامي

روز: وبلكي إجا

عبدو: مين؟

روز: الـ . .

عبدو: رجعنا

روز: بخاف طيّبْ

عبدو: أوكي، هياني سهران

وبحرسك منحسب حالنا بعدنا بالعسكر

روز: رامبو عصرك

عبدو: عم تتمسخري وليه! انا عامل مية

دورة عسكرية ماكل حيايا

(عبدو يتكلم كأنه مدرب عسكري):

فوق التل

تحت التل

بص يمينك

بص شمالك

تلاقي جنود الثورة أمامك

روز: سامعة طحشتو بالمكتبة

عبدو: بخاطرك

روز: بدها هالقد؟

عبدو: يمكن إستشهد جوا. . . زلغطيلي

روز: الله ينصرك تروح وترجع بالسلامة

(عبدو يبدأ بتقليب الكتب عن رفوف المكتبة)

كتب. . . كتب. .

الشاوول حدّ الدكروب. . . دكربي

أُنسي حد شوقي، خوري حدّ نوري

خبيّ نزار. . . طفولة بز

بزيع

بزي

بزون

على شو هالبزاز؟

لشو هالكتب

كتب بتخلف كتب

كتب بتزقف لكتب

شو هيدا؟! كتاب بيشبه صاحبو لا طعمة ولا ريحة

هيدا خالصة مدتو

كتب خرّبت بيوتنا

كتاب أصفر

كتاب أحمر

ويسلملي الكتاب الأخضر

أنا منّي ضد القراية بس في كتب ضيعتلي عمري، مين؟ عمو لينين! دخيل صلعتو

يا ضيعانو وضيعان تعبو ما عرف ربّا

ضيّع حالو وضيّعنا

آه يا رفيق فاروق:

«وإن هلهلت يا حرية

هلهلنالك يا حرية

وانقاتلتِ يا حرية

قاتلنالك. . . يا حرية»

أنـا كـنـت ابـن ١٧ وعـيـت عـا آخـر المظاهرات، وما تقولو إلا خريج مجارير النبعة

فاروق أكبر مني بسنة بس أوعى مني

يبقى بـالمظاهـرة مثل ام العـروس يهـوبـر ويشوبر

«أنا ثائر. . ثائر

بقلب بيروت. . أنا ثائر

بالأشرفية أنا ثائر»

وفـاروق كـان يحب وحـدي من البسطة الفوقا

وبس توصل المظاهرة عالبسطة

وتشوفو غرامو عن البرندة. . بولّع فاروق بالعالي وينطنط «بالبسطة الفوقا أنا ثائر»

هلق فاروق صار بالـ Public Relation

ونجر هالمظاهرة عـاساحـة الشهدا، بشر وخليقة يحكو مع هالعالم المصفوفة عالجنبين، ويصيرو يحرضوهن

«يـا هـلي مـارق من هـون. . فتّش يمكن ابنك هون»

ولما نوصل لحدّ شارع المتنبي، حدّ السوق يعني حدّ بيتها للست ماريكا

والصبايا. . .

يوقف خيّنا حمزة عبود ويقول:

«يـا هلّي مـارق من هـون. . . فتش يمكن إمك هون»

راحت أيام ماريكا

وإجت أيام ناتاشا وتانيا

صبايا مثل الدهب من البولشوي عالكيت كات

يلعن اختك يا غورباتشوف شو واطي

ولَكْ يا رفيق عصام

شو باك؟ حاجي تنخع

كنا بالطحين صرنا بالكوكايين؟!

قللي كلّو «أبـيض يـا رفيـق. . . بلد مـا بيستاهل»

عصام قد ما كان صوتو حلو بالمظاهرات

هلق صار مطرب عم يغني بالمونتي كارلو

يا أم العين الكحلة والشعر نوار

بيتك ما بدو مراية وجك ميروار

يكسّر دياتك يا غورباتشوف

ضروري هالجرصة؟!

اللّهم بـلا شماتـه. . مـا حـدا احسن من حدا

ليش الأحزاب التانية أحلى؟ بلا فضايح

إنتو حزبكن فرّخ عشرة

الحزب الفلاني اعطاكن عمرو

وإكرام الميت دفنو

شي فرط. . شي انقرض

كل الأحزاب اللي كانت واللي اجت

واللي راح تجي

راح تنقرض. . وتنقرط

عبدو: آخر مرة تركت الحزوبة

روز: صرت قايلها ميت مرة

عبدو: حُر بدي قولها للعالم

لمن كانوا الشهدا بعدن طازة

سخنين طالعين من الفرن

ناخد الشهيد لعند أهلو مبسوطين فيه

إنو هيدا شهيد

نلفلفو، ونغطيه بالعلم



يصيروا هالنسوان يفجّعوا
ننزل فيهن خبيط
هيدا شهيد... ليه عم تبكو.. هيدا شهيد
صرخت فينا اختو:
«ليه عم تضربونا.. شو نحنا اللي قتلناه؟ طلعوا برا»
قشطونا الشهيد، وقاموا العلم
إذا كان الشهيد مسلمان يقرولو قرآن
وإذا كان كريتيان يقدسولو
يقشطونا الشهيد ويرجع لطايفتو
روز: شفت؟ طايفتو، بيرجع لطايفتو
عبدو: اسمعيني واسمحيلي
لما يفل الشيخ ويفك القداس وتفل طايفتو
يرجع الشهيد لعيلتو
لأهلو
لأمو، لبيو، لخيو، لأختو
هني اللي بيبكوا عليه الحالن
وبيغطوه بدموعن
تلات ارباع اللي استشهدو ما صرخوا قبل ما يموتو
يا حزبي
كانوا يشهقو... يا بيي، يا امي
بعدها بشويّ تركت الحزوبة.
كانت أمي كلما سمعت زمور اسعاف جايي من بعيد تفكر انو انا اللي جايبيني عالبيت
تركض وتوقف، ولما تمرق الجنازة ترتاح بأرضها
(روز تعانق عبدو وتهدئه)
من يومتها تركت، بس لا ارتحت ولا ريحوني
...
حاسس اليوم مثل مبارح، حابب صرّخ بالعالي
(يكمل عبدو هامساً):
وإن هلهلت.. يا حرية
هلهلنالك
وانقاتلتِ.. يا حرية
قاتلنا لك
(تسمع ضخة وطحبشة في الخارج، يرتعبان يتساءلان ثم يدق الباب بقوة):
روز: الساعة تنتين!
عبدو: يمكن سمعوني
أولك راح يعدموني؟ اخدت إيدهن عالمشانق
(يفتح الباب، يدخل ملحم):
ملحم: مساء الخير
عبدو: صباح النور
ملحم: نطرتك ما رجعت، تسرسبت عليك
عبدو: دفعيلو يا مدام
(يشرب ملحم من ركوة القهوة، ويلحس من الكاتو)
عبدو: صحتين
(روز تعطي ملحم أجار البيت فيبدأ بعدّ النقود)
عبدو: قليلة أجار الأوضة ٤٠٠ دولار!
ملحم: هيدي الأوضة بتعرف مين نزل فيها
عبدو (مقاطعاً): عمر الشريف وشارل أزنافور وميرفت أمين
ملحم: ودالدا الله يرحمها
(نزلو تفرّجو على شارع الحمرا كيف ضوّا وهالأوتيلات مشعشعة
عبدو: بلد راح ينتلي أوتيلات، ونحنا راح نصير غرسونية
كل واحد حامل صينيتو بإيدو
ميرسي... ممنونك... احجزلي صينية من هلّق
ملحم: شو ما بدك يركب البلد؟
عبدو: يركب بس مش على ضهري
ملحم: عالقليلة احسن من الدبيك
عبدو: تنذكر وما تنعاد، تفو عالحرب
ملحم: يسلم هالتم
عبدو: بس يا معلم ملحم. بالحرب كانت الناس لبعضها: يسوانا، ما يسواكم، انكتبلنا عمر جديد، الحمدالله على سلامتكن. عالقليلة إذا حدا تصاوب يلاقي مين يلّمو...
هلّق عم موت مية موتة ولا حدا عم يتطلّع فيي
ملحم: ضاع نص عمرنا بالحرب
عبدو: والنص التاني عم يكفّوا عليه
ملحم: كان مية قريع يوقفك ويسألك: منين؟ ولوين؟ خلصنا بقا من الزعرنات
عبدو: تفو عالحرب، بس بعدني هلّق كل ما بدي اتوظف بشي جريدة أو تلفزيون بيسألوني: بلا زغرة من وين؟ ابن مين؟ من أي منطقة؟
ملحم: الهيئة حنيت للمحشايات تبع الـ ١٥٥ والـ ٢٤٠
عبدو: تفو عالحرب وساعتها، بس ليش بعدها ولعانة؟ بتمرق من حد هالواجهات بتبلش هالأسعار توز من فوق راسي
بمشي بالسوبر ماركت، بوطي راسي حتى ما حدا يسفقني بشي هاوتزر!
انو يعني ضبّو المدافع وبقي القصف
ملحم: فالك بين سنانك
عبدو: يا خيي بعدني برجف متل أيام القصف
إذا حرد شي رئيس، بصيرو ركابي يسكّو وبصيرو يقولو انو الدولار بدو يصير بعشرة الاف
بفزع، بتصير بطني تقلب
قبل كنا نموت عالسريع، هلّق عم ننقبر عالسلو موشين مُحص ژخفهخة
روز: وقفلي محاضراتك
عبدو: لما تعلق ننزل عالملاجىء، هلّق عملوها بارات ننزل، نقعد بالبيجاما أسبوع، لشو اللبس؟ ناكل كيف ما كان، حبة بيكون، علبة طون، لشو الأكل؟
ما في مدارس، ما في قسوطة
وبالملجأ كلنا متل بعض، غني، فقير، تاجر، زبون، يبقى همنا كلنا سوا متل بعض، ويسوانا ما يسواكم
ولما وقفت الحرب وطلعو، صار كل واحد همو لحالو، كل واحد يدبّر راسو
روز: عبد الله

إبتسم.. أنت لبناني

عبـدو: حُـر بـدي احكـي، كـنـت الخضرجي تحارجوا ويقلّك ما بتوفي، ويحلف بحياة ولادو

هلّق بيقلك اللي عجبو

الناس بطلت حتى تكذّب، تساير

مرة واحد خضرجي، حـارجتو عـلى كيلو خيـار سفقني بـالصحـارة وهجم عـلي بكيلو الحديد

عـألف لـيرة كنت راح صـير شهيـد. . وشهيد الخيار كمان

هيك حرب بشعة بتخلف سلم أبشع

ملحم: كـل الحـروب بشعـة، ليش في حروب سينيه)

عبدو: في شي اسمو. . ثورات

ملحم: الثـورة حـرقت سـلاّفنـا. . . وطلعلن أوضتين

عبدو: عم احكي عن شي تاني

ملحم: ما عشنا وشفنا شو صار بالبلد

عبدو: اللي صـار بالبلد حـرب مش ثورة يا تانت ملحم.

وهيـدي الحرب تفـو عليهـا، روحـة بـلا رجعة قصدي شي تاني

ملحم: بلد صرلـو ١٧ سنة ملعـون الـلي بزّروا

بدك ياه يمشي بيومين!

يلعن اختكن شو بتحكو وبتبرّو

عبدو: ما سكرولنا تمنا

ملحم: سكـرو لهـا النيـع، ضروري تفتحـو؟ لأنـو بس تحكـو بتصيرو تـرشقـو وبتعلقو

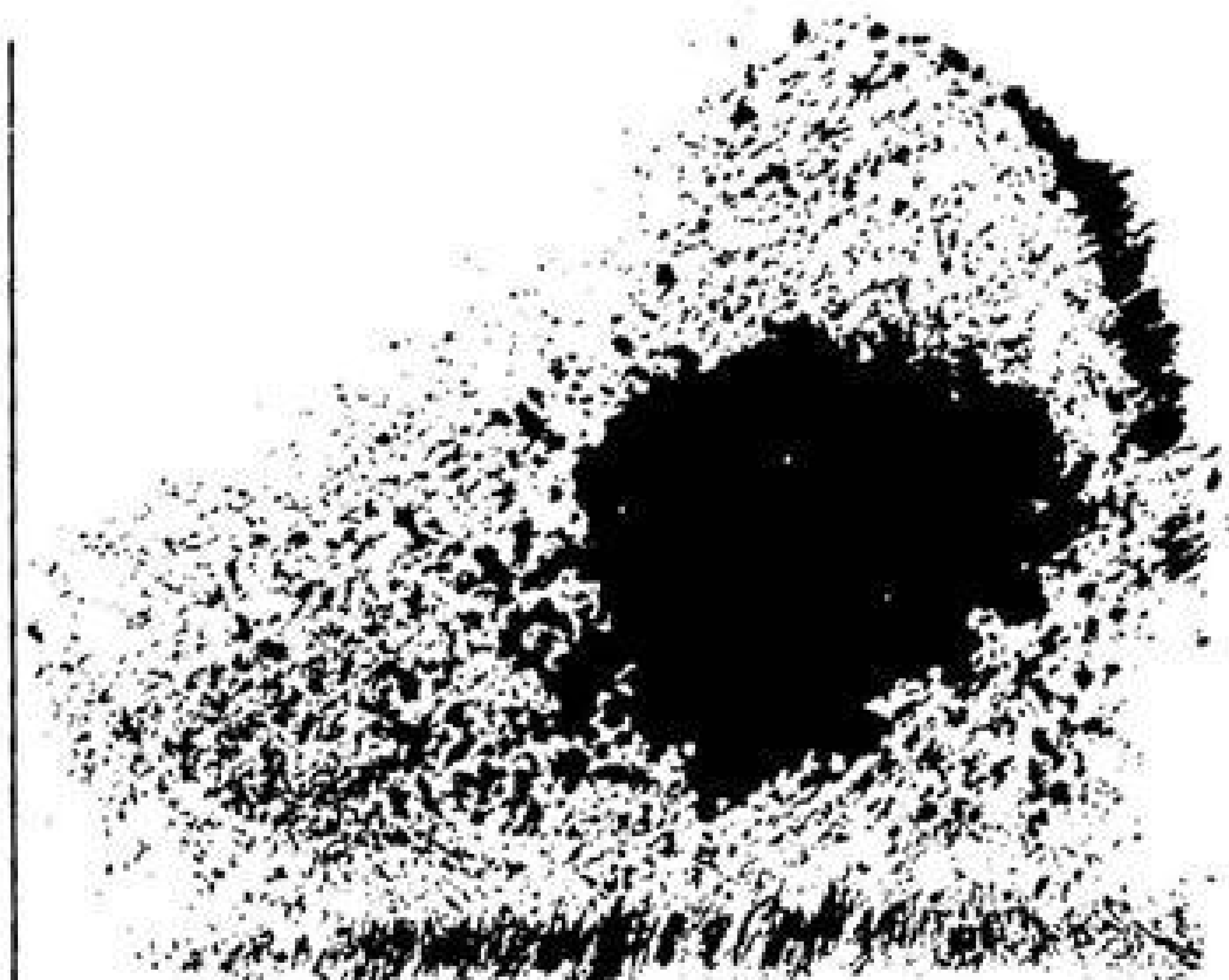
عبدو: بطّلنا نحكي، ما بـدنا حـريات، نحنا فاتحينو لنتبلعز بس قليلة. . . لا حـرية ولا منجا

ملحم: ماحدا بيمـوت من الجوع، طمن بالك

عبـدو: عم نمـوت من شي تـاني، اسمـو القهر

ليه عم يقاهرو فيي؟

بيقولولك راح نجيب الكهرباء ٢٤ ساعة يا عمي خلّوها ١٢





لأ خمس وعشرين

بيقوموا بيقطعوها بالمرّا

راح نعمرلكن

راح نجبلكن لبن العصفور

المشلول راح يمشي، الأعمى راح يقشع

بيربحونا جميلة من كيسنا

يعني الـدولة كـأنها عم تستحـلي، عم تتوحم

انشا الله تقوم بالسلامة

شو أنا ضد الدولة؟

عبدو: قديش الساعة معك؟

ملحم: تنتين ونص

عبدو: لحدّ هلق، لحد هالساعة بعدني بحبو لها البلد، لأنو ما عندي غيرو

ملحم: شفت مـا أحـلاك، هيـاهن عم يوسعو الاوتوستـرادات

راح يـوسعو المطار. . . ليجيبو المغـتربين اللي برا

عبدو: عم يوسعوه للمطار. . تيفلوا الـلي باقيين جوا

(يرن التلفون)

عبدو: عن اذنك التلفون عم يرن

ملحم: ايا تلفون؟

روز: عبد الله، بلاها

عبدو: الو. . ايوه. . ست هنية

أخرّتو الموعد؟ لأيمتى؟

رجعتو للتسعة عشية؟

ليه عم تلعبو فيي؟ ركّزوا الساعة

ملحم: ست روز، إشبو شي؟

عبدو: حاجي توعدوني، ساعة بتقـدمو، ساعة بتأخرو لأيمتى معفردينا؟

يا تركونا عالأرض مبنشرين

يا رَكّبو هالدولاب وخلّونا نمشي سيسرونا

هيك معفردينا بالعالي!

رافعين إجرينا بالهوا، نفتل محلنا

الـو. . شب متلي. . متـل القمر. . . مـا تكذّبو عليي

خلص تسعة وبلا عشا

اخت اللي بيكذّب

الو. . أيوه

معلم ملحم التلفون إلك

دولتو بدو يشاركك بالأوتيل

ملحم: أعوذُ بالله

بخاطركن

عبدو: على مهلك. . ما بدك القناني؟

(يحمّله القناني في جيوبه)

لحظة شوي، بعد في قناني بالحمام

(يخرج عبدو)

ملحم: يا حرام الشوم

روز: ما تواخذنا عمو

ملحم: الله يصبّرك يا بنتي، قلتلك، لـو سمعت كلمة بيّك وتجوزت ابن

روز: بسيطة عمو

ملحم: انتبهي على حالـك يمكن يعملك شي

(يدخل عبدو ضاحكاً)

عبدو: فلّ؟!

روز: وليـه شـو قصتـو هـالتلفـون؟ عم تسلبها عليي

قلّي شو باك؟ شو قصتك؟!

عبـدو: بدي حـدا يرعـاني، بـدي دولـة تحبني

بدي حنان

آآآخ

(ينام في حضنها ويتغزل بها)

شو هالعيشة، شو هالجسم

قسّم وتمختر، قسّم يا زغير

حُبي شو مزنطر. .

(تنهض روز)

عبدو: لوين؟

روز: نعسانة، راح يطلع الصبح، هلكت

عبدو: تعي كوكي بحضني

روز: تعباني لازم فيق بكير

عبدو: خير انشاالله؟

روز: رايحة اعمل فحوصات وبدي أمرق شوي على...

عبدو: لوين؟

روز: ولا على مطرح

عبدو: وين صار ولا مطرح؟

...

روز لوين بتروحي بس فلّ؟!

روز: دخلك

عبدو: جاوبي

روز: بدي مرّق هالكيلو البقلاوة لامي

عبدو: قولي من الأول.. آه.. يعني بدك تشوفيه وما بدك تقيليلي

روز: بعرفك بتتضايق

عبدو: شو القصة يوم مكاتيب ويوم بقلاوة؟

روز: ليه ما بتشرف معي حضرتك؟

عبدو: ما بطيقو

روز: يعني شو؟

عبدو: ولا شي

روز: طيب حِلّ عني

عبدو: راح حلّ

(صمت وحذر وريبة)

دخلك مسيو جان ليه ما تجوز لهلّق؟

روز: روح اسألو

عبدو: بعدو عزّابي؟

روز: شو خصني!

عبدو: آه.. آه

روز: ما إلي جلادتك

ما تنفض عالأرض

(يخرج عبدو)

روز: لوين؟

عبدو: ضاهر

روز: بها الساعة؟!

عبدو: طافش يا أختي حتى ما يكبر المشكل

حتى ما أغلط بشي كلمة

بخاف من الجرصة

روز: انت بتولعو للمشكل

عبدو: طفيه حضرتك.. بتصيري تعنّي وتزنّي

روز: تاركني لحالي؟!

عبدو: بشرفي إذا بقيت راح أعمل شي جريمة

روز: بدك تقتلني؟

عبدو: لا بدي اقتل حالي.. وريّحك مني

وين السكينة؟ **(يحملها كساموراي)**

روز: حاملها بالقِلب

عبدو: مظبوط

بس بتوجع

راح زت حالي عن البرندة

روز: البرندة من هون

(تقطع عليه الطريق وتحضنه)

حقك علي، بعتذر

عم إمزح معك، بس معقولي تتركني وتضهر؟ ما بتشبع دوارة؟

عبدو: بتضلك لاحقتيني بكلمة برا...

نيالك قاعدة جوا.. شوفي برا؟ بفيق الواحد بني آدم دغشة

ملاك عالريق

بس يحط إجرو برّات العتبة

بيصير خنزير، كلب

كلاب هايشة، ونازلين نتوشة

وبيكلبو من بعض شي جعاري، شي سلاقي

بس محسوبك كلب صيد بشمشم، بطير الرزقة، وغيري بيقوصها

وبياخذها

عافاك يا ستيلا **(يلهث ويغمغم كالكلب في حضنها)**

جوزك كلب يا روز

(مونولجات خاصة بكل منها)

(روز منفردة)

روز: وانا جوا، ليش احسن، لحالي
وعالقعدة بصير احكي
انا اللي تركت كل العالم كرمالك
ما عارفة انو انكتبلي هيك
لو كمّلت الدكتوراه
لو رحت مع أهلي.. لو..
يا بنت كبري عقلك
بصير عزّل هالبراد... كنس مرة ثانية
بتذكّرك بقول لازم ساعدك
شو بدي اشتغل؟
كرهت التعليم، كرهت المدارس
شي بيعصّب.. بقوم بترجملك شوية مقالات، ذهني بيشت
صوتي صاير يعلا، مش أنا
صايرة اشبهك
الرجّال والمرا عالعشرة... بيصيرو يشبهو بعض
رح هسّتر، حابّ نقعد.. نحكي.. نحكي

(عبدو منفرداً)

عبدو: حكي... حكي... كُر.. بُر
طول النهار جقجقة وطق حنك
نيعي مفتوح من مجلة لمجلة
بونجور، بونسوار، تسلملي عينك، هالو السلام عليكم، ما يكون فيها تقله، بلا مواخذة
من فضلك، هيدا حوار
لو سمحت هيدا مقال، هيدا تحقيق
كأنه اخطبوط ذو أيدي كثيرة..)

ريبورتاج... الصبّوحة طلّقت. مادونا كرّبت
هيدا عن واحد دبح اختو
وهيدا عن واحد اغتصب بنتو
وهيدا قصّتلو اياه مرتو..
شكراً، ميرسي، ممنونك، أهلين.
حكي.. حكي. بكتب بالايدتين
وبحس لساني صار قدامي
بحس انو عم شوف أشياء ما حدا شايفها
بسمع أصوات ما حدا سامعها
يمكن صرت نبي أو أخوت.

(روز منفردة)

روز: عالقعدة، الواحد بحالو بيتذكر اللي راحو **(تمسح شبه دمعة)**
إيديي شققو من الجلي
بيجي على بالي اتمكيج،
زبّط حالي، بطلّع بالمراية،
بطلّع على بطني.. ليه.. ليه؟ معقولي عطبوني؟! يمكن الرب عم ينتقم مني
بخاف
بصير إحكي، بعدين بغني، ببكي، كلّو لحالي
بفتح الراديو، بسكرو
بفتح التلفزيون، بسكرو
بقرا، بخاف يطلعلي شي من الكتب بسكّر الكتاب
بخاف حدا يدق الباب
بسكر تمي، بيختفي نفسي
بيطلع بوجي هالألبوم
بتذكرك، بضحك، شو كنا حلوين
شو نحب بعض
وهلق بحس انو صاير عم تبحبش بوراقي
تنبّش بجزداني، صرت خاف منك
مش انت اللي عرفتو

(مونولوغ كل من عبدو وروز يتداخلان)

عبدو: ضروري اللي منحبّن نقلّن، وبس نقلن ضروري نتجوزن؟
روز: اللي بيعشقو ما لازم يتجوزو
عبدو: المرا اللي منحبها مش لازم



روز: الرجّال
عبدو: لو تجوزت ابن عمها وأنا تجوزت وحدي مقرشة، كنا منلتقي بالمخفي، أحلى قصص الحب اللي بالسر.
يمكن الحب صار بيكلف، حقو مصاري يمكن الحب للغنايا.. أيمتى ما بدهن فيهن يحبو ويتجوزو ويعشقو ويطلقو، ويرجعو يحبو.
روز: بوقف عالبرندة، بتفرّج عابيوت الناس، عاولاد الجيران، هاي تانت
عبدو: بشوف هالزغار راجعين من المدارس وابني مش معن، معقولي من الضغط صارت بذرتي ضعيفة؟!
بدّي اسكر
روز: جاي على بالي اضهر.. وينك هلّق؟
عبدو: بدّي انسى.. بدي العب ورق
روز: بدي فش خلقي
عبدو: بدي اهرب
روز: تأخر
عبدو: تأخرت
أنا وجاي عالبيت بصير احكي: يا رب مرتي ما تكون معصبة يا رحمن ما تكون عم تجلي أو تكنّس يا رب ضحّكها.. لأضحك
عبدو: بونسوار **(مبتسماً)**
روز: اهلين **(عابسة)**
عبدو: كيفو؟
روز: عال
عبدو: رضاك
روز: رضى الله
عبدو: قولي الله فينا نتصافى معو
المهم انتِ
ليه مبوزة؟
روز: مش صحيح
عبدو: شو؟
روز: مش هيك بتصير الأشياء؟
عبدو: كيف؟
روز: طلاع ورجاع فوت
عبدو: بتوصل..
مرحباً **(عابساً)**

أهلاً.. **(فرحة)**

روز: بتفتح الجريدة، بتدوّر التلفزيون بتمّد إجريك

بتعقّد حواجبك، بتكش

كش أكتر

ما عارفة شو باك

بتصير تنفخ. في شي بالجريدة، وينك هلّق؟

مش على بعضك، مين شفت؟

ليه صافن؟ احكيني، اتركلي هالروموت كونترول

ظبّط الانتين.. شو هالتفزيون!

ما بجيب ولا محطة، ليك سعاد قاروط، حلوي قصتها

الحنفية ما عم تسكر، ما تنفّض عالأرض

لقيت بيت؟ ما قلتلي فستاني حلو؟

شو هالدولة! شو هالمذيعات! بحزرك حزورة؟ مرة واحد، فلان شو عبالو، هلكتني الموتيرات اليوم

بقلّك نكتة؟ احكيني، تعا نحكي عالعالم

شادي وشادية بدن يطلّقو.. صحيح هي بتشمشملو تيابو لأنو داير ورا نسوان مشرشحة متلو، وهي صحيح نقّاقة، بس هوي واحد سكرجي، قمرجي، نسونجي

ظبّط الانتين، ظبّط الالوان، وطي الصوت

(النص التالي كناية عن نص تلفزيوني مختلط عن نشرات الأخبار واعلانات منوّعة وبرامج وأفلام مصرية وهندية ومكسيكية. والخلفية دوّامة ضوء)

التلفزيون: «في نشرة الليلة... سلملي عالباتنجان... الايام السعيدة لعائلتك... وصل رئيس جمهورية... ذكريات كلنا سوا عن غخغ. بوظة واو. ماريا ماذا تفعلين. استقبل دولته.. . إزيك يا حسين.. الكمال بالمتعة غادر.. النائب. حبيبتي ماما... وتدوم

عبدو: شي بيزهق

روز: أنا؟

عبدو: لأ... التلفزيون

إنو على شو هالزلبطة

حبة بوظة بدها هالقد.. واو.. باي

وقّفو هالزنطرة.. شو خص البنزين بالفخاد؟

نار وبنزين.. باي

روز: يا بيي شو زعلان انت... ما عيونك بيضلو باظين لبرّا

عبدو: أنا زعلان على هالشبيبة المكبوتة

بيشوفو هالشوفات، وين بدن يروحوا!

بيتجوزو وبيتشحرو

طلعي عالسطح

وشوفي هالانتينات على مد عينك

وكلّو.. واو.. وهاي..؟

بلد مهيّج من العاصي للناقورة

يخافو الله شوي.. حرام

بس بيناتنا شي حلو

يا حلو.. يا قمر

قومي.. جايي على بالي بوظة

روز: طفيتلي قلبي، اتركني نام

عبدو: طبعاً عندك شغل

حاجي تسفّي بهالحبوب

(يرن التلفون)

السكرتيرة: مسيو عبد الله، دولتو بيعتذر عن الموعد

إنشغل

اصبور، انطور، ما تواخذنا

(يضحك طويلا)

روز: شو باك؟

عبدو: ما سمعت؟ أجلّو الموعد

روز: مين؟

عبدو: دولتو

روز: رجعنا للطهوجة؟

عبدو: عم يرن

روز: راسك اللي عم يرن

عبدو: أجلو، اللي بيكذّب الله بيخنقو، ما بيخافو الله

روز: روق

عبدو: انطور، اصبور

زهر اللوز وصيفت وتلّجت، انطور

معقولي صاير اهبل انا؟

روز: انت مش اهبل، انت مستهبل

(تجرّه كأنه مسطّل، زائغ العينين، ويضحك.. ثم تدفشه بسرعة.. حيث تكتشف أن هناك صرصوراً في سطل الزبالة)

روز: عم يخشخش بسطل الزبالة

(ما زال مروبصاً، يحمل السطل بين يديه كلغم)

عبدو: ابعدي احسن ما يفقع

(يقلبه، يحركه، يهرب وتهرب، ويستنفر لانفجار ما ثم يقترب.. وينتزع ما في السطل، إلى أن يجد بطاقة)

عبدو: ريحتها مسك

(يقرأ ما كتب عليها)

عبدو: أوتيل برمانا... ٦٣٠٧١٠.. السيد جان الريس

قبل الظهر **(موسيقى قوية ـ صمت)**

(تعانقه ضاحكة)

روز: روّق، راح فهمك

(ينتزع يديها بهدوء... ويجلس)

عبدو: قلتيلي يا روز، إنك شفتيه بالويمبي.. شو وصلك عابرمانا؟

روز: شفتو بالويمبي، وطلع عبالي زور اختي ببرمانا، وصلني بطريقو، وقلي انو مشتاق يزور اختي

عبدو: بيضلو مشتاق للعيلة!

روز: مش ابن عمنا؟

عبدو: وانا ابن شو؟ ناقصني اوتيلات؟

روز: يا حبيبي نحنا وراجعين مرق عالأوتيل، حط المكتوب اللي باعتو لأهلي، احسن ما يضيعو

عبدو: وطلعتي معو على أوضتو

روز: نطرتو تحت باللوبي

عبدو: اللوبي الصهيوني؟!

روز: وبعدين عزمني على فنجان قهوة بالكافتيريا واعطاني كرت الأوتيل، حتى إذا بدي ابعت شي بعد لأهلي، خطر على بالي بقلاوة لامي

عبدو: مركبتيها منيح

روز: مش مصدقني؟

عبدو: لا . . لأنك ما قلتيلي انك، رحتِ عابرمانا معو

روز: خفت تفهم غلط

عبدو: هلق فهمت صح؟

على علمي يا مدام الكذب ما بطيّقيه!

روز: نيتك عاطلة

عبدو: أكيد ترغلتو بالحكي

خبّرك عن غربتو عن ثروتو

فقلتيلو انو آخر الشهر تاركين الأوضة

وعم تروحي لعند الحكيم، وانو يمكن

التوك من جوزي وبذرتو ضعيفة

وانو صعبة الحياة، وزهقانة ما حدا عم

يفهم عليكِ ومقطوعة من شجرة

وهوي يبربشلك بعيونو



ودمعتك سخية، تشهشقت بالبكي

وهوّي حنون طبعاً

مسكلك ايدك، عبطك، كوكيتِ بحضنو

للكنغارو تندبي حظك «أهي . . اهي»

روز: سكّر عالباقي

عبدو: وطلّعك يا حزينة على أوضتو . . قدّيه رقم أوضتو يا مسعدة؟

روز: اخراس، حاجي تهلوس

عبدو: وفوق تسربلتي قدامو وبرنقو عيونك

روز: سدّ نيعك، واحد مريض

عبدو: وصار يلعبلك بشعراتك، وسخسختِ بين ايديه، وبلّشتو . .

روز: واحد واطي، مجنون، كلّو فنجان قهوة راح تطلعني بنت شوارع؟!

عبدو: بنت شوارع ونص

(تنهض بسرعة تركض إلى علبة الدواء)

روز: يا كلب

اتركني، فلّتني، ايدك عني اتركني موت، إرتاح

(يأخذ منها علبة الدواء)

عبدو: انا اللي راح موّتك، انا اللي بقرر أيا ساعة افتحي تمك، بلعي

روز: مجنون، مريض

عبدو: بدك حبوب؟ خدي . . منين بدك تحبلي، ما جسمك مسمم كلو

روز: روح افحاص حالك

(يصفعها ـ موسيقى قوية . . صمت)

(صمت طويل، ينطلق بعدها آذان فجر، بعيد، صوت صياح ديك.

هو يضم يده التي تجمدت، يطأطىء رأسه . . تجلس هي مذعورة، متفاجئة، ترتخي . . ثم تنهض بهدوء وهي تضبّ **أغراضها، يرمي لها الأغراض . .** يبربسان. **حركات سريعة، شبه إيمائية** ونسمع أصوات . . الصباح، من صوت الزبالين والسيارات، والموتيرات. وصوت المذيعة صباح الخير . . . يا بيروت)

روز: أول مرة بحياتك، بتمد ايدك علي

(وأمامها حقيبة)

عبدو: بعتذر

روز: ما كان بدها هالقد لنترك بعض

عبدو: بترجاك

روز: ما كان ضروري هالكف

عبدو: انت بتعرفي انو بس تسكر معي

روز: صرت فشة خلقك، مش حبيبتك

عبدو: بعدك حبيبتي

روز: وأنا كمان **(تناوله المحبس)**

روز: تأكد انو ما صار شي، كرامتك محفوظة عمري ما ختنتك حتى بالمنام

عبدو: بعرف

روز: بيناتنا لا في مقدم ولا مأخر

عبدو: لوين؟

روز: راجعة لعند اختي الأرملة، وانت شو عامل؟

عبدو: وأنا طالع لعند اخواتي اليتامى، يللا انتو أرامل ونحن يتامى

روز: ما تنسى تبعتلي الورقة

عبدو: طيّب خلينا نحكي

روز: خلص الحكي، في ميّة سبب بيخلينا نترك بعض

عبدو: بس في سبب واحد بيخلينا نبقى . . انو بحبك

روز: وأنا بحبك . . بس الحب بدو مطرح . . يمكن مش هون ويمكن مش ضروري

بخاطرك . . بدك شي؟

عبدو: في شوفك بلا بيوت، بلا ولاد، بلا مصاري، بلا تلفونات؟

روز: ليش لأ . . ؟ انتبه على حالك **(ترمي له المفتاح)**

ما تنسى الورقة (يتصافحان، يتعانقان بحذر)

(يبقى وحده، يلعب بالمحبس، يكرجه على الطاولة يركض، يفتح الباب، يحاول اللحاق بها، يغيّر رأيه يعود، يدكرب بعض الأشياء . . ثم يركض بسرعة)

عبدو: معلم ملحم . . هيدا مفتاح الأوضة

ملحم: لقيتو بيت؟

عبدو: لأ . . . بيتين

ملحم: راح نفقدلكن

انتبه . . . راح تروّح الأوتيل بطريقك

(ينتبه إلى مجسّم الأوتيل، يدور حوله، يشعل سيجارة، ثم يشعل عود كبريت آخر نسمع صوت اشتعاله مضخماً، ويحاول أن يحرق الأوتيل . . . ثم يطفىء العود)

ملحم: بدك تحرق الأوتيل؟!

عبد الله: أعوذ بالله . . بس يا معلم ملحم . . في صرصور بكعب الأوتيل . . راح يوقع لحالو

(نسمع رنين التليفونات، بسرعة، متشابكة . . ثم نسمع صوت صباح في أغنية آلو بيروت)

(النهاية)

ليس هنا عرش

نبيل منصر
شاعر من المغرب

■ ليس
لي
فكرة نائمة أو ساهمة
ولا حتى هاجس عتيق في الاحتياط

ليس لي أرق الثلج الساهر في ضمير الجبال
الجبال
العظيمة،
حارسة الأرض. بيضة
التعب الكبرى...

ليس لي
صخب البحّارة الغائمين
حارثي الموج
فاتحي
الغبش

ولا
حتى
قرقعات الكؤوس في
قبور المساء...

ليس لي عربات وثّابة تصهل في الشوارع
الشوارع المهملة،
مثل قضية الريح والعطالة،
الصقيلة مثل مرآة
العاهرة الحسناء...

ليس
لي
ضباب غامض يحتلُّ باحة القلب
ولا حتى باب قديم
يقرعه الغرباء...
ليس لي خشخشات الحبِّ،
ولا حتى قبعة سحرية في كهوف النساء
النساء الفادحات
الشاهقات
الصُّعلوكات
الموحشات...

... ولَوْ لي حجر،
لأزعجتُ سكينة النهر،
النهر الذي لا يهرول
احتفاءً بالضفاف...

... لو لي حكاية،
كنت تدفأت بها،
مثلما أفعل بالأرصفة،
أو بالقطط...

... لو لي نافذة،
لأغلقتها
...

لَوْ لي
ليل
لفتحته على أحباب الله. □

فرق الإعدام

حروب بيروت الأهلية في المسرح والنقد

عبيدو باشا

الحق

أنني تجنبت دائماً، استعمال كلمة الحق في بداية جملة أو في بداية مقطع، في مقالة صحافية أو في دراسة. إذ إن حسي قبل أن تتملكني حال إدراك ملول، أخذني دائماً من يدي الفتية، إلى معنى كلمة الحق هذه، أنّ وقعت. فقائل كلمة الحق، إنما يبتغي استدراك سؤال، أو الهرب من سؤال، أو اختصار زمن طويل فيها.

الحق كانت تعني، أن القراءة حدثت، وصولاً إلى إحقاق الحق بكلمة الحق، وهي كلمة مستعملة كثيراً في أخبار الصحابة وسيرهم في دلالة على حال لا تقبل نقاشاً أو تأويلاً أو ما شابه. وكنت أجدني، مبتعداً عن هذه الكلمة، كما أجدني منتبهاً إلى «كأن» الحرف المشبه بالفعل، الذي كان يستعمل دائماً، في عمليات المواربة، التي تمارس في النقد الصحافي بخاصة. فكأن هذه، إنما كان هدفها، الاختباء خلف حال ملتبسة، تترك الصفة المطلقة ملتبسة بين الصح والخطأ. كأن يُقال كأن هذا الشيء هو كذا. إذاً، هو كذا وليس كذا في الوقت نفسه.

انتبهت إلى هذين الأمرين منذ البداية. ولا أخفي أنني فرحت بالاكتشاف لمّا وجدتني حراً ناصعاً، ولا أفهم بعد في منطق العلاقات العامة، ولم أقم في مناطقها. حتى صرت مشمئزاً من هذه الكلمة وتلك، ومتعالياً عليها، ومغادرهما إلى غير رجعة.

لا أدّعي أن هذه العملية، التي أدرت دفات سفني الواطئة في بحرها في اتجاه الشرق أو الذي كنت إخاله الشرق، لم تستغرق أوقاتاً صعبة. إذ إنني حين كتبت مقالتي الأولى، بالمعنى الاحترافي للكلمة، مضمناً إياها موقفاً نقدياً خلت أنه صادق كما خلت الصدق في بحر سفني الواطئة، جاءني الزميلان، وأخذاني من تحت إبطي، لطيفان وقالا لي من دون مواربة، إن عليَّ أن أهدأ. وإنني، إذا ما أردت الاستمرار، فعليَّ الانتباه، إلى الكتابة نفسها، وليس إلى النشاط. فالنشاط، كما فهمت، المسرحية بتعبير أدق، ليس سوى تفصيل، في المساحة الإبداعية القائمة على نسيج علاقات غير منظور وواضح المعالم.

لا تزال يداي الصغيرتان تحسان بشللهما، نتيجة الضغط، على الإبطين، وبالأيدي العريضة. ولا يزال وجهي يحس تلك الرائحة الطالعة من أنفيهما، كما لا تزال أذناي تسمعان كلامهما المقتضب، ولكن المفهوم جداً.

الهدوء ضرورة، وقالا تروَّ. ودارت جملهما الصغيرة كما تدور الأفلاك والكواكب في أفلام الخيال العلمي، حول هذا المضمون. إلا أنهما ما كانا يعلمان، وهما يحدثاني، أنهما كانا



يتوجاني ملكاً على مملكة النقد، حيث استفزني التهديد المبطن بالصداقة والاهتمام.

أعلنت نفسي ملكاً، كما أعلن لويس الرابع عشر نفسه دولة في المملكة، لمّا قال الملك إنه الدولة. أعلنت نفسي ملكاً على مملكة لم تكن قد تشكلت بعد، حين بدت وظيفة النقد مبهمة عندي، حتى تلك اللحظة الأسطورية. أي منذ البداية.

والحق، هنا أستعمل الكلمة بتمامها وكمالها، أنني لم أصل إلى الهدوء المطلوب، إلا بعد ما يقارب العشرين سنة من ممارسة المهنة هذه، التي تحيي وتميت. إلّا أنني أدركت أن ثمة ما حصل، أن ثمة ما ليس طبيعياً، فالنقد أن تصخب، أن تحرك البحر، أن تستدرج أمواجه إلى شواطئك الآمنة، وأن تلقي بظلال أنوارك على الجهة الأخرى، من بقعة اللعب.

سبحت عكس التيار دائماً، وسمعت جملاً من عبارات مختلفة، أعيرة صغيرة وأعيرة كبيرة، حتى قبل أن تستعمل الأعيرة الكبيرة في مساحة البلاد. كان جمعٌ يقول إن النقد يمارس على قاعدته الذهبية: خالف تُعرف. وكان جمعٌ آخر يتمم القول بأفدح الأقوال، لما يجد في النقد عملية استدراك لحياة الإبداع المقتولة في الناقد، هو المحاول إقامتها، على جسر حاله العدوانية الدائمة.

على شرف المسرح

والحال أنني كنت عدوانياً، حفرت بأظفاري دائماً، شاغبت وشاكست، أعليت صوتي الصغير، في مناسبة وفي غير مناسبة، على شرف المسرح، أنا المفتون به، وليس بشرفه المهدور عند عتبات مكاتب النقاد والنقد. ولم أحسب لشيء في طريقي، لذا تحديت وانشددت إلى الاختلاف، وإقامة الحوارات الصاخبة فوق منصة متخيلة، وتلقيت الضربات من دون عدها، ضربة ضربة في دائرة وجهي. كما لم أعد الردود المباشرة على مقالات كتبتها. حيث إن الردود هذه، جاءت من قلب المملكة المتخيلة، إذ لم يبخل عليَّ من عملت معهم، وكانوا في موقع المسؤولية، بالكلام على ضرورة التوازن، والخروج على شروط تجارب عملت فيها، في مسارح الكبار والصغار. أضناني ذلك، حين اشترط زميلي أن أقفز فوق تجربتي العملية في فرقة «السنابل» وفي فرقة «الحكواتي»، وكنت لم أعمل في غيرهما بعد، حتى تستقيم كتاباتي النقدية، من وجهة نظره، على متنها المُطهر من مغريات ومؤثرات وممارسات، لمّا انبرى له زميل آخر بالقول إن ما يميز نقدي هو انتماؤه.

راقبت وجه التجربة وقفاها. والوجه أبعد ما يكون عن القفا، كما أن القفا أبعد ما يكون عن الوجه، ولست أنحاز هنا إلى واحد منهما. فقد كان الوجه هو القفا في أحيان، والعكس صحيح. وكانا يختلفان تماماً في لحظات تواطؤ، تعلمت القبض عليها بالمراقبة كما تعلمت الصدق.

هنا أدركت معنى التواطؤ ومفاعيل الصدق. وهنا، أدركت أن التجربة لا تقوم إلا على متون عديدة، متن الإبداع والبحث والتجديد، ومتن العلاقات العامة. وهنا، كان الحضور ناصعاً ومزغولاً، إذ لم يستقم حضور مسرحية، إلّا بدعم يشبه دعم العرب. بما معناه رفع المتاريس وإطلاق النار أو ممارسة القنص على غير هدى لصالح العمل الفلاني، وعلى شرف المخرج العلاني أو الكاتب الفليتاني، أو من يقربهما مباشرة أو بالواسطة. أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، هكذا كانت الممارسة تقول. وهنا، في المقابل، جرت عمليات إعدام أعمال مسرحية، بمقالة أو بمقطع أو بجملة أو بكلمة في عنوان، هكذا ولله بالله، أو لمصالح متقاطعة، أو لمصالح لم تنضج هيئاتها بعد، على شروط الشراكة الثقافية أو السمسرة.

لست أقول هنا، إن حركة النقد التي مورست في المسرح وقعت دائماً في الارتهان لوجهات نظر سلفية، أو لقصد القتل أو ممارسة الإعدام، بطرق فرق الحشاشين. بل إن الارتهان، بقي جزءاً من عملية شاملة بقيت، بدورها، خاضعة لأمزجة واتجاهات وسياقات، في غياب التخصص في هذا المجال.

مساطر مرقمة جاهزة لقياس المسرحية!

هنا، تعلمت الهدوء أضيف، بعد أن تعلمت التحايل على الإحباط ومشتقاته. وهنا، تعلمت كيف أطير فوق مدن الهدوء، إلى مساحات اللهب الناصع. وهنا، راحت مخالب النمر تنمو في يديَّ الصغيرتين، وأنا أتأملهما تحافظان على حجميهما كما هما منذ نظرت إليهما نظرة تمعن وامتلاء. وهنا، تعلمت أن ضرب الأظفار في الهواء له مفعول الضرب على اللحم. وأن عمليات الهجوم، هي عمليات دفاع محضة. وأن عمليات الدفاع، هي عمليات هجوم منحولة من أسباب الهجوم نفسه. تعلمت، هنا. وتبلورت ممارسة النقد عندي، هنا. أعترف، أنني هنا، فقط هنا، فهمت أن للنقد مدى يخرج عن الهواية وعليها، كما يخرج عن القصد وعليه. تعلمت أن النقد مواجهة أولاً، ومواكبة ثانياً، ومحاولة دفاع مستميت عن المراحل، فيما بعد. فالمرحلة كانت تبرر المرحلة الأخرى، بما يعني حضور الذاكرة واستشراف المستقبل. وهنا، أخذني النقد إلى حيث لم أكن أحسب. وهنا، نافس النقد، بضراوة، الممثل فيَّ، ووقفة الممثل فوق منصته الخلابة، حيث الوقفة الخرافية في مواجهة الجمهور، المُسيطر عليه بالكلام والنظر

والضوء والحركة. فالنقد مياومة، في حين أن المسرح لم يكن يملك هذه الخاصة.

أكسبني النقد وخسرني. أعطاني وأخذ مني. وأخذني، أكرر. أخذني النقد إلى حيث لا أشتهي، كما كان الصابون يفعل بي، وأنا أمارس طقوس الاغتسال، تحت الماء المتفاوت الحرارة، كالنقد. كنت أمسد شعري بالصابون، قبل أن أفركه به، لّما كانت قطرات الماء، تضرب الصابون وتسيله في غفلة مني، فينساب، على وجهي إلى عيني، ويقع الحريق. هكذا هو النقد، حركة انسياب، توصل إلى حريق دائم، باللون الأبيض. إنه حريق النظافة، الذي لن يخف وهجه، إلّا في وقته المناسب، إلّا في مدته الوقتية، التي يحددها التفاعل الكيميائي.

أقول إنني بدأت كاتباً، وانتهيت ناقداً، بزهو النقد وخساراته وانتصاراته وفجائعه وحيله. تعلمت كيف ندوِّر رأس القلم، وكيف ننفخ فيه أرواحاً على شرف قيامة الأيام العظيمة أو نكرانها. وتعلمت كيف أستنجد بالقراءة البنيوية، وبمغادرتها. وتعلمت أن النقد لا يصيب إلا قلة قليلة نادرة. وإنه يعصى على عدد وفير من هذه القلة، التي يصيبها.

أذكر أنني وقفت في وسط دائرة خشبة مسرح الغولبنكيان في كلية بيروت الجامعية، لكي أروي تجربتي في حقل النقد، أمام طلاب ومهتمين. وكان الوقت وقت حرب الخليج. لم أكن مذعوراً بعد من الحرب، وإن أحسست برجفة الوقوف أمام التجربة. واجهت تجربتي بوقوفي هناك، لأنه، هناك، بدا النقد مرتبطاً بنظام المجموعة وطالعاً منه. زجرني أحد الفتية الصغار، متسائلاً حول راحة ضمير محتملة لديَّ، بعد ممارستي نقد الأعمال المسرحية، كل هذه السنوات الطوال. ذكرني الفتى، بمعظم المسرحيات التي شاهدتها، وتلك التي لعبت فيها، ودفعني إلى استعادة مقالاتي، قارئاً في أوراقها الصفراء ما تيسر. تهيبت، قبل أن أنتبه إلى أن سؤاله هو سؤال أستاذه وقد وجّه عبره. عندها غادرت خوفي وارتجافي الذي يشبه ارتجاف ضوء وسط ريح، لّما أدركت أن النقد يملك القدرة على الاستفزاز، استفزازي واستفزاز الآخرين. ولّما تذكرت الزميلين يمسكان بي من تحت إبطي الصغيرين، ويستفزاني لكي أقيم مملكتي على صوت النقد.

أزحت رأسي من موقعه، في إشارة، في إيماءة، بذلت أقصى جهدي لكي تبدو ظريفة. أردت أن أبدو كمن يحيد برأسه، عن سهم موجّه إلى الرأس، أو رصاصة، داعياً إلى الهدوء والتروي، معلناً أن لا شيء يستأهل. الحياة، لا تستأهل بهذا المعنى. فالنقد حياة، أو يتحول إلى حياة.



بعد سنوات، سنوات طويلة، أطالب بالهدوء الذي ما مارسته أبداً. هي حكاية شخصية إذاً، نصخب لكي نصل، وحين نصل نروح ندعو إلى الهدوء. لحظتها، أحسست أنني انسحبت من مفعول النقد، غادرته، بل إنني غدرته.

قلت إن صخب المهنة مدعاة قيام جنازة صاخبة، يخرج فيها من تحبهم ومن تكرههم، من يحبونك ومن يكرهونك، والميت أنت. حيث إن الحب والكراهية ميزة وأخرى في عالم النقد، الذي يتحول فيه الصديق إلى عدو، كما يتحول العدو إلى صديق. أقول ذلك، لأنني خسرت أصدقاء في لجة الوظيفة، وربحت أعداء. خسارة مزدوجة، بل إنها خسارة شاملة. قاومت، وانسحبت، ثم عدت إلى ساحة المعركة بعد أن أقمت توازناً لازماً.

في ذلك، كنت كمن يحاول أن ينقل الثقل من ضفته، إلى الضفة الأخرى. ولكن الحقيقة، التي لا تشبه كلمة الحق إياها، بقيت وازنة في صحن الميزان الآخر. إلا أنه في الحالين، كانت الضفة والأخرى، قد صنعتا من ذهب خالص، كما صنع لاقطها، من ذهب هو ذهب النوعية نفسها.

هو ذهب، لم أطل منه أو لم يصلني منه إلّا التبر، نثار الذهب، الذي يعلق من دون قصد، في الأصابع أو بينها، لّما يحاول أحد أن يمسك الذهب بناصيته أو خاصيته، قبل أن يُصب في شكل نهائي، أو صياغة تحول اللاشكل إلى شكل يلمع كما تلمع الروح. ثم إن نثار الذهب، راح يقع من كفّي يدي اللتين تشبهان دفتي ميزان الذهب، ويحيط أو يمسح جسد فتاة النقد الصغيرة، صاحبة الملمس البسيط الأنيق، الجذاب، الوثاب والقاتل. وكلما حدث ذلك تغط فوق رأسي أو أذني أو يدي، بحسب المناسبة أو اللحظة أو القصد أو الوجهة فأتحول إلى مرآة أرى العالم من خلال انعكاس صورته عليها، لّما يبقى الذهب ذهباً، على ضحكة فتاة الذهب، التي كانت لا تردني فقط إلى هزيمة سابقة، بل تضيف هزيمة إضافية إلى الهزائم السابقة، في مساحة الخسارة الكبرى. وقد انعكست الصور على وجهي، وفي عينيَّ، متلاطمة، متفائلة أو خائبة، متسامحة أو مفترية، متهادية أو صاخبة، متسقة أو خارجة على السياق، أو قائمة على ثنائيات متناقضة أخرى.

قوة النقد

هنا، في مساحة غرفة العمل، التي تحدها جدران صفراء اللون، وجهت وجهي إلى المسرح، أي إلى الحياة بقوة النقد. وهنا شاهدت، أو كأنني شاهدت الزائرين والقاصدين بالعشرات، يحاولون أن يبدأوا العمل في المسرح بالنقد، أن

نقد مذهبي طائفي مناطقي

يـواكبهم النقد خـارج مسرحهم، أو يحاولـون أن يحرفـوا النقد عن مناصبتهم العداء، أو أن يستدرجوه إلى محاباتهم.

لم يجيء واحد أحد، في مركب مصنوع من خشب مسرحه، إلى ماء بحر النقد، لكي يرمي مرساته فيه، على هدى الـروح وارتفـاعها فـوق الحالـة المناصبيـة. ولم يجيء واحدٌ أحـد، إلى صحرائه، حـاملاً أدوات خيمـه، ضاربـاً الأوتاد، عـلى صوت وتيرته، مقيماً احتفالاته فيها، بـاقتراب الشـوائب من الحسنات أو ابتعادها عنها، بعيداً عن مدينة النقد العاصمة والعاصية.

وكنت أردد بصـوت خفيض، أو شبـه خـائف: لم تمت يـا ولد، لم ترَ من مات! لأنني وقعت على معجزات، أشد قوة من معجزات الأنبياء والمؤرخين والقادة العسكـريين والآلهـة الذين سكنوا صفحات الحكايات المكتوبة أو السـارحة فـوق مساحـة الألسنـة المعقودة عـلى الشفـاهي المنـظور اللفظ أو النـطق، أو المُظهَر بعملية استدراك تلعب فيها الذاكرة دوراً خصباً ومؤاتيـاً لملوك النقد ووزرائهم وحاشيـاتهم المقيمة عـلى حواشي الكـلام وحواشي الكتب المعلقة في فضاءات ضيقة، لتتحرك على ضـوء يُنَسِّم أو يعصف، بحسب ألفباء الكتب المعقودة نواصيها عـلى خيل مرقمة بالألـوان. خيل تـرمح وتـربح، حتى قبـل أن يبدأ السباق، أي خارج المنافسة. وخيل مصيرها الخسارة القاسية، عـلى الشروط نفسها، ولكن المنقـوضة هنـا، لصـالـح الخيـول الأولى.

قتـل النقد بـالخوف منـه، وقتل بسـطوته، وقتـل بـالسلطة الممنوحة له، أو المرتدة إلى أصحابه من مآتم المسرح وأفراحه. أدركت معنى ذلـك، وأنا أقف في قلب واتـرلـو نـابـوليـونـات المسرح اللبنـاني، الذين خـاضـوا معـاركهم فـوق أرض جـزر عائمة أو غائرة في قعور محيطات.

كبت خيول المسرح، أمام الموانع الـطبيعية التي ارتفعت في أرض النقد. وهي موانع موجودة بقوة الوجود، الـذي لا يعني هنا النظرية الوجـودية، بـل يبتعد عنهـا مسافـة سفر قـرن. إذ غـالبـاً مـا كانت النـظرية غـائبة عن ممارسة النقـد، كما كـانت المساطر المرقمة جـاهزة، لقيـاس المسرح والمسرحية والتجـربـة، بما عنته وتعنيه كلمة مسرح في القواميس أو كما وقـع ذكرهـا في مقالات قليلة، شكلت حالاً مرجعية للذين كتبـوا على هـداها وهواها وهواهم.

التـطبيق يقابـل التطبيقـات، وإن تبقى الأخيرة أثقـل. لذا تحـول الزميـل المسؤول عن خطه الليـبرالي، وهو يقـرأ مقالاتي الأخيرة. قلت، وأنا أحاول قراءة القراءة، إنها صارت محـرجة له ربما، أو إنـه بات يـرى فيها عـائقاً لمـا كان يخطط له. كنـا نحضر مسرحيـة ما متجـاورين، ونمضي، هـو إلى ليله وأنـا إلى ليلي. ومع بـدايات نهارنـا المشترك، كـانت المفاجـأة تنفتح كـما تتفتح وردة، لا تلبث أن تموت.

تمثلت المفاجأة هـذه، في إصراره على لعب دوري، بكتـابة المقـالة النقـدية في المسرح، مـوقعة بـاسم مستعار، يحـاول أن يخفي فيه اسمه الحقيقي، مع إصراره على حضـوره النسبي في الاسم هذا، بتضمينه الحرفين الأولين من اسمه واسم عائلته، في أول اسم العلم الجديد، وأول اسم العائلة الجديدة بدوره.

قدم أصحابه والمقربون منه أعمالاً مسرحية هامة، مجـددة، متعالية على الواقع الاستهلاكي ومناقضة له، إلى كافة الصفات الحسنى الأخـرى، التي تخـطى عـددهـا المـائـة، وهي ليست كذلك، إلا بحسبه ومن وجهة نـظره. وفي وجهة النـظر هذه، أمر زميلاً آخر بكتابة مقالة عن مسرحية. وقتها انقلبت موازين النقد، على أقفيتها، التي دقت عليها بروؤس الأزاميل المعدنية الـرفيعة، كلمات مبطنـة، ولا تمت إلى الـواقـع بصلة. الممثلة هنا، وهي ناشئة، قدمت بوصفها صاحبة حضور متوهج يملك صفات ماريا كالاس وغريتا غاربو مشتركة، قافزة فوق صفات المحلية الضيقـة إلى مـدى جسـدي رحب، يتـألف في عتمـة الصالة وتحت أضواء الخشبة الخافتة، اللاعبة عـلى روح النص بيت القصيـد. أما الآخـرون، فهم لورنس أوليفيـه ومـارلـون براندو وأورسون ويلز وجيمس دين. ولو قيض للكـاتب عميق معـرفة لكـان درى بأن ايليـا قازان واحـد من أهم المخـرجين المسرحيين في العالم، قبـل أن يعرف كسينـمائي كبـير. ولكـان محض صفاته إلى مخـرج المسرحية، الشاب الرقيق، الـذي إنما كـان يحاول أن يضـع رجلاً عنـد حافـة المسرح، والأخرى في قلب الشك، الذي لا مسرح من دونه.

ضخم النقـد سلبياتـه، لما التف أو حـاول أن يلتف، عـلى الحركة القاسية لصوت الواقع فوق وجه الحياة الغـاربة، تلك التي كانت تدعو دائماً إلى الاستفـادة الآنية. النقـد يتحول، أو يزداد تحولاً ونحـولاً. يتحول النقـد إلى نقد نفعي، انتفـاعي، انطباعي، انشائي، بطريـركي، مناطقي، طـائفي ومذهبي في أوقات، يستسهل لعب الأدوار هـذه أو غيرهـا. نصف الانهيار الآخـر، في النقد، كـما كان نصف الانهيـار الآخر في المسرح. وجهـا العملة الواحـدة يكملان بعضهـما، هي عملة مـزيفـة، تـطل بمعدنها الملتمع بشهادات الـزور من ثقب جدار المـدينـة المفجع.

انهيـار المسرح، يقابله انهيـار النقـد. والاثنـان يعـبران عن انهيار المدينة. نقد أطاح ما تبقى من تجـربة المسرح في لبنـان، وأضاف إلى حال مـراوحتها المتعفنـة، حالاً أخرى، هي حال التشرع على التسيب.

الحبر في يدي، المدينة فوق الرمش، الرمش يرتجف، وحين يرتجف، يقال كما في الميثولوجيا، أن شيئاً ما سيحـدث. أراهن على ذلك، وأشهد، حيث إنني لم أملك ولا أملك، إلا رؤوس أصابعي، في يديَّ اللتين نسيتهما صغيرتين ونظيفتين. □

من مقدمة كتاب «بيت النار، الزمن الضائع في المسرح اللبناني» لعبيدو باشا الصادر عن رياض الريس للكتب والنشر بيروت، لندن ١٩٩٤

بين رَجْفة المتصوّف ورَجْفة المتعصّب

أنسي الحاج

ثمة جزء فيكَ ليس وَرِعاً. لا تَقْمَعْهُ. جسدُكَ مناطق. بعضها لا تصل إليه الشمس بل القمر، أو ربّما الظلال. أو لعلّه ملاك «ساقط»، دعه وشأنه.

***

الصور التي رسمها البشر للّه عبر الأزمنة هي المشكلة. هل من الممكن أن يُحَبّ كالهٍ خالق، ذلك الاله الجبّار الدمويّ الذي يأمر بذبح الأطفال والنساء بعد نهب الأرض؟



الله الذي في قلبي، رغم كلّ خطاياي، نظيف أكثر من صُوَر اللّه المالئة تاريخ البشرية دماً وتمزيقاً، بحجة انه أب يربّي أبناءه، أو زعيم جماعة يؤثرها على الآخرين فيبيح لها أعناقهم.

الله الذي في قلبي معذّب بتناقضاتي، محدود بماديّتي، مستضعَف بضعفي ومستنزَف بكل ما يعصف بي مما يحجبه عن رؤيتي.

ومع ذلك، هذا الاله الخائف دوماً أن يكون على خطأ، لم يقتل ولن يَقْتل، لم ينغلق ولن ينغلق، لم يحقد ولن يحقد، ولم يعلّمني غير الحنان والحب، وأُحسّه أقوى من القوّة.

***

بين رَجْفة المتصوّف ورجفة المتعصب شَعرةٌ في حجم اللّه.

***

الانسحاق أمام الله في المعبد والتكبّرُ على أخيك في الشارع؟ تملُّق الجبان.

***

خواتم

مَن الذي أُحبّ؟

اله يجرّدك من أسلحة قَتْلك في الآخر وفيك، لا من أسلحة قَتْله هو وحده.

***

الانتصار الوحيد الذي أطمح إلى تحقيقه عليك، هو أن تَفْهمني.

وأن تَفْهمني لتحبّني، لا لانتصر عليك. وأن تُحبّني لتفرح بي كما أحبك وأفرح بك. أيُّ الهٍ عندئذٍ يبقى بعيداً عن ناسٍ مثلنا؟

***

صلاةٌ في عزّ الشَبَق: هذان هما الطُهران.

***

قدّيس عامر بالله أكثر من الله المتداول.

شاعر يحبّب بالله لآلامه، لجماله، لعتبه، حرائقه، أكثر من ملايين الاتقياء والأفاضل، لانه متجدّد (ومجدِّد) بحرائقه. والاحتراق، ولو بلَهَب الجحيم، يفْتَح على النعمة.

***

أُحب حتى التعبُّد بعض القدّيسات والقدّيسين.

وما ينهى عنه البروتستنتيون إنما يحصل لي: تعبُّدي للقديسة ريتا، مثلاً، قد يُنسيني الصلاة للمسيح، ولو أنه موجود في خلفيّات الصورة.

لماذا هذه «الصَنَميّة الجديدة»؟

لاني اؤخذ في حبّي لهؤلاء القديسين لا بدرجة تديّنهم بل بمدى افراطهم في الحُب، حتى ليغدو بعضهم مَذْهباً في ذاته.

الذين أحبّوا حتى الموت، وماتوا فداءً، وتخطّوا أنفسهم في الشفقة والاغاثة، هم شفعائي إلى أيِّ دين انتموا.

وهكذا لا يعود الدين هنا الا واسطةً معجزة.

المعجزة التي هي درجة عليا من خوف المُحبّ على محبوبه.

***

ولدتُ كما أصحو من النوم، وأنا أقاوم.

***

ـ هل حقّاً مرغوب للكتابة ان تكون عفوية؟

ـ حَسَب عفويّة مَنْ. التافه الأحمق عفويته تافهة حمقاء. الفائش عفويّته فوّاشة. المرغوبة حقّاً عفويّة المنطوين على شيء.

ـ تقصد العميقين؟

ـ أقصد الذين إذا قالوا لا تنحصر ظلال كلماتهم بحدود حروفها. العفويّة جميلة بليغة في أفواه الباطنين.

***

في بعض المذاهب البوذيّة، يَعْدل الحكيم مؤقتاً عن ملاحقة خلاصه متخلّياً عن بلوغ النيرفانا وقد أصبحت قريبة منه. لماذا؟ للاسراع إلى نجدة نفسٍ سواه يرى أنها تتعذب أكثر منه وتحتاج إلى عونه.

القاعدة هنا تصبح الحنوّ، الرحمة، لا تطهير الذات مجرّدة عن العالم. فجأة يبدو خلاص الذات المعزولة، عملاً أنانياً قياساً بهذه الطِيبَة اللامتناهية.

قداسة مرّتين.

***

يوم نَنْتهك ولا نعود ندفع الثمن، نكون قد اكتشفنا سماء جديدة.

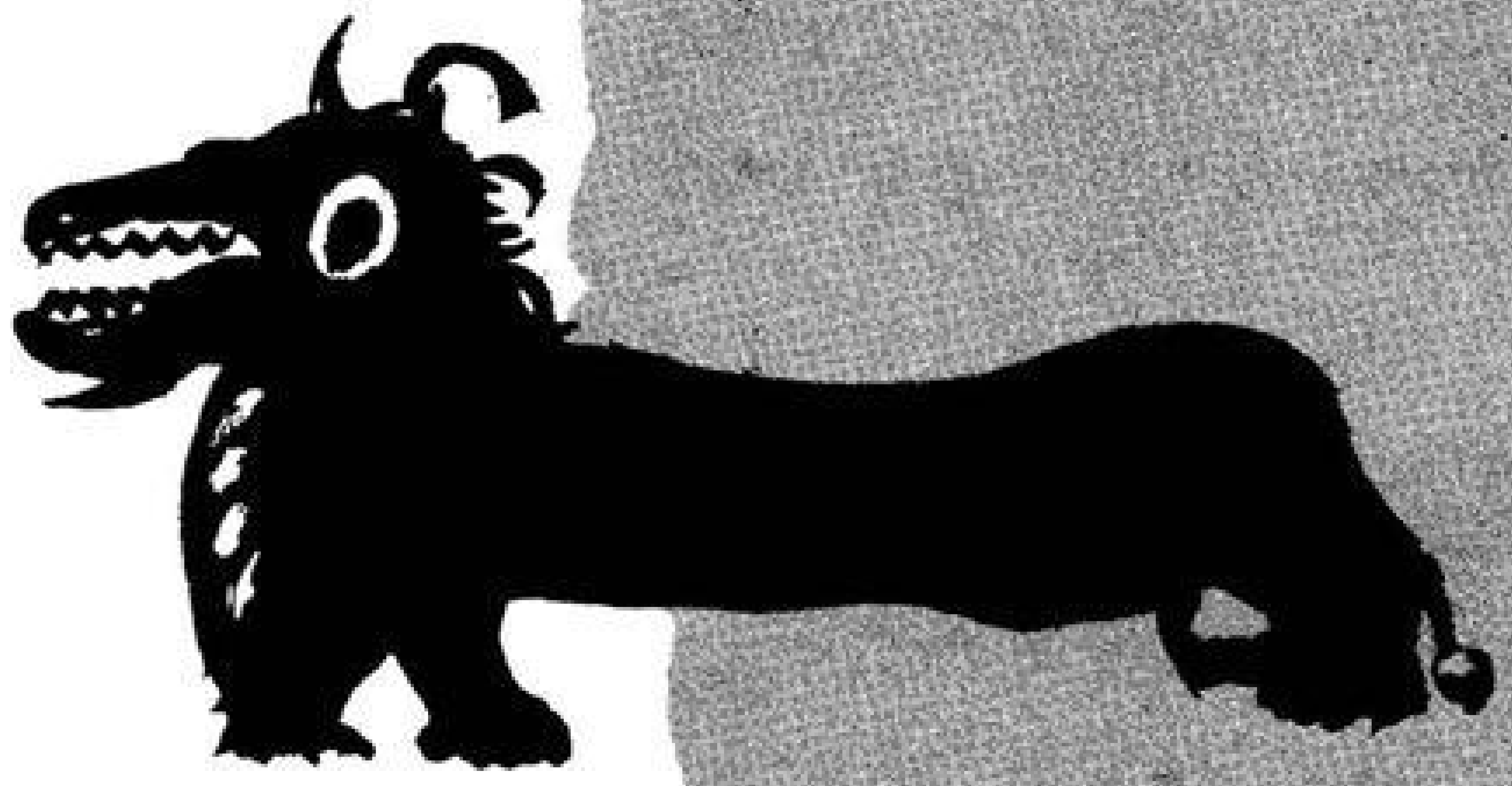
***



ديناصور المستقبل

«أئمة» الوجودية والعبث وأجداد الحداثة

أمير الدراجي
كاتب من العراق



قناني مكسورة، وشتائم وأحذية ممزقة، اندفعت خارج مشرب المدينة ذي الأضواء الكسولة، المخنوقة بدخان السجائر والضجيج. وبفضول البلهاء دخلت وصديقي المسرحي، صاحب أكبر تجارب العبث المشهورة آنذاك، «حميد كاظم موزان». وسرعان ما شاهدنا مكابشة كمكابشة الدببة بين اثنين تجري منهما الدماء. كان أحدهما رساماً أدمن الإكتئاب والصمت إلا في السكر، وكان شعره «النيغرو» ووجهه الكامد خلف الجلد، يحاول الهروب أكثر إلى الداخل شبيهاً بخنفسة معزولة. أما الآخر فقد أحب الثقافة بقوة العضلات و«عرض الصدر» إثر عدوى أصابت بعض «الشطار والعيارين» أي «الشقاوات ـ القباضايات». عرفنا أن الأخير شتم دوستويفسكي، فلطمه الرسام بقنينة العرق.. ثم تطور الأمر إلى الأحذية والكراسي والبصاق وكل ما يقذف. ولعل المشهد «العالم ثالثي» هذا، جدير باتخاذه رمزاً، تتمركز داخله كل تشفيرات ثقافتنا الحديثة، سيما وأن



الايديولوجية الخنّاقة لن يسقطها البعض فقط على الشيوعية والقومية والدينية، فهناك فريق أكثر غلواء، افترض الجميع أنه كان منزهاً عن أخطاء تزامله مع الحداثات الأخرى. وكما الشيوعي أسقط «الحسين على غيفارا» أو الله على الديالكتيك وأصبح يقسم «بالساحة الحمراء» و«جبال كوبا»، وأن هذا الشيوعي الذي صار مؤمناً أسقط لينين على رجالاته العقائديين ومثله العليا، كذلك فعل القومي حيث القبيلة هي التعميم الوطني. مثلما فعلت مقابله العبرانية. ومثله الديني الذي كرس فولكلوريات وطنية (أزياء، مطبخ، أمزجة غريبة، طقوس وحركات هي ابنة بيئات وإيقاعات لا تقبل التعميم) على حداثاته واعتبر أن الله كان في الماضي فقط وليس في الحاضر أو المستقبل، مما استحق إدانة ربوبية على ذلك!! هؤلاء الزملاء لهم شريك آخر، هو «العبثي، الوجودي، البوهيمي»، الذي لم يأتِ بعلبة من الخارج، فهو ابن تاريخ وبيئة وإيقاعات اجتماعية لا تقبل المجازفة بالاستثناء.

كان المشهد الذي شاهدته وصديقي هو: إثنان يتقاتلان من أجل دوستويفسكي. المكان مدينة «الناصرية» جنوب غرب العراق، ووسط مشرب يؤمه العمال وبسطاء الناس من حمالين وسوقة، طلاب الشكاوى اليومية والأحزان والبكائيات العجيبة. وهؤلاء هم مادة ثقافية دسمة للغاية أكثر من هذين المثقفين، خصوصاً وأن الحضور لم يكن يعرف دوستويفسكي.. فظن أن المعركة حدثت بين مربي طيور عرفوا بمشاكساتهم.. فهم لم يسمعوا بدوستويفسكي أو سارتر. ابتسم صديقي حميد، وهمس في أذني، بأنه «يعزي ذلك الشرطي الخفير حين يأتي للقبض عليهم، حيث سيظن أن دوستويفسكي (إمام) أو دواء في صيدلية سرقه أحدهم وحين يدرك الحقيقة، سيكسر بعض العصي على عقائرهم».

في الستينات، راجت هذه الظاهرة، وسجلت بعدها العقائدي وتحزبها الاجتماعي، وقد شرح أحد الايديولوجيين لخليته الحزبية فلسفة الوجودية. فقال: «إن الوجودي هو ذلك الذي ينزع ربطة عنقه ويربطها بحقيبة يده ثم يسير مترنحاً في الشوارع وهو خالي البال». أعتقد أن شرحه هذا هو أفضل من كل الإدعاءات الوجدانية التي ادّعت آنذاك ركوب موجات العبث. لأن الجوانب المظهرية البرانيّة التي سادت هذه الظاهرة، كانت أكثر حظوة من عمق هذه الأفكار وجوهرها الإنساني.

ومن الصور التي تنضبط في مساراتها البيئية، كان مشهد ذلك الريفي الطاهر الذي قدم من أهوار الجنوب، إذ همس في أذن قريبه، مدير المدرسة: «لقد صرت شيوعياً ونيتي على علي ابن أبي طالب» والترجمة الحرفية «صرت شيوعي.. ومنواي على علي بنا بيطالب» كما يلفظها أهل الجنوب مثل «بانيبال».

صور عديدة تركتها ثرثرات الأزمنة الحديثة على طاولة الاعتراف، فلم يتنزه أحد عن كينوناتها المثيرة للشفقة والخجل أحياناً. والعبثية لا بد من تزميل ظاهرتها مع السياقات و«الصحوات» التي كانت في المنطقة، وهي لا تقل زيفاً عن الحداثات السياسية الأخرى، حيث تناولها العقل بدون «ملعقة وسكين» كما يفترض اتيكيت أكل المعلبات المستوردة، بل بقبضتي يديه الخشنتين اللتين تنهشان الرز واللحم من مناسف القبيلة، وتلك هي الطامة الكبرى!! مع ملاحظة أننا لا نعتبر أن المعلبات المعرفية غير صالحة لغذاء العقل، كما لا ندعو إلى تكريس منسفنا المعرفي.. بل مؤاخذتنا هي: على الخلط واللبس الذي حاول في أزمنة عديدة استدراجنا إلى فخاخه ومناقلاته السريعة، محاولاً الإيحاء بأنه عقل مؤمن من الدرجة الألى، فيما هو يفتش عن مغتربات وبرانيّات صريحة، وإن اختار تراثه وذاته. معتقداً أن الدخول في الذات هو الدخول في البؤس والتخلف والإنكفاء.. وهكذا يختار ذاته بمقتضى تزكيات الطليعة المعاصرة، وأذونات الثقافة الخارجية.

إذاً موضات العبث الستيني والمتأخر كلاهما يرتكب خطيئة التملق التقني وليس الحضاري، والتملق هذا هو مقمّص خشوعي، أعمى، لم يتحرر من رؤاه السريّة للكون والعالم، فيأتي متناغماً في محيطه، لم يشذ عن الإيقاع الاجتماعي السياسي السائد، سيما وأن الإيقاع الذي ساد هو استعداد نفسي للتحازب والعقدنة. لذا فإن العبث والعدمية هما الخيار القروي نفسه، شديد النوايا الحسنة، وطيب الإنتماء، وهو تماثل، وتقابل مع محيط وليس مع مرجعية فلسفية كونية. فإذا أقسمت بزينب أو عائشة أو العذراء.. فهناك من يقسم بالحاجة سيمون دي بوفوار. وهناك من يقسم بالكتاب الأحمر، أو «الوجود والعدم». في هذا السياق تأتي «الصحوات» وتذهب، نقع فريسة الأمل والرجاء بـ«المخلّص» ثم نجد ممثلياته وسفراءه ينتظرون مثلنا، أو يتركوننا في محطات العبادة القاسية غير تاركين لنا فرصة القيامة الذاتية حيث يمارسونها، بل يحافظون على مسافة خالدة تفصلنا عن فعل المجيء والحضور والاستشراف.

القومية والشيوعية والإسلامية والليبرالية والعبثية والوجودية ومدارس الفنون الأخرى لا تخلو كسابقاتها من عصبويات التوتر الوحشي والتقمص الفولكلوري الاستعراضي، حيث البطل هو مهرج، وعارض أزياء، لا بد أن يجد فيزياء تتماثل مع صوره الداخلية، فيكون خارجياً مظهرياً، ومن الفضيلة أن يجد ذاته في خلق النقيض اليومي، ليتمكن من مجاسدة فيزياء-

ثمة من يقسم بالحاجّة سيمون دو بوفوار!؟

حراس الإلحاد الأحمر صاروا حراس الإيمان الأسود

العدو الطبقي - الكافر، الشيطان، الشعوبي، الامبريالي، الصهيوني، الرجعي المتخلف.. وهلم جرا...

إذا كانت الحداثة لا تختلف عن طوطمية الأجداد، فإننا لا نندهش من أدعياء العبث والوجودية وهم يجدون لهم «أئمة، وأتقياء وبطاركة» ولهم قسمهم، «كقبر رامبو» أو دموع بودلير، وطهارة بوفوار. وهكذا فإن وعينا التاريخي الذي انفطر على تعدد الآلهة جددها بكثرة الأولياء وزيارة قبورهم، باعتبار أن المرجعية القبلية التي كانت تمثلها الآلهة المحلية، «البوليتية»، تواصلت في عصر المعتقدات الواحدية الكبرى في تعدد الأولياء، فجاءت حديثاً بأولياء الحداثة. وكل له قبوره وأولياؤه. يتشفع عندهم ويخلقهم خلقاً إذا استحال وجودهم. لأنه يحتاج إلى حشو الفراغ الدائم بفراغيّاته المعتقدية المفتوحة على احتمالات المجهول وانبهاراته السحرية، فيقنط، يستمرىء ذاته الذليلة، المتعبدة، قنوعاً، خاشعاً. إن الاحتفاظ بسلفية الإيقاع وسط الحداثة المتصنعة، ناجم عن الخوف المطلق من تجرع حداثات معقولة تناسب حجم نمو البيئي والمعرفي والاجتماعي، الأمر الذي يجعل خياراتها في أقاصي الحداثة، ناجمة عن معتقد «الاختصارات» والتمركز السريع خارج الجوهر المراد ادعاؤه، وهذا ما يجعل خيارات الحداثة طبقاً لهذا السياق، الاحتفاظ بواقيات السلف وطاقيات إخفاء الماضي. كل ذلك عمل على حرمان النمو الطبيعي الموزون للحداثات من أي انضباط ذاتي معاشر لبيئته ومجتمعه، فيكون بمصداقياته العقلانية قد تجرأ على اختيار ذاته دون تلك الوصلات الخوارجية المفرطة في التطرف. لعل ذلك جعلنا نشاهد حراس الإلحاد الأحمر، هم حراس الإيمان الأسود، وجعلنا لا نندهش من أدعياء التسكع والعبث من ممارسة وادعاء الإنتماء المذهبي أو الطائفي، أو الوقوع في تبرير شطحات جنائية وغرائز بهيمية ليس فيها من السحر النيرفاني والعبقرية، ما يماثل مراجعها وأصحابها. وقد كتب هؤلاء هلوسات ليس فيها قدرة على الصراحة التعبيرية، بل حشدوا كل الغموض والتظليم اللاأخلاقي، بهدف البقاء خارج الوجدان، والضمير، والذات، مما لم يجعل صلاتهم تخلو من أصنام تختفي تحت أكمام جلابيبهم الصحراوية الواسعة جداً!!

ولمعرفة حقيقة هذه الظواهر، لا بد من دراسة شبه إحصائية عن الضابط الثقافي البيئي وتعبيراته، ومن ثم كشف خفايا أصحاب هذه الدعوات ومرتكبي حماقة تصنّع آلام الآخر، فيما محيطهم يزدحم بالآلام والدراما. وهكذا ستنكشف الأهداف والدوافع. وهذا ما يجعل التنبؤ باستمرار الظاهرة أم لا.. والتنبؤ بمدى جديتها لدى الشخص أمراً عسيراً، لأن معظمها لا يغدو أكثر من «صحوات» ظرفية لا تزال قبل أو بعد نفسها، بأشواط بعيدة.

للوهلة الأولى بدا ارتياد «النادي العبثي»، وبرغم خفاياه المترفة احتجاجاً ثقافياً على سيادة الايديولوجيا، وجرّها من شعرها في خدمة علم الايديولوجيا هذه. مما كمّم دورها، وبسّطها بعد أن أفرغها من الذكاء والموهبة والإبداع. فقد كان ذلك التماهي مع الفلسفة العبثية تحركاً وقائياً لإنقاذ فطرة الحرية في مسيرة الإبداع والثقافة بما هي عمل غير تلفيقي يخلو من التصنع والقصد. فكان هذا «الركن الهادىء» والاستراحة من توترات الايديولوجيا.. وهو استطاع أن يتوفق بتعشيرة ثقافية مساوية لمرجعيات الموقف الأوروبي الرامي إلى الاحتفاظ بحرية التقصي عن الحقائق والمعبودات والقوالب المعممة والصالحة لكل الأزمنة والأمكنة. وهكذا أصبح معتنقو هذه الأفكار: «مجانين، ضائعين، منحرفين» في نظر الجميع، وتلك نعمة محمودة في تلك الأزمنة المتوترة، والتي لا تزال بقاياها «الصحوانية» بعيدة نسبياً عن حدود الاحتضار في المنطقة.. فلا تزال طاقة «الصحوة» قادرة على التجدد والانبعاث.

إذاً كانت ألقاب الغربة التي حازت عليها هذه الظاهرة هي، أقرب لها في سياق ترشيح صدقيتها. ولكن ما أن اختارت التمايز السياسي حتى عادت إلى محيطها، ووقعت في محذورها، مما جعلها فكرة مماثلة لكل المعلّبات والأصنام المعبودة في عالمنا، حيث لم تشكل ذلك الهاجس الإنساني الخالد في إنقاذ النفس من الخوف والمذلة وكل مكدّرات الرؤية الهمجية لعملية الخلق. بل أبقت على سلوك عبودية الفكرة وديكتاتورية الحقيقة.

في هذا السياق انقرض الجيل الستيني بعد أن سحره اليسار الحديث، واتخاذه سبيلاً مناقضاً لليسار الرسمي تعبيراً عن احتجاجه الثقافي الأول. وقد كان لدخول بعض القوى ممن لهم خلفيات فكرية ضاربة في العبث أثر في تطوير ثقافة هذا اليسار، فيما حدث العكس حين جاء جيل متأخر من اليسار لاختيار العبث مما أخفق في تحقيق أي إبداع ثقافي مهم. بل كان أشبه بقروي دخل المدينة، فاختار أرذل قيمها، لأنه يعتبر أن التآلف مع المدن، أو أخلاق المدن هو: بتمثل أقصى انهيار لكل الحصانات الداخلية. وهكذا استطاع اختصار معنى التحرر من ريفيته حسب اعتقاده. وهذا سلوك متطرف يعمد إلى إلغاء النماء الطبيعي للحوار الحضاري والثقافي، فينبتر، أو يتوثب فوق طبيعة التوقيت والولادات الطبيعية، لذا لا يمكن منحه أية ثقة في ذلك، لأنه سيعود إلى الرؤى الأولى وبناءاتها التي تنتقل معه من مكان إلى آخر.

لعل الجيل المتأخر للعبث والمطروح أمام المنطقة بعد أن خدم وترعرع طويلاً في ظل محترفات القمع الذاتي والخارجي، يخلط بين الإنتهازية والعبثية، وبين السقوط الاجتماعي الشعبي

وبين خيارات الانهيار الحضاري والإنساني المستقدم من بيئات مكتبية، عبرت تواريخها المظلمة إثر مصادقة تاريخية مع الذات، انتهت بمنحها حق الإنفلات من ضوابط التاريخ العقلي الذي مكّنها من عبور الظلام. غير أن هذا الإنفلات مؤرخ بنمو طبيعي ما زال قادراً على ضبط اللعبة وتبريرها، بمقتضى منطق الدفاع عن خياراته وحرياته. فيما يتخذ السقوط لدى جيل العبث المتأخر عندنا، سبيلاً شعبياً مزدوج الموقف، مشحوناً بالتقيّة والخوف والتماهي الإنتهازي، ويبدو أن صدفة ذهبية أسعفت هذا الجيل، وهي فشل الايديولوجيا، مما عزز مصداقيته وهيبته، الأمر الذي يجعل «حداثة نعمته» في تواريخ الاحتجاج على الثقافة السائدة غير صلبة كالجيل الأول الذي ضاعت خدماته وفرصته إثر رهانه السياسي على حلم «المدينة الأفضل». حيث أعطى كل طاقته لذلك، وظل متابعاً هذا الحلم بانتقال نماذج منه نحو التديّن و«ايديولوجيات الرب».

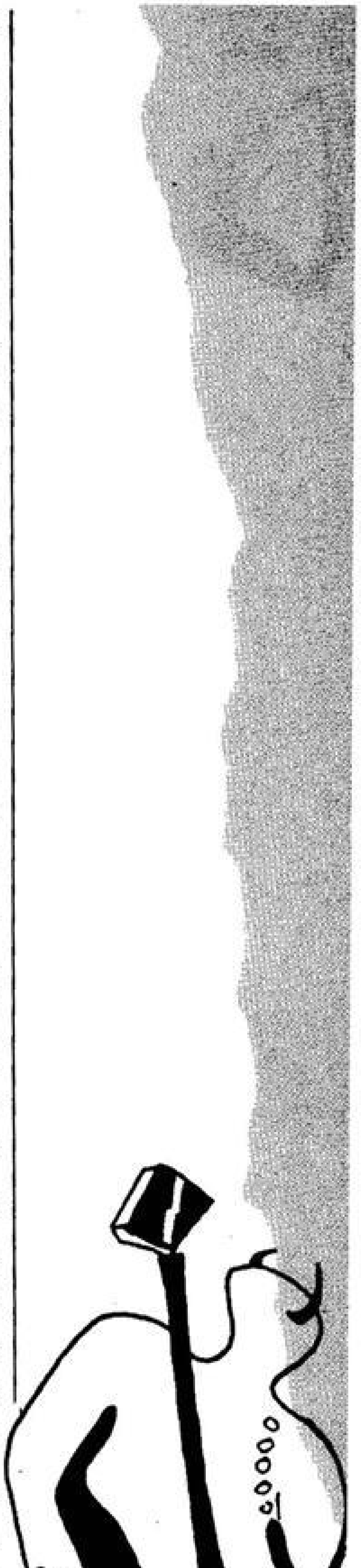
فإذا أخذنا رهانات ذلك الجيل الذي نشأ في فترة تصادم ثقافي أكثر فروسية من الجيل المتأخر، فإننا سنجد متأخرات موقفه دليلاً على تلبيس وخلط بين وجود عفوية الرؤية وبدائية نظرتها إلى الحقيقة كخلاص غير مدروس وغير مقروء، ترتمي عليه كل أثقال الرجاء والأمل الإنساني. مما لم يكن موجوداً في الفلسفة العبثية والعدمية.. وبين توجهاته. إذاً كان الاختيار أعمى في سلسلة الخيارات التبشيرية. ولما كان الوضع الأول مع كل جرأته وبطولاته بهذه البنية والنتيجة، فكيف سيكون الوضع في الجيل الثاني؟

إلى ذلك فإن ترشيح أجيال العبث والحريات المفلوتة لكرسي النيابة الشاغر، جاء بالتزكية بعد اختفاء أصوات المنافسين الذين اعتادت المواقف أن تخلقهم وتنافسهم، وإلا «فلن يكون هناك موقف دون أن يكون هناك خصم»!! فهؤلاء المسعوفون بالصدفة والتماهي شكّلوا أخطر المغالطات الثقافية، وذلك لعدم إتاحة الفرصة، لمستقبل قد يحدث انقلاباً في خياراتهم كأسلافهم مما يجعل أية مجسات باحثة، خبيرة، محكومة بصعوبة كبيرة أمام كشف مستقرات مواقفهم وجوهرها، من حيث وجود توتر روحي معتقدي يتقمص خارج الذات ويحول أي فكرة إلى محازبة عصبوية. وهذا ما تكشفه محازبات بعض الوجوه الثقافية التي تدّعي العبث، فتعمد إلى تزييف حقائق، وتقوم بمهادنات توفيقية مع بعضها البعض، هي أسوء بكثير من رشاوى أحزاب اليسار لدعم وجوه ثقافية قبيحة. وتعمد إلى استخدام العطف الإعلامي معها، (والمخدوع بجهادية احتجاجها ضد القوالب والمحازبات) لأغراض خاصة، فيها من المسحة الحزبية ما يجعل خطورتها الدعائية المستقدمة من تمارين الخدمة الايديولوجية أكثر تشوهاً من الايديولوجيا نفسها. فهي تؤسس لكارثة قادمة، أقل عدلاً من بطاركة اليسار. والأمثلة في هذا المجال كثيرة. وقد لا نستعجل بَقْرَ بوالينها الإعلامية والدعائية لطراوة عودها، ولخوفنا من الوقوع في مواصفات الأب الغاضب من أبنائه، أو الوقوع في متاهات صراع الأجيال.

وهنا تستطيع المقارنة بين الأثرة الجهادية والثورية لحداثة جيل الستينات مع هذه القوى التي لم تختر حضورها، بل اختارته لها أحداث الانهيار الكبير لعصر الايديولوجيا، فوجدت طرقاً معبّدة سالكة لا تعتورها أية حواجز ثابتة أو طيّارة. وهذا ما يجعل نظرة القوى المحافظة إليها، هي نظرة لا تسودها هيبة الاختصام والخطورة كما كانت سابقاً.. بل وجدت فيها هامشاً انتهازياً يختار لنفسه فكاهة ثقافية زجّالة الشعر، مصففة الهلوسات، بصّامة التقليد والنسخ الحضاري،



خليعة من كل حصانة احتجاجية، تمارس أقصى الأهواء البهيمية، لأنها عمدت إلى قتل الأب والابن معاً وقطعت الجسور. لذا لم تجد بداً من التنقل بين العقائد والأهواء السياسية، فكل دقيقة مستعدة لرسم كونها الأحمر أو الأخضر أو الأسود، ومستعدة لتدبيج أفكار وكتابات بأسماء متنوعة، ولمجلات إيديولوجية متناقضة الفكر والمعتقد وفي يوم واحد. فهي قومية هنا وعبثية في قصيدة. ومبشرة في الكتاب الأخضر، أو شيوعية في «آخر صفحة» لمجلة ما، وقومية عربية في بحث قبلي حتى النخاع. ذلك هو جيل محترفات القهر الذاتي الذي اختار رفاقه بعناية فائقة، كما كان يختار المرشح الحزبي بعد رقابة طويلة. وله خصوم يقفون في جبهة المحافظة حسب تقديره. وهؤلاء ليسوا متفلتين يعيشون في محراب



شهواني يعتقدونه العبث وفلسفته. فإن البقرة إسوة بهذا الخيار هي مثقفة أيضاً. بل أكثر رقياً من شهوانية هؤلاء.. وقد تكون أكثر جرأة في اختيار عريها من تقاة القنص الشهواني المفزع. فهكذا يطرح هؤلاء عبثيتهم النؤاسية، وانحرافاتهم الفولكلورية في سياق حداثة ثقافية لا تحمل تلك الهموم الإنسانية الجبارة، لخلوها من أي وقار ضميري، ما خلا ادعاءات المظهر والسلوك الماجن والإباحية الوحشية التي يمكن أن تحدث في أقصى التاريخ وأقصى المستقبل مثلما تحدث في أقل المجتمعات تمدناً وأكثرها تقدماً. فالإنحلال والمجون لا يحملان مقدرة إنسانية ثقافية، من شأنها إضافة عناصر طامحة إلى التناغم الكوني، فهي شديدة التفاؤل، لما فيها من طموحات دونية، بدائية أكثر غباءً من ثور ضاحك أو حمار فيه من التوتر الشهواني، ما يجعله يعتقد بأن صوته جميل عذب!

وللدلالة على سوء نوايا هذه الظاهرة من حيث أهدافها الحزبية التي تفتش عن فئوية مبررة، فإنها خرجت في جولات الصيد التاريخي لتجد لنفسها موقعاً أو فيزا للدخول وسط البيئة، وكأن هناك من يطالبها بتعريب العبث. فكما راح اليسار المستحدث بعد ثورته على السلفية الأممية، (ومن سوء حظنا) يرجع إلى الخلف محاولاً التجانس مع التاريخانية القومية والوطنية المطروحة، متملقاً للتراث الديني، بأن وجد ملامحه المناطقية (منعاً لتكتيك القوى المحافظة باتهامه بالإلحاد) في التاريخ الإسلامي، فكوّن من «الزنج والقرامطة» حجته الحديثة، فابتلعه التاريخ حتى اعتمر العمامة بعد طاقية لينين ثم غيفارا!! وهنا عاد إلى حظيرته الطبيعية. وتدوولت أصوات في بداية السبعينات، وكان أبرز دعاتها الشاعر (مظفر النواب) وتنظيم الحزب الشيوعي العراقي «القيادة المركزية» الذي انتهى معظم أعضائه حراساً للثورة الإيرانية «الباززدران» فابتلعتهم الموجة الخمينية.. كما ابتلعت العديد ممن خلق تعشيراته الفكرية. فمن واحد مدفوع بحنين قومي خفي إلى الأصل الإيراني حيث كانت معظم قيادات «القيادة المركزية» من الأكراد «الفيلية» ذوي الإنتماء الفارسي القديم، وآخر مسحور بورطة الحداثة التي فقدت الإحساس بالزمن واتحدت الألوان عندها.. انتهى إيقاع الثورية المناطقية من أقصى المستقبل إلى أقصى التاريخ.

إذاً هذا اعتراف بخطيئة الإفراط البراني، انتهى بإفراط انكفائي نحو الداخل، وهنا لا بد من اكتشاف أثر باطنية الإحساس بالخطيئة والذنب بعد أن تجسد القطب المناوىء للخيار الأول. فثمة هنا اختيار مقصود لاحتراب الثقافة، وثمة رغبة في إبقاء الشحنة العدائية منذ الاختيار الأول وسط أقطاب الفكر الإنساني البريء من صور ترسمها برانيات الذات سواء في انكفائها أو تهتكها. فهنا الضحية وهناك الجلاد.. والضحية إما جبانة تعبد وتذل نفسها وإما ثائرة زنديقة غاشمة.. وكلتا الحالتين تقع في سلبيات الوعي البدائي الموحش في تاريخ الثقافات الإنسانية.

وهكذا اختار العبث تاريخه أيضاً فراح ينبش في التاريخ عن مصادره، وتوفق بوجود السوقة والصعاليك وكل منحدري الأخلاق في قصائد العهود المظلمة. فثمة (عروة بن الورد) الذي أصبح مملاً كما هي كتب «دار التقدم» أو لينين مع كامل إجلالنا لهذا المفكر الطيب النوايا!! من هنا سكنت عقيدتهم على خازوق تاريخي، فكانوا دعاة تبشير جديد، خده الأدنى «الشطار والعيارون» وحده الأقصى صعاليك (عروة بن الورد). وهكذا كانت ثقافة العبث تجمع شتاتها الايديولوجي لتسير في إيقاع بيئي، يكشف عن خفاياه «العالم ثالثية»، مفتشاً عن مدن طوطمية غارقة تحت رمال الخلط والإلتباس. وبعد تدويخ طال أمده انقرض الجيل الأول فجاء دهاة الإنسيابية التاريخية وقد أسقطوا عن أنفسهم تلك التهمة الخلاسية، فكانوا من «أعراق صافية ودماء نقية»، وكانوا في أبهى اجتماعيتهم وألفتهم الحزبية تحت شعار أطلقه (غيلان ـ أحد شعراء الصعلكة الحديثة) وهو «لا أخلاق لا نقود لا عائلة» فانتهى بالنقود والأخلاق والعائلة والحزبية البيروقراطية كما ورد في الأخبار.

إن هذه الظاهرة التي تختفي وراء السحر الثقافي المأنوس، الجذاب، كانت عاطلة عن الحزبية، وليست رافضة لها، وذلك بسبب طموحات صغيرة جداً، انتهت برميها خارج ضفاف الحزب. لذا فإن خفايا عقدتنها كشفت عن رغبتها في الإنتماء إلى تاريخ المنطقة والتصالح معه الأمر الذي لم تختره فلسفة العبث ولا السوريالية أو الانطباعية وكل حداثات العصر الأوروبي. فكان من جهة تقليداً للتاريخ الأوروبي بوجود مماثلات له في التاريخ العربي. (ولِمَ التعب والتبرير طالما ثقة الخيار الفكري موجودة؟) إذاً ثمة قناع تتستر وراءه محاولات تجديد ثوب الحزبية وتحديث بهائها الخافت.

الكأس، الانحرافات الجنسية، البطالة المطلقة، الاستعلاء «الفريسي» الأجوف، الأزياء البالية، السرقة الدنيئة، إطلاق الشهوة، تخدير الجسد بكل شيء حتى شرب المازوت أو السبيرتو، تصفيف الهلوسة التي لا تبدو أنها فرضت نفسها بل تحققت بإنتقاء وعناية، هي أشبه ما تكون بزجليات سوريالية، وشتى مطرزات الفوضى السحرية. كل ذلك غبّش رؤية السقوط الاجتماعي العادي عن رؤية خيارات العبث الإحتجاجية ضد سلطات الحروب وسلطات الضحية والجلاد

والرغبة في انهيار حضاراتها الوحشية.

أما الفريق الآخر من هؤلاء التراثيين، فوجد في جلجامش والحضارات القديمة ضالته فبرّر الانحراف الجنسي بحب جلجامش لأنكيدو واعتبر هذا، من قدريات الخلق، ثم الحج إلى قبر رامبو وفيرلين.. الخ.. الخ. كل شيء ينطوي على سماجات الإحساس بالذنب والخطيئة والتفتيش عن المقابل السحري في مناطقنا. فكان إرث الخصيان والقنانة الآسيوي الأبيض في عهود الخلافة، مسوغاً للدلالة على الإنحطاط الطبيعي الذي تلبّس الحداثة.. كل هذه المرافعات التي تتقمص الضحية والجلاد.. تشير سماجة البنى العقلية التي ما أن تختار شيئاً مهما كان ظاعناً في دروب الحرية.. سرعان ما تضعه في زنزانتها الشرقية، فتقتل كل بهجة أو دهشة فيه. وهذا بالطبع يكشف في أهم جوانبه عن تلك الأذونات الغربية الأوروبية حول تبني موقف ما حتى لو كان موروثاً أو من التاريخ الذاتي.

ولعل حادثة غاندي الشهيرة حول إخفاء نباتيته في بريطانيا وخجله من ممارستها في العلن إثر ادعاء بعض الهنود من أبناء الذوات بالتظاهر الفظ بالطقوس الأوروبية، واعتبار النباتية ديانة متخلفة، وعجوزاً غير قادرة على معايشة العصر - هي خير مثال. فإن غاندي الذي كان حائراً بين وصايا أمه واحترام ذاته، وبين سحر الحضارة الغربية، أنقذه ذلك المطعم البريطاني الذي يؤمه بعض النباتيين البريطانيين. وهذا ما جعله يمارس نباتيته علنا وقد انكفأ بشرقيته حتى أقصى الضفاف الهندية، ورجع إلى عهود الإنسان الأول النقي من أي اقتحام حضاري خارجي، فكان يمارس الاكتفاء الشخصي بما تصنعه يداه والتقشف وعدم التعامل مع تقنيات الغرب.

كان العبث هو تسوية ثقافية لتبرير رعشات حيوانية وضياعات متصنّعة، وذلك ما لا يليق بالقوة الضميرية العالية لفلسفة العبث التي لا تدعو إلى بهجة حيوانية طبعاً. حيث كانت في أزمنة اليسار الذهبية مرافعة نبويّة عن قهر الحرية وطغيانها في الأفق الإنساني الجليل.

ولكن هذا السارتر كان «إماماً» في المسجد الوجودي وقد استبدل بعروة بن الورد، وأصبحت الوجودية الأوروبية هي «الإخوان الوجوديون» تشبهاً بالإخوان المسلمين وغيرهم. حيث الجميع يجد أذوناته خارج الذات فيأتي لها، برانيّاً، جامحاً. وهكذا هي نوبات الصحوات الدينية المتأخرة التي سجلت صورة رسمها قادة الحروب الصليبية عن الإسلام، فتقمصها بعناية ودقة. وهي صورة تضطر الصليبية إلى خلقها لتبرير «جهادها» من الوجهة الدعائية في ذلك العهد على الأقل.

ولكن ثمة من أعطى هذه الصورة حياتها وحضورها.. فكانت دليلاً على تزكية وإذن خارجي جعلاها مبادهة حية، قدمت الحجة على تصور أسلافه، كذلك بررت تعبئته التاريخية ودورانه التربوي ضد الشرق.

كل ذلك يعطي الانطباع بأن عبثنا كان توأماً لتوائم عديدة، لا يزال كغيره في غير محله، فهو «صحوة» ستزول بعد أن تصاب وتصيب بالملل. فإذا كانت فلسفة العبث هي إحدى شهوات العقل الإنساني، فإن عبثنا هو إحدى تشريعات عودة القرد والديناصور من أقصى المستقبل. □

لا أخلاق
لا نقود
لا عائلة!

صقر أبو فخر
كاتب من فلسطين

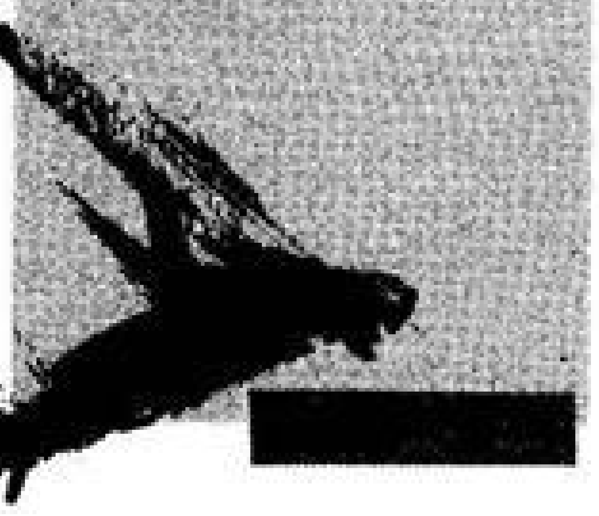
الطفيليون

مناحة الثورة والاستقلال والتقدم والعدالة



أصبح الناس، إلا قليلاً منهم، في بلبلة واضطراب وسوء حال. فالحاكم باغٍ ومستشاره غشاش والكاتب كذاب والخطيب عيّاب والواعظ منافق والسامع مستخف والمواطن لاهٍ. وكان الزمان على وجوه وأحوال فصار على أربع: فأحسن الأزمنة ما اجتمع فيها صلاح الحاكم إلى صلاح الناس. وهذا هتاف البشرية منذ أن نشأ الوعي، لكن حال الحكام لم تصلح ولا حال الأمة. ثم إن هناك زماناً يصلح فيه حال الحاكم ويفسد الناس، وقلما نعثر في التاريخ على مثل هذا الزمان. والزمان الآخر يصلح فيه الناس ويفسد الحاكم، وهذا ممكن لكنه قليل. وشر الأزمان ما نحن فيه: فساد الحاكم وفساد الناس.

ونحتال على ابن المقفع فنقول: لقد أقفرت بلاد العرب من الحرية، فأي صحراء حقيقية هي الآن!



تقدم إلى الخلف

إن نظرة ثاقبة إلى حال الأمة تكشف صورة مضطربة عن الثقافة السائدة حيث معين الإبداع والطرافة قد نضب إلى حد كبير. فالمفكرون العلمانيون ومثقفو اليسار يقيمون الآن مناحة كربلائية عارمة تنعى على الأمة عصر الثورة والاستقلال والوحدة وشعارات التحرر والتقدم والعدالة. إن هذه المناحة تشير إلى نكوص حاد في وعي هؤلاء المثقفين وإلى هشاشة أصالتهم الفكرية؛ فالأصالة الفكرية تحتاج، أولاً وقبل أي شيء، إلى الشجاعة النقدية والثبات وربما التضحية.

وخلال المئة سنة الماضية كانت بوصلة الفكر السياسي تتجه صعوداً من التنوير إلى الثورة. وها هي اليوم، بعد الخيبات المتلاحقة والهزائم المتكررة، تخلّف الثورة وتتراجع منحدرة نحو التنوير. وها هم المثقفون العلمانيون واليساريون ينتقلون من التثوير إلى التنوير لأنهم ربما وجدوا في الفكر الليبرالي ملاذاً يقيهم اجتياح الأفكار السلفية. لقد كان هناك جدار بين وعي النخبة ووعي الناس، وصار اليوم سداً كبيراً. فالنخبة التي روّجت الحداثة وقدمتها في إطار من الايديولوجية المغلقة لم تتمكن من أن تحفر عميقاً في وعي الناس إنجيل عصرها. أما الناس فعاشوا «الحداثة» في سياقها الاستهلاكي، أي من خلال الإنتاج السلعي، الأميركي والأوروبي، من غير أي انتماء فكري حقيقي، وفي الوقت عينه من غير أية دفاعات حضارية. فانشطر وعيها وجنحت إلى الأصولية بدلاً من الأصالة. وعندما حاولت الدفاع عن وعيها الراكد، الديني أساساً، إزاء فضلات «الحداثة» الوافدة، لم تجد غير الفقه الديني لتستند إليه. وصارت العودة إلى الأصل نوعاً من الدفاع الذاتي، مثلما صار الاقتداء بالسلف فاتحة السلوك اليومي. وليس من المستغرب أن يكون رجال «جماعة البلاليين»، حتى في الولايات المتحدة نفسها، لا يأكلون إلا بأيديهم ولا يركبون إلا البغال ولا يتغوطون إلا في الخلاء اقتداء بالرسول العربي!

هؤلاء أصحاب الثقافة المغلقة، والمنغلقة على ذاتها، لا همَّ فكرياً يشغلهم ولا مشاكل تاريخية أو حضارية تواجههم، ولا يؤرقهم قلق الأسئلة ولا عذاب البحث عن الأجوبة. فهم يؤمنون بثقافة أصلية ونهائية اكتمل سياقها منذ زمن بعيد حيث لا أسئلة فيها ولا ظنون ولا شبهات. وليس أمام الناس، في رأيهم، إلا الاجتهاد في التفاصيل التي لا تمس الأصول والتي تدخل، أساساً، في باب الحلال والحرام وتطبيقها على الحياة اليومية. وهؤلاء يرون في الثقافات الأخرى مجالاً للريبة والشك والتغريب والبطلان، حيث لا حقيقة إلا التي يعتنقونها، وهم حراس هذه الحقيقة. لذلك كان منهجهم التصديق والتسليم لا الشك والنظر. وهم يتلقون ثقافتهم سماعاً وشفاهاً، والإطار الفكري الذي تدور ثقافتهم في داخله يعود في جذوره إلى الماضي ولا يعانق المستقبل. أما العقل عندهم فبدعة.

الطفيلي

الكتّاب والشعراء والشيوخ والكهنة هم، في الأساس، كائنات طفيلية تعيش على هامش الإنتاج والفئات المنتجة، وتكسب عيشها من اتصالها بخدمة فئة تملك الحاضر (الدولة) أو من ارتباطها بجماعة تملك المستقبل (المعارضة).

وكان المثقف على مر العصور، عدا القليل، كاتب الحاكم وشاعر السلطان، يأكل من عيشه ويضرب بسيفه. «يأكل عند معاوية لقِدره ويصلي وراء عليّ لقَدره». أما ولاؤه فلم يكن للسلطان بل للسلطة. لذلك لم يتحرج يوماً من تقبيل نعال الحاكم الجديد بعد أن داس بها هامة الحاكم القديم.

وأمثال هؤلاء من ذوي الأقلام التهليلية وباعة سلعة الثقافة صاروا قادة الرأي في هذه الدولة أو تلك، فلا عجب إن صارت صورة الثقافة العربية، في حالتها الراهنة، خليطاً من أنصاف الأفكار ينتجها أنصاف متعلمين وفيها من الإدعاء أكثر مما فيها من العمق والجدية، وفيها من الابتذال والسطحية ما يفوق ابتذال بعض الأمراء العرب في حانات أوروبا وعند أقدام حسناواتها.

وإذا كان في كل مجتمع قدوة سيئة، فإن القدوة السيئة في مجتمعنا هم فئة المثقفين هؤلاء الذين وضعوا عقولهم في أرجلهم، تماماً مثلما حدث سنة ١٩٨٢ عندما اجتاحت إسرائيل لبنان، فذهب معظم «شعراء الجنوب» و«شعراء المقاومة» إلى الجنوب اللبناني لا ليقاتلوا العدو، بل ليهربوا من حصار بيروت، ولكي ينعموا بالأمان الذي وفره لهم احتلال العدو الإسرائيلي القرى اللبنانية بعدما انسحب منها المقاتلون.

خدعة جذابة

الصفحات الأدبية في الجرائد اليومية أفقدتنا حب الأدب. والمقالات النقدية في المجلات الأسبوعية لا تملك من النقد سوى اسمه. إنها خدعة فظة، لكنها جذابة، مثلها مثل «حظك اليوم» و«صحن اليوم» و«التقرير الأمني لهذا اليوم» التي يتهافت على قراءتها ذوو المعارف السطحية والساذجة.

ثوريون حفظوا الافكار ثم حنطوها فدفنوها!

ومعظم المجلات العربية لا تبشر إلا بما تبشر به الإذاعات العربية. ومهمتها الترويج لمجموعة من الخرافات والأوهام عن «الحرية» في ذلك البلد العربي السعيد، وعن «التقدم» في بلاد ذلك الأمير العنيد، وعن أخبار آخر سباق لذلك البعير الجديد.

والنقاد الكبار في تلك الصحف الكبيرة أكذوبة كبرى. فهم يستخدمون أسلوباً لغوياً معقداً خالياً من أي مضمون، ومصطلحات بائسة ومفتعلة لإيهام مَن ينطلي عليه الوهم.. إنها عدة الاحتيال التقليدية. والباحثون الكبار ما زالوا، كما كانوا، يواصلون بحوثهم وتفتيشهم عن المزيد من الدلائل. وسوف يستمرون في لهاثهم إلى ما لانهاية ومن أجل لا شيء.

والمثقفون العرب حينما يتفلسفون يُصرّون دوماً على تعليمنا نقد الحياة. ولمزيد من الغرابة يتشبثون بتلقيننا حقائق الواقع وقيوده. والحال أن المطلوب والمرغوب فيه ليس نقد الحياة بل التمتع بها. وليست معرفة الواقع وتفسيره، بل تغييره بجميع أنواع الأسئلة والأسلحة.

الرعية على أربع!

الحاكم العربي هو وحده الحر في عالمنا السعيد، تماماً مثلما كان السلطان وحده السيد في تاريخنا العربي الجميل. أما الرعية في اللغة العربية فلا تعني شيئاً إلا الماشية(أي التي تمشي على أربع). لذلك أرسل سليمان بن عبد الملك إلى صاحب الخراج في مصر يأمره: «إحلب الضرع فإن انقطع فاحلب الدم». أما زياد ابن أبيه فقد تكرم على رعيته بموعظة قال فيها: «نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ولنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا». أما أبو بكر الطرطوشي فقد نصح «ماشية العرب» في سراجه: «إذا جار السلطان فعليك بالصبر وعليه الوزر». وقديماً قيل: «الناس بلا سائس كالغنم بلا راع». وهذا يعني أنه حتى في وجود الراعي فالناس ليسوا إلا غنماً.

أمام هذا الهوان نعلن أننا على مسلك الخوارج عندما خرجوا لا عندما أناخوا. فعندهم أن القيام على إمام الجور واجب إذا بلغ عدد المنكرين أربعين رجلاً، ويُسمون هذا «حد الشراء»، أي الحد الذي يشتري عنده المؤمنون نعيم الجنة بفساد الدنيا. ولا يحل عندهم القعود غير ثائرين إلا إذا نقص العدد عن ثلاثة رجال. وإذا وصل إلى هذا الحد جاز لهم القعود وكتمان العقيدة. ويُسمى ذلك «مسلك الكتمان».

إن دولة الحاكم، سواء أكانت حديثة أم قديمة، التي تجبر الأفراد والمجتمع على الكف عن محاولة التجدد، والتي تلغي بقيودها أي إمكان أمام شعبها في المغامرة المستقبلية، تجعل من إزالة هذه الدولة المغامرة الوحيدة الممكنة.

لذلك لا تحتاج مجتمعاتنا إلى رهبان ينثرون المواعظ، ولا شيوخ يقصفوننا بالخطب، ولا مفكرين يعيدون إنتاج أفكار أكل الدهر عليها وشرب ثم بال، بل إلى فتية يمتشقون السيوف.

السلطان العربي ساحر رشيق وحاذق بلا شك. فهو يسحب من جعبته، ساعة يشاء، ما يشاء من الآراء والأفكار والنظريات. أما الحضور فهم، كالبدوي الأبله، مندهشون ذاهلون لاهون. فالبارحة استخرج ذاك السلطان من عمامته غولاً يعتمر خوذة ويحتذي «جزمة» وعلى صدره نياشين كسبها في معارك لم تقع، وقدمه إلى الناس منقذاً ومخلصاً وحامياً وهادياً وبشيراً. ولما اعتدلت الأحوال عاد السلطان عينه ليستخرج من عباءته ثعلباً أسماه «الديموقراطية الشعبية» فذاق الناس من هولها مر العيش ومرارة الهوان. واليوم يبادر السلطان نفسه وبنفسه إلى استخراج أرنب «الديموقراطية» من تحت جبته.

فماذا ينتظرنا بعد هذا الصبر؟

لم تبقَ إلا الكرامة لنخسرها.

فزاعة المعارضة

الحكام العرب اليوم هم زعماؤنا وأحباؤنا وتيجان رؤوسنا. وهم آباؤنا الروحيون وقادتنا الفكريون ومصادر إلهامنا وإبداعنا. إننا لا نسخر إذا قلنا إنهم يخدمون المستقبل أكثر بكثير من آلاف الكتاب والبيانات والمنشورات التي تدعو إلى الحرية والعدالة والتقدم، وأكثر بكثير من عشرات القادة النابهين الذين كانوا يحرضون على التمرد والتغيير ويدعون صبحَ مساء وليلَ نهار إلى الثورة والثروة في آن. فهؤلاء الحكام والقادة، بالقمع اليومي المتجدد وبالمصادرة الدائمة للحريات والأفكار، يدفعون الآلاف من الشبان العرب المقموعين إلى البحث عن الحرية أكثر مما تفعل الصحافة المعارضة والقادة «المناوئون» ممن كانوا، إلى فترة قصيرة، يزعمون أنهم مستقبليون وتقدميون وثوريون وغير ذلك من الأفكار التي حفظوها ثم حنطوها ثم دفنوها.

الحكام العرب اليوم يهرِّبون الناس إلى المعارضة. والمعارضة الحالية تهرِّب الناس من الشقاء الفعلي إلى السعادة الوهمية.

الحكام العرب اليوم مشهورون جداً. أما قادة المستقبل فهم مجهولون تماماً. غير أنهم موجودون بيننا، وهم يمرحون الآن في

مؤسسات تعلم الفرد كيف يكون فرحاً ساعة يكون زميله حزيناً

دور الحضانة والروضات، وأعمار الصغار لا تتجاوز السنوات الثلاث. ودور الحضانة هذه تحتوي، حالياً، آلاف المناوئين الكامنين الذين لن يحتملوا أبداً وصايا السلطات الحاكمة وأناجيل تحكمها وآيات سيطرتها التي ما انفكت تجثم فوق رؤوسهم ورؤوس آبائهم كالعمائم التركية والفارسية الملتفة على نفسها كثعبان هندي.

إن أجمل اللحظات لدى التلاميذ هي لحظة يسمعون فيها رنين الجرس يعلن انتهاء الدروس. إنهم يتعودون، بفرح، مناوأة الامتثال المدرسي، وممانعة روح المنافسة التي تشيع بينهم، ومواجهة إصرار الأهل على التفوق الدائم. ذلك لأن المدرسة كمؤسسة اجتماعية، مثلها مثل المؤسسات الانضباطية الأخرى، تعلّم الفرد كيف يكون فرحاً عندما يكون زميله حزيناً.

إن لسان حال التلاميذ والطلبة لا ينفك يردد: «ما فائدة الشهادات؟ فليطبع كل إنسان شهادته بنفسه». أما شعارهم فهو: «لتسقط جريمة تزوير الشهادات من القوانين».

لم يسقط مصطلح «الثورة» في معمعان الثورة نفسها، بل أسقطه «الثوريون» أولاً ثم الإعلان. كان يكفي أن يعتلي أحد الكُتاب أو الشعراء الثوريين منبراً حتى يتوهم أنه يمتطي صدر راكيل ولش، فينتقم من اليهود والصهيونية ناثراً عبارات لا طعم لها سوى طعم الشظايا ومفردات لا نغم فيها إلا ما يشبه أنغام الأناشيد العسكرية في الإذاعات العربية.

إن آلية الإعلان السائدة فرضت مؤشرات قطيعة على أسماعنا وأبصارنا، وطاولت في الصميم وجداننا فشوّهت عقلنا وذوقنا وإدراكنا وخياراتنا. وهذه الآلية كالشيطان عند الأنبياء تزين للفرد كل ما هو قبيح، وتقبح بعض ما هو جاد؛ تخطفه من واقع الحس إلى متاهة بلا إحساس؛ تشل وعيه النقدي لتطلق فيه وعياً زائفاً؛ تضيّق مساحة الرؤية لتوسع مساحات للدعاية.

لقد روج الاستهلاك السفيه الكثير من الإعلانات المماثلة. فصارت هناك «ثورة في عالم الصابون» و«ثورة في عالم الأزياء» وأخرى في عالم الصداري و«ثورة في فن التقبيل».

لذلك نقترح استبدال كلمة «فتنة» بكلمة «الثورة». فالثورة أنثى الثور ـ على حد تعبير الشاعر القتيل كمال ناصر ـ وهي، بهذا الاشتقاق، عبارة قبيحة الشكل والمضمون. أما كلمة «فتنة» فتحمل معها بُعداً جمالياً خلاباً. فبدلاً من أن نقول عن فلان إنه «ثوري» ندعوه «فاتناً»، والمؤنث «فاتنة» أو «فاتن» إذ يستوى التذكير والتأنيث. وبدلاً من «الثوريين» و«الثوار» و«الثائرين» نخفف على اللغة فنستعمل كلمة واحدة فقط هي: «فاتنون». وبدلاً من عبارة «تثوير العقل» على سبيل المثال نقول: «افتتان العقل»، و«افتتنت الجماهير» بدلاً من ثارت.

إننا حقاً نحتاج إلى جيش من مثيري الفتن.

علبة الأمان

المدينة في العالم المعاصر سجن الروح. والاغتراب مشكلة مدينية بامتياز. فالفرد فيها يعمل الوقت كله مع أفراد لم يعرفهم سابقاً، وربما لا يريد أن يتعرف إليهم لاحقاً، ثم يعود إلى بيته لينام وسط جيران ليسوا أصدقاءه ولم تتح له فرصة التعرف إليهم. إنه فرد منفرد في وسط مزدحم.

والمدينة سلسلة طويلة من المباني والحيطان والمخازن والأبواب واللافتات. والتحدث إلى الناس من غير معرفة شيء يثير الاستهجان. والناس يتحركون بسرعة وفي جميع الاتجاهات من غير أن يتحادثوا، ومن غير أن ينظروا إلى أي شيء، فكأن خطواتهم معدودة وطريقهم معهودة والخاتمة معروفة. إنهم كالرمل تحسبهم جميعاً وهم فرادى، أو كالحصى في علبة تظنهم ملتصقين وهم بلا ملاط.





والسيارة، وهي علامة من علامات المدينة، ليست وسيلة للراحة والنقل فقط، بل هي علبة من الصفيح تنقل الناس من العلبة التي ينامون فيها ليلاً إلى العلبة التي يعملون فيها نهاراً، ثم تعيدهم إلى العلبة التي سينامون فيها مجدداً. وهكذا حتى ينتقلوا بعلبة أخرى خشبية هذه المرة، إلى آخر علبة في رحلة حياتهم.

لقد شُقت شوارع المدن ثم عُبّدت لا من أجل الناس وراحتهم بل من أجل المال. لذا لا يحق للأفراد أن يجلسوا في مقاهي الأرصفة من غير أن يطلبوا شيئاً. وفي بعض مدن العالم لا يُسمح بقراءة المجلات والجرائد المعروضة في الواجهات: عليك أن تشتري أو أن تواصل سيرك. والذي لا يملك نقوداً يعتبر متشرداً. وفي مدن أخرى يعتبر الوقوف في الشوارع والتحدث إلى أكثر من شخص في منزلة التجمهر غير المشروع يوجب العقاب.

غير أن المدينة وهي تعلب الروح والجسد معاً، تفتح نوافذ للحس والفكر والارتقاء في آن. □

العقل

جمال الدين الخضور
كاتب من سورية

تعلن سطوة العتمة نشوتها حين نبتهج بهزائمنا، ونتقوقع في نقطة الزمان الثابتة، تاركين المكان والجغرافيا يعلنان انزلاقهما من تحت أقدامنا، ونحن نرفع بيارق الذّلّ على الشاهقات من مشانقنا والدانيات من مقاصلنا. فالعتمة تغلق الفكر، حتى بفعالياته الأولية المنوطة بأي إنسان يطمح للتنفس كحدٍّ أقصى، ليس أكثر. وسطوة الظلام تبتلع الشوارع والورق والأقلام والنيازك. ونحن نجثم في مقابرنا الاختيارية مبتهجين بشاهداتها الصامتة، فخورين بما يعتلي مرايا زماننا من غبار الرحيل الأبديّ، صموتين أكثر من الصمت، وتلك السطوة تعدُّ مهرجانات مجازرها لكل عقلٍ حيٍّ وحيويٍّ يحاول الكشف عمّا يعتلي أدمغتنا من ركامٍ وحطام يشمخ بعُرينا وتفتتنا، نحن الذين نملك من الندى والحزن ما يسلح مجرّات الكونْ.



المقلوب
عن السقوط في برميل النفط

وإذا كان الصراع مفتوحاً، وعلى امتداد تعرّجات التاريخ بين الجميل والخمول، بين الإبداع والتكلّس، بين النبض والموت، بين الحرية والزنزانة، بين الظلام والضوء، بين الأقدام والدروب المغلقة... فإنّه لم يشهد ساحةً مليئةً بالجيف كتلك التي تشهدها ساحات أوطاننا، حيث الاستثمار والنفط والصمت سيد الكلمة والعار، وحيث العتمة المسلّحة بأيديولوجيا التغييب والظلامية بتمثّلاتها السياسية المتعددة ترفع مشانقها معلنةً عن أعراسها في تمزّق الوطن، وقدرتها على اضطهاد وقمع أي فكرة حرّة تهشل خارج الأطر المسبقة الصنع المحدَّدة من قبل بندول الليل. وبالتالي، كانت مناسك الصراع غير متكافئة بين فعاليات الفكر النشيطة، وأدوات قلبها أو تكليسها، بين السببية والجبرية، بين الاستنتاج والاستقراء، والاستدلال، بين الصيرورة والجوهر الثابت، بين السيرورة والكينونة الدائمة السرمدية، بين الاجتهاد وإسقاط الشاهد على الغائب، بين الزمن المتحرك والدائري أو الثابت، بين المعرفي والسياسي، بين تاريخية المخيال وقداسة الذاكرة.

لذلك كان اضطهاد الدكتور نصر حامد أبو زيد من قبل فلاسفة قوانين الاستثمار والأيديولوجية الطفيلية بما بات معروفاً بفضيحة جامعة القاهرة، مظهراً حاداً من مظاهر هذا الصراع. حين يُتّهم مفكر ضليع مبدع بالشرك بالله سبحانه وتعالى وبالكفر والزندقة، لا لشيء، إلّا لأنه يشيل على أكتافه هموم أمته ابتداءً من همّ اللقمة وليس انتهاء بهمّ الكرامة الشخصية والوطنية، من خلال مقاربة فعّالة ومفتوحة المنهج لذاكرتنا الجمعية ومخيالنا الاجتماعي ممثّلين بالتراث.

وليس من الضروري التعريج على مسار القضية من جانبها الإداري، فلقد أضحت معروفة ليس للوسط الثقافي وغير الثقافي في جمهورية مصر العربية، بل ولكافة الهيئات الأكاديمية والجامعية والثقافية في الوطن العربي، بل وتعدَّت ذلك لتصل إلى درجة الفضيحة العالمية كما يسميها الدكتور سيد القمني في مداخلته المعنونة بـ«كشف الخدع فيما جاء به الخطاب الديني من بدع» في العدد الخاص من مجلة «أدب ونقد» ـ مايو ـ ١٩٩٣. رقم ٩٣، صفحة (١٥) حيث يقول: «ويبقى التساؤل: هل أصبحت قبّة الجامعة، قبّة شيخ من ذوي الكرامات ثوى في قبر مبروك، أم قبة كنيسة، أم قبة أحد المساجد، أم قبة معهد علمي عريق تعرض في غفلة أو تغافل مقصود، لتسرب الإرهاب إلى حرمه ليعتدى على أقدس حرماته وهي حرية البحث العلمي وأمانة القرار العلمي؟ الفضيحة عالمية يا سادة يا كرام، ولم تعد مسألة ترقية (أبو زيد) أو حتى فصله، فالقضية الآن أكبر من ترقية أستاذ، إنها منطق الارهاب والتكفير واضطهاد الفكر الآخر، وإذا كان هذا قد حدث مع نصر وهو مسلم، فكيف به لو كان مسيحياً؟».

وفي العدد نفسه وبمداخلته المعنونة «مستويات النص القرآني» (ص ٢١)، يكتب الدكتور حسن حنفي، أستاذ ورئيس قسم الفلسفة ـ كلية الآداب جامعة القاهرة: «وفي البحث العلمي لا يمكن دراسة المستويات الثلاثة الأولى لأنها خارجة عن نطاق التحليل. وتدخل المستويات الثلاثة الأخيرة فقط لأنها نصوص شفاهية أو مدوَّنة باللغة العربية مقروءة ومسموعة ومفهومة. النص البشري وحده موضوع الدراسة، مقروء ومسموع، مفهوم ومؤول. هذا حكم واقع، والحكم بغير ذلك مزايدة في الدين وتملق لأذواق العامة وعواطف المتدينين، وخروج على نطاق البحث العلمي الدقيق».

فرق كبير بين الدين والنص الديني

نلاحظ من ذلك ضرورة التمييز بين الدين وبين النص الديني وطرق مقاربته وذلك لكشف الذرائعية التي يتم من خلالها تحويل الأيديولوجي إلى معرفي بحيث تترابط وشائج

بورجوازية طفيلية تزوجت من خطاب ديني فأنجبت جلاداً

المصلحة والتأويل لإنتاج نص ثانٍ، يُعطى من القداسة ما كان للنص الأول يتم فيه تحويل الأيديولوجي الثقافي إلى معرفي ثقافي وهو ما يقوم به الخطاب الديني الذي يعبر عن رؤى واجتهادات بشرية ذات موقع اجتماعي معين مرتبط بمجموعة من المصالح الطبقية أو الاجتماعية. وفي الوقت عينه فإن صاحب الخطاب الديني نفسه ذو تحميل خاص محدد من التراث ـ الذاكرة، ومن فعل الأسطرة والإطلاق والتخييل ـ المخيال الاجتماعي، التي تنعكس بدورها على خطوط ومعاني خطابه، والذي يجيء بحد ذاته دلالات خاصة ذات صفة محددة في معرفة الأيديولوجي.

الحذاء «القومي»!

يقول الدكتور أبو زيد في دراسته المعنونة «إهدار السياق في تأويلات الخطاب الديني» والمنشورة في مجلة «القاهرة» العدد ١٢٢، كانون الثاني ١٩٩٣: «الثقافي يستدعي الاجتماعي، بما هو مؤسس عليه، وإن كان له استقلاله وسياقه وقوانينه المستقلة نسبياً عنه. ونقصد بالسياق الثقافي للنصوص اللغوية كل ما يمثل مرجعية معرفية لإمكان التواصل اللغوي. وبعبارة أخرى إذا كانت اللغة تمثل مجموعة من القوانين المعرفية الاجتماعية بدءاً من المستوى الصوتي وانتهاءً بالمستوى الدلالي فإن هذه القوانين تستمد قدرتها على القيام بوظيفتها من الإطار الثقافي الأوسع».

فإذا كان الثقافي هو مجموعة القيم المادية والروحية الواسمة والناظمة لحياة جماعة ما، فإن هذا الثقافي (علماً أن مجموعة القيم الروحية تمتلك بعضاً من الاستقلالية الحركية، أكثر من المادية ذات الارتباط بالبيئة الاجتماعية النمطية أو التشكيلاتية) يميز في بنائه الثقافي الأيديولوجي، والثقافي المعرفي. أما ما يخص الأيديولوجي فهو يتزحزح حسب حركية الخطاب الحامل له بما يتحدد بمصلحة الشريحة أو الموقع الناطق باسمه، بحيث ينتقل من الأيديولوجي إلى التمثل السياسي الذي يعبر عبر تحريك علاقات النص أو الخطاب وبما يرتبط مع الدلالات الخاصة بما تسمح علاقات الخطاب نفسه مع وعي الجماعة المرتبط بموقفها، عن الطموح التالي للرقي في السلم الشرائحي الاجتماعي. أما في المجتمعات التي تشغل فيها البرجوازية الطفيلية الموقع المحرك بحيث تتحكم بآلية الخطاب الجماهيري (للقاع الشعبي) وبخطاب السلطة السائدة فإن تحميل الأيديولوجي للمكوِّنات السياسية يحمل بعداً مباشراً مرتبطاً بحركية الخطاب الفاعلة مباشرة بالمقطع الزمني المتحرك، بما يحقق أبعاد خطاب الأيديولوجيا السائدة بوجهيها. وهذا ما يفرض بالضرورة الاستناد المتين على خطاب الأيديولوجية الدينية التي تحقق سهولة في الحركة بين المقدس المتمترس في الذاكرة الجمعية والتأويل الأحادي الجانب للنص المتمترس في تعبيره عن المصلحة الاجتماعية للشريحة. وهذا بدوره مرتبط باللغة وتعبيراتها وارتباطاتها مع الواقع ـ الموضوع ومع الفكر. بحيث تنتقل من معانيها القَبْلِيّة إلى البعدية بما تحدده الدلالات بارتباطها الوثيق مع الحاضنة الثقافية الأوسع. وهنا لا يمكن أن نهمل دور التمثل السياسي المعكوس في التأثير على الثقافي الأيديولوجي محدداً عبر المعاني البعدية للدلالات ومن خلال ما هو مرتهن بالمصلحة المرتبطة بالموقع الاجتماعي.

فالفكر المعتمد على الميتوس والمطلق والزمن الثابت لا يمكن أن يعتمد على دلالات متحركة ذات معانٍ بَعْديّة مفتوحة على فعاليات الفكر النشيطة. أي أن الفكر المثبَّط يدفع الواقع إلى اللازمن، فيخرج بحامله خارج التاريخ. أمّا الفكر المعتمد على اللوغوس والمستند على تاريخية النص والواقع والوقائع فهو الذي يفتح اللغة على دلالاتها المتحركة البعدية وبالتالي يدفع الواقع إلى إحداثياته الموضوعية في الزمن المتحرك. ويكون الانتقال في الحالة الثانية كشفاً لاختباء الأيديولوجي خلف يافطة المعرفي التي تمارسها الحالة الأولى، بحيث يشمل هذا الكشف أدوات المقاربة أيضاً والتي وإن تعددت ألوانها، إلّا أنها ما زالت تملك المواصفات نفسها، من حيث امتلاكها للرؤية الأحادية الجانب وإلغاء الطرف الآخر وإن بدا هذا الشيء واضحاً على مختلف المقاربات الأيديولوجية التاريخية إلّا أنه يبقى أكثر وضوحاً على الخطاب الديني. بحيث افتقدت ثقافتنا العربية في المرحلة الماضية القدرة على التشخيص بما يخص التراث أولاً، وبما يشرِّح الواقع الحالي ثانياً. لذلك كانت ملامح الزمن الشاحب حارقة، وكانت معالم الهزيمة الوطنية حادة، وظهر الجلّادون ينتعلون الحذاء «القومي» تارةً، ويعتمرون العمامة أحياناً أخرى. فإذا تزاوجت الرأسمالية الطفيلية مع الخطاب السياسي السائد في موقع ما من هذا الوطن المترامي النفط والصمت والعار كان الجلاد تغريبياً دونياً، وإذا تمّ الزواج بين تلك الطفيليات وحملة راية الخطاب الديني وراء وعيه الزائف كان الجلاد عمامةً، كما حدث للدكتور نصر حامد أبو زيد. بحيث تتقاطع الخطوط الثلاثة (البرجوازية الطفيلية، خطاب أيديولوجية السلطة السائدة والخطاب الديني) في نقاط تمركز ذات حركية واسعة للعلاقة فيما بينها، بحيث قد تتداخل خطوط طرفيها أو الأطراف الثلاثة لدرجة الاندماج والتماهي. وذلك بهدف إتمام مهرجان مجازر الخطاب الوطني الذي يتعامل مع الواقع بمنهجية مفتوحة علمانية قادرة على تحديد مقدمات الخطاب الأولي، الذي يحقق

مثقفون تطوعوا لحملة تشكيك بحراسة البترودولار

نقاط استناد الحد الأدنى لمشروع نهضوي عربي على عموم الساحة العربية.

لذلك نرى من الضروري العودة إلى التشخيص الأولي إلى حركية الأيديولوجي الثقافي والأيديولوجي المعرَّف بتمثلاته السياسية وعلاقة كل منها بمكوِّنات المخيال الاجتماعي والذاكرة الجمعية. بحيث تلجأ الكتلة الاجتماعية العربية وفي واقع الهزيمة الساحقة المعاشة حالياً إلى تقديم مكونات ميتية في المخيال عملقتها بحيث ينتقل من خلالها الثانوي ليصبح أساسياً، بعد أن يغيّب هذا الأخير. وهذه أهم نقطة يستند إليها الخطاب الديني الاستشاري المعاصر. فهي تحدد المقدس خارج الواقع والوطن وخارج الزمان وتمنع الجماهير الراكضة خلف لقمتها وكرامتها المهانة والمنتهكة ضد من يحاول الاقتراب منها عن طريق الاتهام بالزندقة والكفر والارتداد. لأنها تحمل خطابها القادر على تحويل التمثل السياسي إلى أيديلولوجي ثقافي وتحويل هذا الأخير إلى معرفي يحمل في طياته اتفاق الكتلة عليه في اللحظة التاريخية المعطاة. يقول الدكتور نصر حامد أبو زيد في دراسته المنوّه بها أعلاه: «ومن الضروري هنا التفرقة في الثقافي بين المعرفي والأيديولوجي، حيث يمثل المعرفي مستوى الاتفاق العام، مستوى الحقائق اليقينية في الثقافة المعنية في مرحلة تاريخية محددة... المعرفي بالمعنى الثقافي إذاً هو الوعي الاجتماعي العام، بصرف النظر عن اختلاف الجماعات الناتج عن اختلاف الجماعات الناتج عن اختلاف المواقع الاجتماعية، في حين أن الأيديولوجي هو وعي الجماعات المرتهن بمصالحها في تعارضها مع مصالح جماعات أخرى في المجتمع».

العقل المقلوب

يدفعنا ما سبق إلى التأكيد على أن اللغة سيرورة إشارية اجتماعية تاريخية مرتبطة بالواقع عبر حركيته الزمانية ومرتبطة بالفكر عبر تنشيط فعالياته، وتحمل عبر منظومتها الخطاب أو الأثر أو القول أو النص الذي يحمل التمثل الأيديولوجي للثقافي أو للسياسي أو الثقافي المعرفي وذلك عبر مكوِّنات تاريخية محددة تعطي للنص أبعاد إحداثياته لحظة إنتاجه وفي الوقت نفسه تحدد إحداثيات التلقي. وما دامت الحياة متحركة وللمجتمعات صيروراتها الوطنية المتصاعدة، فإن هذه الإحداثيات غير متطابقة بحيث تختلف تاريخية إنتاج النص عن تاريخية تلقيه وهذا الأخير يسميه الدكتور أبو زيد سياق القراءة. وهما مرتبطان طبعاً بحركية الأزمنة الاجتماعية والثقافية، فلا يمكن أن نقارب نصاً إلاّ من خلال زمن إنتاجه الثقافي الاجتماعي، ونربطه وفي الوقت نفسه بزمن التلقي الثقافي والاجتماعي أيضاً وإلاّ سنسحب النص شعاعياً (بالمفهوم الرياضي) إلى واقع مختلف عن الواقع الذي أنتجه أو سنسحب أنفسنا إلى واقع كان معاشاً منذ مئات السنين يختلف بكل جوانبه وسماته البنائية عن واقعنا الراهن في المقطع الزمني المعاش الآن. وحتى نعيد تحديد تاريخية تحويل التمثل السياسي والأيديولوجي إلى معرفي لا بد من التأكيد على أن ذلك لم يكن معزولاً عن تحويل أدوات الفكر وقلبها وفي الوقت نفسه الذي قُلِبَتْ فيه منظومة العقل بحيث يصبح قدماه إلى الأعلى ورأسه إلى الأسفل. فتحويل أدوات الفكر يعني استبدال مناهج المقاربة المفهومية بحدها الأدنى وما يتلو ذلك من قلب لمرتكزات فعالياتها. بحيث لم تهدر سياقات النص فقط ـ بتعبير الدكتور نصر حامد أبو زيد ـ بل روفق ذلك بإلغاء مقومات الشرف الوطني البسيطة، بحيث يتحول الزمن إلى لا زمن ويلقي معه بالوطن كجغرافيا وكأمة خارج التاريخ وخارج الكرة الأرضية. وهذا ما يحدد من جانب آخر وجود العشرات من أمثال عبد الصبور شاهين ولكنهم كانوا قد طرحوا أنفسهم في الصف النقيض تاريخياً لعبد الصبور شاهين ليستيقظوا على أجسادهم عارية تماماً من جلودهم ومن انتمائهم. وقبل الانتقال إلى إيراد حيثيات ما حدث لدى البعض من قدرتهم على استئصال انتمائهم لا بد وأن أقول بأن ما تبقى من أمتنا العربية من شرف وطني لن يكون فخوراً بانتماء هؤلاء إلى

العروبة ـ مهما بلغت سطوة هذا الزمن المغبر وعتمته القاسية فالصاعدون قاب أحلامهم المتساقطة لم يبادوا بعد وما زال فيهم نبض نزوع إلى حرية انتماء هذه الأمة إلى حضارة قادمة لا ريب.

يقول الشاعر «الكبير» سعدي يوسف في مجلة «الناقد» ـ العدد الواحد والستون ـ تموز ١٩٩٣ وفي مونولوغه المسجل بواسطة الزميلين يحيى جابر ويوسف بزي ـ وفي الصفحة ٢٤ من العدد المذكور وبالحرف الواحد:

* «إن فكرة الهلال الخصيب إذا أُبعدت عن التاريخ العربي، وأُعيدت إلى الرومان والاغريق تكتسب معنى وأصالة».

* «نحن العرب لم نفعل في الهلال الخصيب سوى التدمير، حضارياً، وسياسياً. فالفكرة إذاً ينبغي أن يجري الحديث عنها في سياق تطور مختلف، بعيداً عن أطروحة القومية العربية».

* «قبل دخول العرب إلى بلاد ما بين النهرين، كانت هذه البلاد ملتقى حضارات وأديان. الاغريق لهم مكان والزرادشتية لها معابد. وإلى زمن قريب كان القداس في الكنائس يقام باللغة اليونانية».

هذا هو العقل المقلوب، الفصاميّ، الذي ما يكاد ينهي مقولته حتى يملأ نفسك بالاشمئزاز والحزن والقحط. فهو سفيه لدرجة تشويه التاريخ. ووقح لدرجة لا يمكن لك إلّا أن تتحسّس نبضك محاولاً التأكد من أنك حي فعلاً لم تأخذك السكتة الدماغية وأنت ترى زمن النفط والسطار الأميركي يستأصل تاريخك ووجودك وشرفك تماماً كما فعل بنخيل الهلال الخصيب. فهذا العقل الذي يكشف محتواه في زمن النخاسة ليس فقط غير قارىء للتاريخ، بل هو جاهل بمقدمات الانتماء التي يتمتع بها الأسكيمو والأبوريجيون وبعض مظاهر الحيوات الجماعية الأخرى.



شاعر الفنادق

وهنا لا بد من العودة إلى ما كتبه الشاعر المذكور في جريدة السفير في مقالات ثلاث نُشرت في نهاية تشرين الثاني من عام ١٩٩٢ وبداية كانون الأول، تحت عنوان «الطريق إلى كردستان» قال عنها المذكور في الأمسية الشعرية التي أقامها المنتدى الثقافي الديموقراطي الفلسطيني بدمشق ضمن «أسبوع الثقافة الوطنية» من ربيع هذا العام ١٩٩٣: «لم تكن (ويقصد سعدي يوسف بذلك المقالات الثلاث المنوَّه بها أعلاه) مع هذا أو ذاك، لأنها انطباعات إنسان شاهد وقائع أمامه وحاول أن ينظر إليها من زاويته الخاصة، لم أسوّق بضاعة لأحد..»، ويبرر بعد ذلك زيارته إلى كردستان بضرورات سيكيولوجية حيث يقول: «وهذه مسألة سيكيولوجية هامة بالنسبة إلي». وفي بداية مقالته المنشورة في «السفير» بتاريخ ١٩٩٢/١١/٢٧ يوزع الشاعر مدن الشمال العراقي في جمهوريته الظافرة فيقول عن السليمانية: «لكني أراها تكاد تكون المدينة الوحيدة في كردستان، بسبب تطورها الحضري البين، وهواء الحياة المفتوح الذي تتميز به الحواجز، وإن كانت أربيل عاصمة إدارية، فإن من حق السليمانية أن تغدو العاصمة الثقافية». عاصمة إدارية وأخرى ثقافية، وجمهورية ومجلس وزراء، وبرلمان ووقفة مظفرة و«أدخل المقر، كأني أدخل بيتي» ويقول في سابق لهذا القول: «الأكراد في صبوة من صبوات التاريخ النادرة، لهم الآن جمهورية، وبرلمان ومجلس وزراء»... «لولا انتفاضة البشر ووقفتهم الظافرة الأخيرة»... سبق وأن بعثنا «بتهانينا الحارة»! لشاعرنا الكبير سعدي يوسف بمجلس وزرائه الذي باركه رعاة البقر والسماكرة ووحوش بوش الأوروبيون وأحفاد السلاطين العثمانيين وكل برابرة العالم. لكنني لم أدرك عن أية انتفاضة تحدث هذا الشاعر الجليل ـ ربما بسبب جهلي ـ هل قصد الانتفاضة التي سحقت الفقراء والأشراف من أبناء شعبنا الكردي، بتعاون وتنسيق لم يشهد لهما التاريخ مثيلاً عندما انقض الأحفاد الانكشاريون وعربات الديناصورات من أمراء الحرب على تلك الصفوف من الفقراء المحاصرين في تضاريس الجبال الصعبة؟ أم أنه قصد الانتفاضة التي هبت في ظروف موضوعية وذاتية غير ملائمة إلّا لشيء واحد هو تقسيم بلاد الرافدين؟ عن أية انتفاضة يتحدث والسماء مغطاة بطائرات الشبح وأنياب بوش والأرض مزروعة برائحة النار والدم؟ وهل ستعيد بساطير المارينز بلاد الرافدين إلى أصالتها التي يدّعيها شاعر الفنادق إذا أُعيدت إلى الرومان والإغريق؟ كم كان مبتهجاً صاحب جائزة عويس إذاً عندما كان ينكسر النخيل!

ورغم مرارة الكتابة حول ذلك/ إلّا مرارة الغبار المستساغة في هذه الحالة/ إلّا أنه لا يتركك في حديثه الخاص بل يستشهد بمقولة سابقة للروائي والأديب العربي المغربي المعروف عبد اللطيف اللعبي. فيشوّه قوله عبر سياق التأويل الذي قصده سعدي يوسف حيث يقول: «الابتسامة في كردستان هي الإيماءة السائدة، وشباب البشمركة ليسوا استثناء. تذكرت عبد اللطيف اللعبي، وأنا أفكر في الراية الحمراء الخافقة في هذه الساحة من ساحات السليمانية، لقد قال لي يوماً ونحن نقلب شؤوننا، في باريس، إن الرايات التي نكست في أوروبا سوف ترتفع في بلداننا. تمنيت لو كان معي عبد اللطيف ليرى عياناً كم كان محقاً، وكم هي عميقة هذه البلاد التي أريد لها

هل ستعيد بساطير المارينز بلاد الرافدين إلى الأصالة التي يدعيها سعدي يوسف؟

أن تتهدم على رؤوس أهلها حجراً حجراً. . . »

عن أي رايات يتحدث وهي ترفع تحت ظلال الحراب الأميركية؟ كيف يفهم ارتفاع الرايات؟ وإذا كان الأديب الكبير عبد اللطيف اللعبي يعي بفهمه المعرفي والثقافي العميق معنى الرد الوطني الديموقراطي في أمبراطورية الفوضى والديناصورات، وخصوصاً الرد المنتظر في أطراف نظام العولمة الأميركي الجديد، لكنه بالتأكيد لم يقصد تلك الأعلام التي ترفع تحت فوهات الدبابات الأميركية. فالعلم الأحمر ذو المنجل والمطرقة (كما يسميه في مقالته الثانية «السفير ٢٧/ ١١/ ١٩٩٢») رفع بحماية دبابات الهمجية الجديدة وأنياب ومخالب رعاة البقر؛ وخلال التأثير بظرف ذات جزئي ليس ذا أهمية تذكر على كل الحركة الزمكانية الموضوعية للظروف الأخرى واشتراطاتها. حتى بالنسبة إلى الأطراف ـ بتسمية المفكر العربي الدكتور سمير أمين ـ في النظام الامبريالي الشمولي الجديد، علينا أن ننتبه إلى الحلقات الهامة والتي لا يمكن أن ننظر إليها على أنها مكون طرفي ينتمي من حيث طوبولوجيته الاستراتيجية إلى العالم الثالث أو الرابع، فهل يمكن أن تكون منطقة الخليج العربي مثلاً بالأهمية نفسها لغانا أو الفيليبين في استراتيجية وحوش البقر؟ وهذ يعني أن الرد الوطني والديموقراطي هو الذي يأتي متناحراً بالضرورة، ومتناقضاً حتماً، مع المشروع الأميركي الغربي. أما الفقاعات الأخرى والتي تشكل حلقات أساسية في البرنامج الغربي الصهيوني للسيطرة على المنطقة فهي جزءٌ من المشروع نفسه. وإلاّ، كيف تسمح أمبراطورية الجهلة برفع تلك الأعلام وقد حاربتها على مدى قرن كامل؟ فهل تدفع الأسباب الخاصة والضرورات السيكولوجية إلى انعدام التوازن، وربط التدمير والخراب التاريخيين بالعرب، وإبعاد فكرة الهلال الخصيب عن التاريخ العربي وإعادتها إلى الرومان والاغريق لتكتسب معنى وأصالة؟ فهل يمكن لسعدي يوسف أن يفسّر للمتلقي المثقف والعادي كيف دمّر العرب بلاد الرافدين حضارياً وسياسياً وعلى امتداد التاريخ؟ وهل يمكن أن يشتت الوحدة الحضارية لمنطقتنا بما يتناسب مع دولاراته الحالية والقادمة جداً بعد آرائه الأخيرة؟

دعس الشعارات!

وبالربط البسيط بين فكر سعدي يوسف هذا وما كتبه سامي النصف في «الأنباء» الكويتية العدد ٦١١٢ ـ ١٤/ أيار ١٩٩٣ تحت عنوان «الأسبوع بستة أيام» نلاحظ كم هي فاجعتنا كبيرة وكم هي مأساتنا مرَّة في هذا الزمن الأصفر الأجرب! فإذا ربط الأول حضارة ما بين النهرين بالرومان والأغريق والزرادشتية فإن هذا الأخير يقول: «وأن القدس بيد من هم أكثر أمانة على تلك الأماكن من أيدي الثورية العربية» ولا حاجة إلى ذكر ما نشره «النصف» فقد درّ عليه المفكر الوطني الجريء الدكتور فيصل دراج في مجلة «الهدف» الفلسطينية العدد ١١٥٢ تاريخ ٢٧ حزيران ١٩٩٣.

ويضاف إلى ذلك ما يتابعه صالح الشايجي في جريدة الأنباء نفسها حيث يقول: «لم يبقَ شرف عربي، ولم يتبقَّ شعار عربي واحد يستحق أن نرفعه (أي الكويتيون)، بل علينا أن ندوس الشعارات العربية كلها بأقدامنا (بأقدام المذكورين)، ولا يحق لأحد بعد اليوم، أن يتفوه مجرد تفوه بهذه الشعارات»!

وأخيراً، هل يحتاج هذا الكلام إلى تعليق؟ حول ما فعله زمن الطاعون وانقلاب العقل وفصام الشخصية والسيد الدولار في مثقفنا لقد شعرت بارتباك ما يهزني قبل أن أسجل هذه المقالة لأن ما فيها قد يفهم قدحاً شخصياً. لكن الأسئلة الحرجة المطروحة والتي تحمل في دلالاتها الصريحة ما عجزت آلة الحرب البربرية وعلى مدى عقود مديدة من الزمن عن فعله دفعني إلى الكتابة دفاعاً عن الحد الأدنى من مقدمات انتمائنا الذي بدأ بعض المثقفين ليس بالتشكيك فيه فقط، بل وبانتزاعه عبر التزوير، وخصوصاً أنه يأتي من أصوات وأقلام كانت ذات مواقع مختلفة فما كان من حضرة البترودولار إلاّ أن سخّر سحره وقوته في توظيفها لاجتثاث جذور انتمائنا.

هذا هو زمن الجيف وهي تغطي ما تبقى من حياة، وها هم مثقفو الاستشارات الطفيلية والنفطية، فمن حصارهم واضطهادهم لرمز الفكر الجريء والعلماني الدكتور نصر حامد أبو زيد وحتى تشويههم لانتمائنا وقضايانا الكبيرة، يمدّون سياجاً من المقابر والجثث النتنة يزرعون الصديد في عيونهم ويلوّنون ألسنتهم بالطحالب والسقوط.

هذا جزء من أحوال المثقفين وأسئلة الثقافة، والذي لا بد أن أختمه بمقطع من قصيدة أمل دنقل الشهيرة «لا تصالح»:

لا تصالح
ولو وقفت ضد سيفك كل الشيوخ
والرجال التي ملأتها الشروخ
هؤلاء الذين يحبون طعم الثريد
وامتطاء العبيد
هؤلاء الذين تدلت عمائمهم فوق أعينهم،
وسيوفهم العربية قد نسيت سنوات الشموخ
لا تصالح
فليس سوى أن تريد
أنت فارس هذا الزمان الوحيد
وسواك. . . المسوخ!
لا تصالح
لا تصالح !□



تواقيع للبيع

سيكولوجية «الاهداءات» بين الكتاب والقراء

ابراهيم اليوسف

شاعر من سورية صدر له مؤخراً: «عويل رسول الممالك»

جرت العادة، أن يفكر الكاتب عندنا، فور انتهائه من طباعة أي كتاب، في تخصيص كمية - تقل أو تكثر - من نسخ كتابه هذا، ليقدمها كإهداءات إلى الكتاب والأدباء والنقاد؛ ومسؤولي الصفحات والأقسام الثقافية في الجرائد والمجلات.

وإذا كان لمثل هذا التقليد حسناته، حيث صار في مستطاع المهتم في المؤسسة الإعلامية أو الثقافية الحصول على الكثير من الكتب الصادرة جديداً، وبالمجان؛ في الوقت الذي يتعذر عليه شراء مثل هذه الكتب على نفقته، لأسباب جد كثيرة، أولها الغلاء الفاحش لسعر الكتاب نتيجة الارتفاع الجنوني لأسعار الطباعة وجشع أصحاب دور النشر والتوزيع، فإنه يمكن القول، بأن لهذا التقليد سيئاته أيضاً، حيث بات أنصاف المثقفين والمهتمين والمتابعين للشؤون الثقافية، على موعد يومي مع الكتب التي يقدمها لهم مؤلفوها، مصدرة بعبارات، تدون بحسب طبيعة شخصية صاحب الكتاب، وعلاقته مع المهدى إليه، ومكانته، فهناك من يطري، ويمدح، عبر إهدائه - موظفاً - صحافياً، طارئاً على الثقافة والصحافة، لم يتعلم الدلال والغنج وتلقي الثناء حتى على يدي المرحومة أمه، ويكون مثل هذا الإطراء مشفوعاً عادة بعبارات، أقل ما يقال فيها: أنها كاذبة!!

وهناك من يكتب كذلك عبارات مقتضبة، موجزةً، لمجرد رفع العتب، تحسباً وحرصاً على سمعته واسمه وضميره.

ونتيجة لهذا التقليد، فإن زوادة الصحافي الذي يعمل في أي قسم من الأقسام الثقافية، في جرائدنا ومجلاتنا... بل وفي وسائلنا الإعلامية المسموعة والمرئية أيضاً، تمتلىء في كل يوم، بما هبّ ودبّ من العناوين الجديدة في عالم التأليف والكتابة، بل إننا كثيراً ما نجد أن هناك صحافياً يساوم صاحب الكتاب على أكثر من نسخة...، بعد إغرائه، وإغوائه بتقديم هذه النسخ إلى - نقاد - تحت الطلب.. واستكتابهم، وهذا ما يتم بشكل عملي، حيث لكل منبر... كتبةٌ من هذا الطراز (وإذا شطحت قليلاً هنا؛ فأستطيع القول: إن «أديباً» فاشلاً في أحد منابرنا... يكتب عنه في السنة الواحدة، أكثر مما يكتب عن نجيب محفوظ نفسه خلال عقد كامل).

والمدهش، أنك ترى بعض المحرّرين - الصغار - في جرائدنا ومجلاتنا، يتأفّفون من تراكم الكتب التي تسولوها، أو



اهدني كتاباً والاّ شتمتك!

حصلوا عليها، فملأت أدراج مكاتبهم، مدّعين عدم معرفتهم بأصحابها الذين قدموها إليهم (!!)، رغم المساومات التي يقوم بعضهم بها أثناء اللقاء بهؤلاء من أجل تحصيل المزيد من النسخ. لذلك فإنّ بعض هؤلاء بات يفتخر بأن مكتبته البيتيّة بكتبها الصفراء والمسلفنة، ما هي إلا عبارة عن كتب إهداءات!

وبسببِ شيوع ظاهرةِ الإهداءات، فإنك ترى بعضَهم، ممن يلهثُ ليحصلَ على توقيع المؤلف على نسخةِ كتابه التي يحتفظ بها، بل إن بعضهم ـ مثلاً ـ يحمل في حقيبته نسخاً لـ «عبد الرحمن منيف ـ حنا مينه ـ هاني الراهب ـ نزيه أبو عفش ـ وغيرهم. . وغيرهم». عليها تواقيعهم، وإهداءاتهم التي يتعكزون عليها أنى حلّوا!!

ولقد حدث ذات مرة، أن تقدم أحد الصحافيين المرضى المولعين بجمع كتب الإهداءات، (وهو يزعم كتابة الشعر) من كاتب عربي كبير في أحد «كافتريات» دمشق، وهو كاتب له طقوسه، و«بوزاته»، بعد أن اشترى الكتاب الجديد لهذا الكاتب بكل ما كان يحمله في جيبه، من أجل أن يكتب له إهداءً عليه!!! مشفوعاً بتوقيعه النوراني، بيد أن الكاتب لم يلبِّ له رغبته، ولم يكترث به، ولم يشجعه حتى على إفساد الخلوة عليه!

وما كان من صاحبنا الصحافي إلا أن عاد أدراجه إلى المكتبة التي اشترى منها الكتاب، متوسلاً إرجاعه واستعادة ما دفعه، متوعداً بإعداد مقلب فضائحي لذلك الكاتب الـ . . . في جريدته، رغم أنه كتب عنه سلسلة مقالات مدائحية فيما قبل!!

لمن الإهداءات؟

والإهداءات بدورها صنوف وأشكال، فهناك الإهداء الذي يثبته الكاتب، فيأتي مطبوعاً على الصفحة الأولى ـ من كتابه، أو يسبق به نصاً من نصوصه، وهو غالباً ما يكون موجهاً إلى أمه، أو أبيه، عرفاناً بقدرهما وحسن رعايتهما له!! أو موجهاً إلى صديق ـ كان وراء طباعة كتابه، أو كاتب ذي شأن أضاء له الطريق، أو أنثى ملهمة فجّرت ينابيع موهبته.

بل إنه الآن، وأمام استسهال كثيرين للطباعة والنشر، نجد هناك من يطبع كتابه، من أجل مثل هذا الإهداء إلى هذه الأنثى ذات العينين الاستثنائيتين في تاريخ البشرية، بعد أن أصيب فؤاده بسهام كيوبيد! وهذا ما دعا كثيرين إلى أن يقولوا: إن مثل هذه الكتب، كان يجب ألا يطبع منها أصحابها غير نسخة واحدة كي تهدى إلى أنثى بعينها، وغنجها، ودلالها، حرصاً من هؤلاء الغيورين على الكلمة النظيفة والذوق العام المهدّد بهذا الركام اليومي من المطبوعات. .!!

إن شخصية الكاتب القدير في مجتمعاتنا لهي مهمة جداً، فهناك كثيرون يتباهون بمعرفتهم الشخصية بهذا الكاتب أو ذاك، معتبرين مثل هذه المعرفة مفخرةً وإنجازاً عظيمين.

وطبيعي تماماً، أن نجد في هذا المقام من يفتخر برصيده الكبير، ليس من الشيكات المصرفية، والأموال المودعة في مصارف العالم، وإنما من عدد تواقيع الكتاب الكبار التي يحافظ ويحتفظ بها، على أنها إرث روحي كبير ونادر.

ثمة كتاب كبار، يجدون حقاً أنهم فوق أن يكتبوا عبارات الإهداء المذيلة بتواقيعهم على الكتب التي يقدمونها، حتى لأصدقائهم والمقربين منهم ويمكن أن يشار هنا إلى سليم بركات ـ على سبيل المثال، فهو يرسل كتابه الجديد ـ لأصدقائه ـ بل ولأي شخص يراسله طالباً نسخةً، ولكن مغفلاً من أيّ توقيع، مسوغاً موقفه هذا بأن عادة التواقيع هي من طقوس الكتاب الغربيين، بل إنها بالتالي عادة غير حميدة!

لكتب الإهداءات جناح خاص، في مكتبة أي أديب، أو كاتب، أو مثقف. فكتب الإهداءات أثيرة، ذات مكانة متميزة، ومثلما لها الأولوية في القراءة، فإن لها الأولوية كذلك في الحرص والتقدير. فمقتني هذه الكتب، يحرص عليها، ويصرُّ على عدم التفريط بها، لأنها غير قابلة للتعويض، وهذا ما يؤدي بالطبع إلى امتناعه عن إعارتها.

وإن تشبثه بمثل هذه الكتب، يدعوه بالتأكيد إلى عدم التفكير في بيعها كذلك، واعتبارها ـ إن جاز التعبير ـ بمثابة (الوقف) في الإطار البيتي، وكثيراً ما تعرّض بعض المثقفين لأزمات مالية خانقة اضطروا على إثرها إلى بيع مكتباتهم، بيد أنهم كانوا يتحاشون باستمرار بيع كتب الإهداءات، لأن لها دلالاتٍ نفسية خاصة.

بيد أن الكاتب الكبير، الذي تبحث وسائل الإعلام بنفسها عن أخبار نتاجاته، لا يكترث من جهته بمسألة الإهداءات، ويندر أن يهديها لأحد، لذلك فإن النسخ التي يطلبها مثل هذا الكاتب من دار النشر تكون أقلّ من النسخ التي يطلبها الكاتب الناشىء، وبكثير، فالكاتب الكبير موقن بأن ـ الناقد ـ والمتابع (الصحافي) وسواهما مضطران ضمن آلية عملهما إلى اقتناء كتابه، وبأية وسيلة كانت، بغرض تسليط الأضواء عليه، للتسويق مع إن هذه الكتابة في نظره ـ لا تقدم له شيئاً!!

بل إن غطرسة كثيرين منهم تدفعهم للتفكير في أن المتابع نفسه يكتسب شرفاً عظيماً أثناء قراءة كتبهم.

خفّ بريق الاهداء بعد اختلاط المدعين بالمبدعين

ثمة من يعتقد نفسه، باستمرار، كاتباً كبيراً لا يشق له غبار. لذلك فهو يحاكي في تصرفه أسلوب الكاتب الكبير، وهو إذا قدم إليه أي مؤلف كتابه الجديد، يعتبر أن ذلك المؤلف قد فعل ذلك معه نتيجة لعقدة نقص أمام اسمه الكبير، وأن في رده بالمثل على هذا المؤلف نقيصة كبرى!!

أذكر أن «باحثاً»!! ـ عرف بتوليف كتب ـ يسودها طابع التجميع، لا الإبداع والتحليل، قال لشاعر: أنا أتكبد على كتبي نفقات كثيرة، نتيجة لشراء المراجع، أما أنتم معشر الشعراء فلا تحتاجون إلى مثل ذلك، ولهذا فأنا لا أهدي كتبي إلى أحد (!!!)

وينسى باحثنا الطنّبوري هذا مسألة جوهرية: إن مثل ذلك الشاعر هو مبدع أما هو، فليس له أي شأن!!

كذلك إن مسألة الإهداءات ـ أيضاً قد لحقها التمييع، والتخريب، اللذان لحقا بالجوانب الروحية، والجمالية الأخرى في حياتنا العامة، فالإهداءات كثرت، مع ازدياد عدد الكتب التي تقذفها المطابع يومياً، بل إن بريق الإهداء قد خفت، تماماً، فالأوراق قد اختلطت، لأن المدعين، والمبدعين (يهدون كتبهم على السواء!)، وإن القارىء الحقيقي وكذلك المتحرر للتو من أميته. . . تهدى إليهما الكتب في آن واحد، بل إن كثيراً من أنصاف الأميين، يكتب إليهم بعض الكتبة عبارات متملقة، منافقة، كاذبة، لمجرد كونهم ـ قائمين مهيمنين على الأقسام الثقافية في المنابر!!!

إهداءات للبيع...

ولأن الإهداءات قد تميعت كما أشرت، بل إنها قد أصبحت نوعاً من التجارة والتسول عند بعض المتنفعين منها، فإنك لتجد أحياناً مئات الكتب المهداة وبعناوين ومضامين مختلفة ـ معروضة على الأرصفة، تنتظر من يشتريها، بأقل من الأسعار المدونة على الغلاف!

بالتأكيد، إن هؤلاء الذين يقومون ببيع الكتب المهداة إليهم، أشخاص أصبحوا معروفين جداً، إما بسبب حضورهم الثقافي، أو بسبب هيمنتهم على المؤسسات والمنابر الثقافية، فأصبحت لهم سطواتهم، وأن أسلوب حصولهم على مثل هذه الكتب هو نوع من القرصنة أو الإتاوة «الخوة» في المفهوم العشائري!!

وإن ما يدعو إلى الألم، هو اكتشافك أن هذا الشخص الذي يعرض كتبه على الرصيف، دون أن يحترم مشاعر مؤلفيها، لم يقرأ الكتب التي قُدمت إليه بالمجان، (حيث وجود صفحات كثيرة منها قد ظلت دون قصٍّ، رغم مرور سنوات كثيرة على صدورها وإهدائها).

كثيرون لديهم رغبةٌ عارمةٌ في أن يحصلوا على كتب للشخصيات المعروفة ـ من أعلام؛ وكتاب؛ وقادة معروفين ـ وبإهداءات شخصية منهم، ولكن مثل هذه الإهداءات لا يمكن نيلها بسهولة، لأنها تصطدم بجملة موانع من ناحية هؤلاء الكتاب.

فالقارىء ـ أحياناً ـ يتهيأ له، بأنه يتحتم على الكاتب أن يبادله مشاعر الاحترام، والتقدير، التي يحملها هو من طرفه، وبذلك، فإن على كاتبه، أن يبادره بالتحية، إذا صدف والتقيا، حتى وإن لم يعرفه!! بل وأن يخصّص له نسخة من أي كتاب جديد. وطبيعي أن الكاتب اللاّمع لا يستطيع أن يفعل مثل هذا مع جمهرة قرائه، وهذا ما يؤدي بالتالي إلى سخط عدد غير قليل من غير الأسوياء على كتابهم المفضلين (وهذا موضوع خاص، ربما أقف عنده ذات مرة) بيد أن المهم هنا، هو أن عدم تحقيق تلك الرغبة لبعض القراء ـ غير الأسوياء ـ تدفع عدداً منهم إلى كتابة وتوجيه الإهداءات إلى أنفسهم باسم هذا الكاتب، أو ذاك، محاكين خط يده، وطريقة تعبيره!!

بدأ بعض الناشرين ينتبه إلى رغبة جمهرة كبيرة من القراء في الحصول على تواقيع الكتاب، لذلك فإننا نجدهم يستقدمون كتاباً كباراً (طبعوا لهم بعض كتبهم) إلى حفلات تواقيع خاصة، تقيمها دورهم، من أجل أن يوقع الكتاب الكبار على صفحات بيضاء، من كتبهم، محاكاة لتقليد عالمي في هذا المجال. بالتأكيد إن الناشر لا يتوخى من هذه العملية خدمة مثل هذا التقليد، بل من أجل المزيد من الأرباح. وإن هذا الناشر، لا يفكر في قرارته في مراعاة التقليد المتعارف عليه، في هذا المجال، بل هو يروم المزيد من الأرباح. . . (من لحم أكتاف هذا الكاتب)؛ الذي أوجد هذا التقليد ـ أصلاً ـ من أجل تكريمه.

ويمكنني، أن أذكر هنا ـ سيدة أرستقراطية ـ في إحدى المدن الكبيرة، أقامت في «غاليري خاص بها» حفلة توقيع كتاب لشاعرة ـ ناشئة جداً ـ أجمل ما فيها: ساقاها البيضاوان وردفاها، وأنوثتها الصارخة. فأحرجت الحضور باقتناء ـ ديوان!!! ـ هذه المخلو. . «قة» ـ غير الخنساء، بمن فيهم شاعر كبير مسكين، اضطر تحت الحرج والعرق المتصبب من وجهه ومسامات جلده إلى استدانة المبلغ من شاعر ناشىء كان يرافقه.

وبعد انصرافنا جميعاً، علق صديق مثقف، خفيف الدم، على الموقف المربك بالقول: «إن الأنغام المنبعثة من كاسيت

المسجل الموضوع في إحدى زوايا الصالة كان يضطرنا ـ وبشكل لا شعوري ـ أن نمدّ أيدينا إلى آخر ما تبقى في جيوبنا من أجل شراء كتاب وبسمة وتوقيع!!».

أما صاحبنا الشاعر الكبير ـ الذي بدأ يجفف عرقه، فقد هرع إلى أول محل لبيع الفلافل مررنا بقربه في الشارع ليقدم لصاحبه نسخة (الكتاب) ذي الطباعة الفاخرة مع التوقيع الرقيق، ودون مقابل.

روى لي أحد المثقفين أنه ذات مرة وجد جندياً في إحدى المدن العربية يبيع كتباً نادرة على الرصيف، بأسعار زهيدة، فاقتنى بعضها لقاء ثمن زهيد، ليتفاجأ أن هذه الكتب تعود إلى مكتبة ـ أديب مغمور ـ داهم العسكر بيته.. ومدينته ذات يوم..، بل وإن من بين تلك الكتب المعروضة، بعض كتب الإهداءات.

محرر أجوف، يكتب في إحدى الجرائد اليومية زوايا رديئة جداً، يعرض فيها مجلاتٍ، وكتباً، بطريقة تشبه طريقة عرض أسعار الفجل، والبصل، والبندورة، ويمتدح باستمرار أصدقاءه!؛ وأبناء مدينته، حتى وإن لم تكن لهم علاقة بالإبداع...، دبج ذات مرة مقالة شتائمية في ذم شاعر أصدر ديواناً، لأنه جاء إلى القسم الثقافي في جريدته، ذات يوم، ليتفاجأ بأن ذلك الشاعر قد تجرأ وقدم نسخ إهداءات من ديوانه الجديد إلى زملائه العاملين في القسم، متناسياً إياه!!

من فمك تدان

ذات مرة، تهجم أديب «معروف» على أحد الشعراء الشباب، عبر مقالة نقدية، تناول فيها إحدى مجموعاته الشعرية، مبيناً باختصار: أن هذا الشاب ليس شاعراً!! الأمر الذي أغضب هذا الشاب الذي كان قد تعود على تلقي المدائح والمجاملات، فراح يصور نسخاً من ـ إهداءٍ ـ دوّنه الأديب المذكور على كتاب قدمه إليه، يخاطبه فيه على أنه (شاعر)... ونصف، إما على سبيل المجاملة، أو كزلّة حبر، لا أكثر!

حقاً إن بعض الكتاب الذين يقدمون كتبهم لقرائهم من المهتمين كـ «إهداءات» لا يفرقون بين مبدع حقيقي ومدعٍ لا علاقة له بالإبداع، أثناء كتابة الإهداء، لذلك فإن هذا الضرب من الكتاب يسترخصون ألقاباً كـ: شاعر ـ كاتب ـ قاص ـ إلخ... وينعتون بها أناساً لا يستحقونها، تحت دافع الخجل، أو عدم الإحساس بالمسؤولية!! الأمر الذي يحدو بعدد من هؤلاء القراء إلى تصديق ـ «تطويبات» هؤلاء الكتاب ووضعها كأوسمة ونياشين على صدورهم أينما حلوا!!□

الممحاة العملاقة

القذيفة التي أطاحت بمكتبة التاريخ العربي

سالم الهنداوي

كاتب من ليبيا

مع نهايات هذا القرن، أضحت القوة التكنولوجية في العالم الصناعي هي الفعل الغالب بعد أن أسقطت المعرفة حقها المدني في الثقافة، وبات المثقف يرى بأم عينه مدى فداحة الفراغ الذي خلّفه وراءه جرّاء «الكلام» الذي صار رماداً شفوياً يطير في الهواء كلما سقطت قذيفة هنا أو هناك.

لقد حلّت الشظايا مكان حروف الجرّ العربية. وصارت مدن العالم مجرّد مبانٍ تنتظر تلك الكلمات القوية، ولا تنتظر المواعيد على أبواب مقاهيها وحاناتها ومكتباتها. صارت أشبه بمدن الحلم التي يجمعها الكلام والتاريخ، ثم فجأة تنثرها القذائف أشلاء. تضيع المقاهي بمثقفيها وكذلك الحانات والمكتبات، ولا يبقى سوى الركام والرماد وطائر خرافي شاهد ينثر الرماد بجناحيه الكبيرين. حتى أن تلك الرواية المفجعة لن تجد من يكتبها سوى الريح التي بفعلها المزاجي تكنس ما تبقّى من رماد ومن كتب التاريخ والأشعار والروايات. حتى غليون ذلك المثقف الجميل تدوسه الخيول الجافلة التي أدركت قوة وقع القذيفة قبل أن يدركها المثقّف السرحان في أحلام المقهى الشعبي.

إذا كان المطر الساقط من السماء غيثاً، فما رأي رجال الدين في القنابل الساقطة من السماء، خصوصاً مع المطر في فصل الشتاء؟. ألا تبدو أنها الغيث الأخير الذي يفجّر الينابيع ويحمل المطر القوي يصعد إلى السماء؟

○○○

.. بين المطبعة ومصنع الأسلحة بون شاسع من المفارقات العجيبة. منها أن المطبعة تنتج كتباً وصحفاً للقراءة فقط، وربما للتعايش معها في أحاديث الجمعة وحلقة نقاش المثقفين في المقهى أو المنتدى، والذي يضم أيضاً إلى مجلسه من لم يقرأ وما زال يعتبر أن المعرفة تشكّل خطراً فادحاً يهدّد أمن واستقرار الشارع العربي. وفي النتيجة يدفع «المثقف» ثمن قراءته الواعية، ويدفع «المتلقي» ثمن سماعه غير الواعي.

أما مصنع الأسلحة والذي تدعمه الدولة الرأسمالية بكل سياساتها فإنه يقع في الأمان بعيداً عن مهاترات تلك الأصوات التي تطلقها المطبعة ليل نهار. إنه يقع في الصوت الخفي وراء لعنة أكبر هي الإتجار السريع بالأدمغة التي قد تخرج أيضاً من معاطف تلك المطبعة. فتلك الرصاصة التي تصيب رأس المثقف، هي رصاصة ثمينة. فيها تتخلّص الدولة من كل ذلك الإنتاج الرصين وعلى مدى حقب من المبادلات الثقافية بين الكاتب والمطبوعة والمتلقي.. والسلطة.

إن غاية الرصاصة هي قتل المعرفة التي قد تطرأ في شارع مّا بسبب مطبوعة أخلّت بشروط الدولة. أو بسبب مثقف مّا متسكّع أطاح وهو في أوج انتصاراته برأس حكمة هذه الدولة. ولذلك كان الضحية والمقتول دائماً هو البطل في الروايات والأشعار العربية.

○○○

في ظل المذابح الثقافية المتكرّرة التي يقوم بها غير نظام عربي بين الحين والآخر، يظهر جلياً المعنى العميق للثقافة الخاسرة، أو المعنى العميق لخسارة الثقافة في شارع ما زال





يرزح بين أخبار الحرب والسلام، بين أنباء الحرب وكلام الحب والسلام. ولذلك دفع المواطن العربي كل أعصابه وانهار بجوار قبر التاريخ العربي يستمتع بالأغاني الفاشلة التي عبرت أخيراً عن فشله في أن يكون له دور في مسألة الحرية أولاً، والتي كان دائماً طليعها ورائدها ومصدر دستور دولته.

إن المواطن الواقع بين حزام الشرطي وحزام المثقّف هو مواطن يفتقد حزام الأمان. ثمة موانع وثمة فوالت. فالشرطي يمنعه بدوره من الخروج ليلاً، أما المثقف فيدعوه بدوره أن يتسكّع في المدينة كما يشاء، وأن يقف أخيراً وحيداً في الميدان ويملأ رئتيه بهواء الليل، ويعود بعد ذلك إلى بيته مطمئناً على الحرية التي في صحبته إلى الفراش.

والشرطي أيضاً يمنعه من القراءة العميقة لأنه بذلك سيتعقّب أثره من باب إلى باب حتى باب السجن. أما المثقّف فيدعوه إلى القراءة العميقة كي يقول «لا» في وجه الشرطي..!

○○○

الكثير من المعادلات الموضوعية نلقي بها خلفنا كقشور الموز، وهي المعادلات الموضوعية نفسها التي انزلق عليها جيل بأكمله حفّظناه القرآن وحفّظناه التاريخ وسقط على رأسه بسببنا، لأننا لم نقل له أن القرآن معرفة لا تقودك إلى مسجد القرية، وإنما تقودك إلى اليابان!

ولم نقل له أن التاريخ يحيا بأبطاله الذين لم يسقطوا في التاريخ وإنما كتبوه في الزمن.

إن تلك المعادلات أيضاً أسقطها مصنع الأسلحة الذي مثلما أنتج الرصاصة التي أصابت رأس المثقف، أنتج القذيفة التي أطاحت بمكتبة التاريخ العربي. ذلك أن بعض الغيث السّاقط من السماء - طبعاً ليس المطر - قد يكون هو الغيث الذي جرّدنا حتى من ورق التوت. فبعض ذلك الرصاص نبتلعه طواعية لأنه صار خلاصة أخبار النضال العربي المشترك، الذي أودى بحياة العشرات من المثقّفين العرب إلى الموت. فعندما ينتصر السياسي على الثقافي، يكون الموت الاختياري عند المثقّف كالموت الإجباري.. فبهذا الموت ينتهي كل شيء، وتنتهي المعرفة التي قادت إلى الهزيمة. ينتهي كل شيء وتبقى لحظة الموت هي لحظة الحياة الجديدة بشقائها وعذابها وبؤسها الشديد. الموت هنا يعني إنهاء علاقة فاشلة من أساسها بالآخرين، ولا دخل لرجال الدين في ما اختاره الله!

○○○

.. لقد انتحر القاص الأردني الشاب «تيسير سبّول» لأنه أدرك أن الحياة لم تعد تُطاق. كذلك فعل الشاعر اللبناني «خليل حاوي» أثناء اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية. وبين هاتين الرصاصتين الاختياريتين لمعت الرصاصة الإجبارية في رأس الرسام الفلسطيني «ناجي العلي» الذي لم يكن يدرك أن الحياة لم تعد تُطاق، بل كان يدرك يقيناً أن الحياة دائماً تبدأ كلما كان هناك فعل.

ثمة مثقفون آخرون لم يقتلهم الرصاص، ولكنهم ماتوا وهم يرون الموت ويكتبون تحت تأثير عقاقير النجاة الحامضة، منهم بدر شاكر السيّاب وأمل دنقل ونجيب سرور وغيرهم.. ولكن في المقابل هناك شعراء وكتاب سقطوا وعاشوا مفقودين وقد أعلنوا موتهم الرخيص.

○○○

ربما كانت هناك رموز ثقافية عربية نستعيد أسماءها أحياناً لأنها باقية كالنخل في واحاتها تقاوم المرض والعدوى. ولكن أمام كل هذه الإحباطات والانتكاسات التي نعيشها مع نهايات هذا القرن، فإن تاريخنا قتلنا، وإن أشعارنا قتلتنا، ورواياتنا شرّدتنا.. والمطابع التي أنتجت كتاباتنا خذلتنا. فخلف كل ذلك كانت مصانع الرصاص الخفيّة تترّصدنا وتقتلنا وتعزلنا عن التاريخ وتعزل التاريخ عنّا، وتوقظ فينا وَهْم الثقافة الذي عشناه عمراً مديداً، وخسرناها في الزمن الوجيز.. وسقطنا مثقفين كباراً ومثقفين صغاراً بكتبنا الحقيقية وكتبنا المزوّرة في الحقيقة المرّة.. الحقيقة المتأخرة.. أن لا صوت يعلو صوت الرصاصة القاتلة.

يتراءى لي أحياناً أن شكل الكرة الأرضية بجغرافيتها تشبه رأس مثقّف متعدّد المواهب والاتجاهات. وتأكد لي ذلك عندما تم تصميم الصاروخ النووي القادر على الفتك بهذه الكرة ونثرها أشلاء في الفضاء الفسيح. وكان وجه الشبه واضحاً بين شكل تلك الرصاصة الصغيرة التي ثقبت رأس ناجي العلي، وتلك الرصاصة الكبيرة التي ستثقب الكرة الأرضية بناسها الذين أدركهم خطر المعرفة.



ماذا فعل الشعر لجنوب لبنان؟

لقد سكت الشعر، وانتصرت القذيفة الإسرائيلية!

ماذا فعل أدباء البوسنة والهرسك إزاء مجازر الصرب؟

لقد سقطت سراييفو على رؤوسهم!

ماذا فعل الشاعر الصومالي إزاء غطرسة رامبو بين الأدغال وأعشاش مقديشيو؟

لقد جاع حتى مات!

ماذا فعل الشعراء الجورجيون في مقاهي «سوخومي»؟

لقد سقطت سوخومي بيد الانفصاليين الأبخاز وقصائد مؤجلة في أعقاب «شيفرنادزه».

«فلسطين» أجود أنواع التبغ الإسرائيلي. يدخّنها «إسحق رابين» بارتياح وعلى أنغام الموسيقى العربية.. وشعر المقاومة الفلسطينية صار عابراً في كلام عابر!

لقد سقطت ثقافتنا في الحقيقة المُرّة.. الحقيقة المتأخرة، أن لا صوت يعلو صوت الرصاصة القاتلة!

هل تبدو هذه الحقيقة خارج المستقبل؟!□

طلال أحمد
كاتب من فلسطين



كاتب الوحي

المثقف الفلسطيني كظل لصورة السياسي

في ظروف كالتي تئن تحت وطأتها الثقيلة، الحركة الوطنية الفلسطينية تنشد الأبصار والعقول إلى الجدار الأخير الذي تنعقد المراهنة على ثباته، ونماء دوره وتبلوره، ألا وهو أن تستعيد الثقافة الوطنية اعتبارها كمرشد لحركة البشر، والأشياء، والصراع في اتجاه تحقيق المرتجى من الأهداف بعد أن استعصى تحقيقها على السياسة وأهلها.

فلقد انهزم السياسي بيده وعلى أيدي غيره، حتى تناثرت، أشلاء وعوده، وأدواته وخطاباته، التي ملأت الدنيا، وشغلت الناس لعقود عديدة، فضاع وأضاع هدفه، حتى عثر على حل، وبالكاد يمكن أن يشكل مدخلاً لحل مشاكله، ودون أن يعبأ بما ينجم عن ذلك من تعقيدات لا حصر لها، وكان الشعب بغنى عنها من فرط كثرتها.

نعم، فلقد تخلت النخبة السياسية «الحاكمة» عن أهدافها الأولى، وعجزت معارضتها عن إنقاذ الوطن، وتجديد الأمل، الذي ما كان يقترب أكثر إلا ليغدو أصعب منالاً، لكأنه السراب في صحراء مديدة لا حدود لها، ولا ما يشبهها إلا رحمة الله الواسعة.



المثقف المتمرد مصيره الجوع أو القتل!

إن هـذا الحكم الأولي على السياسي، بقدر ما أنه يعني المشخص في شكليه القديم والراهن، فإنه لا يعني البتة، الوقوع في خطأ الاطلاقية، أو الفصل التعسفي بين المشروع السياسي، والمشروع الثقافي، كما أنه لا يستهدف تقسيم المشروع الواحد إلى ترتيبات لا تخدم الهدف. والهدف هنا معروف، ومحدد، ويمكن تلخيصه بكلمة واحدة، التحرر. هكذا يكون المطلوب مراجعة التجربة السابقة، أي تجربة الثورة الفلسطينية المعاصرة بكليتها ومن كافة جوانبها، حتى يكون العمل مجدياً ونافعاً. وإلى أن يتم ذلك، لا أجد ضرراً من تسليط الضوء على بعض جوانب التجربة، ونقصد هنا الثقافة، بما أنها تشكل موضوعاً أحد أبرز العوامل التي تقرر إلى حد بعيد مدى نجاح أي عمل مجتمعي، يستهدف تحقيق أهداف كبرى.

ولكن، أي جدار هذا الذي نتحدث عنه، وهل يمكن له بما هو عليه وبرؤية سياق تطوره، أن يكون منيعاً، متماسكاً إلى الحد الذي يؤهله لتوليد بصيص أمل في نهارات أشد إظلاماً من لياليها؟ مهما تكن الإجابة، فإنه لا يبدو أمامنا من خيارات سوى أن نعقد الرهان على مشروع ثقافي واضح الحدود كي يكون للحياة معناها، وللفلسطيني ما يحميه من الوقوع في شراك لعنة الانتماء، والهوية، وكره الذات، وتعذيب الضمير والوجود.

عند هذا المقام لا بد من وقفة تأمل أمام واقع حال الثقافة والمثقفين الفلسطينيين. لبلوغ ذلك نصوغ الأمر في سؤالين: الأول، أي دور لعبته الثقافة، ونهض به المثقفون الفلسطينيون خلال مرحلة الثورة الفلسطينية المعاصرة، التي استمرت دون توقف لما يقارب الثلاثين عاماً، ولا يزال البعض يعتبرها قدراً ظليلاً للشعب لن تتوقف إلا بالنصر المبين؟ أما الثاني، أي ثقافة وأي مثقفين يمكن لهم أن يجتازوا من فوق هذا الخراب العظيم، إلى عتبة الاخضرار ليقفوا على شرفة الحياة المزدهرة؟

وإذا كان من البداهة أن لا أتوقف عند علامة الاستفهام التي تستظهر آخر كل من السؤالين، فإنني أعترف بأن القيمة الكبرى عنهما تكمن أساساً، في حالة الجدل، والقلق الدائم والنقد المفتوح والبحث الموضوعي الجاد، الهادف، التي يطلقانها ـ خاصة وأننا نعيش زمن سقوط اليقينيات، وارتباك المفاهيم وزال الكثير مما كان يحرم العقل إمكان التفكير في زواله.

يتقوم فعل الثقافة الوطنية الفلسطينية، خلال المرحلة التي نشير إليها، ويتكثف في إشكالية العلاقة بين الثقافي والسياسي، وهو أمر لم يكن مطروحاً من قبل مثلما هو مطروح اليوم. تكون الاجابة ساذجة وسطحية، إن هي اكتفت بإلقاء المسؤولية على هذا الطرف دون ذاك، أو إن هي تهربت من الملموس إلى المجرد، فتقع في خطاب وعظي قد يفيد في مقام آخر.

تكمن المشكلة في أن ظروف نشوء وتطور الثورة، استولدت وكرست شكلاً من العلاقة، يقوم على تسيد السياسة وتبعية الثقافة، اتخذت في البداية طابعاً توافقياً ما لبث أن أصبح صيغة «قانونية»، اكتسبت ثباتها على الدوام، مع تبلور السلطوي للسياسة.

كان السياسي هو صاحب «المشروع»، هو المقاتل والبندقية، وهو القائد وبيت المال، إنه صاحب المؤسسة يفتحها متى يرى فيها مرآة صقيلة لسلطته، ويضحي بها بدون أدنى مساءلة، هو مالك الجريدة، وصاحب المطبعة، وهو وحده صاحب الوجه الفوتوجنيك ، لا أحد غيره يصمد أمام الإضاءة المبهرة للكاميرات، أو يتحمل أوزار التجهم البروتوكولي الذي كان يستدرجه حينما لا يلاقيه في حله وترحاله.

وكان على الثقافي أن يلتحق بمشروع قوامه الثورة، والتحرر والديموقراطية والبحث عن هوية مفقودة، لذا كان عليه أن لا يدقق في الأمر كثيراً إلا فيما يساعده على تغيير دوره، ووجهته كي يؤمن لنفسه موطىء قدم في مركب الحياة الواعدة. كان على المثقف أن يتخلى عن أحلامه الخاصة مؤقتاً لصالح الوطني العام، إذ سرعان ما سيجد فرصة، لإعادة إنتاجها على نحو مختلف، يؤمن له حياة رغيدة في برج عاجي ما زال يتسامى حتى يبلغ ذروة، لا يمكنه العودة منها إلا مكسوراً محطماً، أو أن يستحيل إلى موظف برتبة مثقف في بلاط السلطة.

وما أن تبلورت «السلطة الفلسطينية» واتخذت لنفسها أشكالاً وتعبيرات محددة حتى باتت بحاجة إلى مؤسسات علمية ثقافية، ومستشارين وكتاب وكتب، وصحف ومجلات، وموظفين في تراتبية يحكمها قانون المنفعة المتبادلة، واتحادات تجمع كل هؤلاء، باعتبارها روافد في نهر الثورة ومدافع أمين عن قيادتها، وسياساتها وشعاراتها. إزاء كل ذلك لم يكن المثقف ليمتلك الحق في إشادة جبهته، بل إنه لا يملك حق التمرد، والنقد بصوت مرتفع فإن فعل يذهب خائباً أو يترك جائعاً، إذا لم يقتل «شهيداً» في مواقع الدفاع عن الثورة والشعب.

وحقيقة الأمر إن النخبة السياسية التي حازت على القيادة، لم تكن تملك مشروعاً متكاملاً واضحاً يقوم على الاستفادة من كل طاقات الشعب الفلسطيني، ولم تكن تعبأ بالعلم والعلماء، ولا ترى لهم موقعاً قيادياً فاعلاً في ثورة تنبع سياستها من فوهة البندقية، ولاحقاً من صناديق المال المتخمة.

توهمت النخبة السياسية القائدة، أنها لست بحاجة إلى



تبرير مشروعها طالما أنه يقوم على الحق التاريخي، وعدالة القضية وجماهير تتوق إلى الحرية فتجاهلت عن قصد أو غير قصد الدور الكبير والأساسي الذي يتوجب على الثقافة أن تنهض به لجهة توكيد هذا الحق، وتجديده وبيان مسوغاته، ومقومات ديمومته، وضرورة تقديمه في كل حين بصياغة تتناسب وروح العصر، وفي مجابهة مشروع آخر عدواني، ظالم امتلك مقومات مهولة مكنته من فرض الإدعاء والكذب وكأنه الحقيقة التي لا يشق لها غبار.

تهزم الثورة بسياسييها ومثقفيها، وتنتهي إلى استسلام ذليل وتسأل أين تقع المسؤولية؟

تدقق في «المشروع» بقليل من التجرد والموضوعية فتعثر على جواب عام يقول بأن الهزيمة كانت ثقافية سياسية فكرية شاملة، فنحن لم نكن نواجه آلة الحرب الصهيونية وأطماعها التوسعية فحسب، بل كنا نواجه مشروعاً تعبوياً كاملاً يحرص على تعبئة كل طاقاته بامتياز عسكرياً وثقافياً، واقتصادياً، وحضارياً، ونفسياً. . . وحين تعوزه الحاجة لا يتورع عن سرقة إمكانات عدوه، فيثمرها، إلى الحد الأقصى. . . تسجل في مقابل ذلك، أننا كنا مقصرين حتى العظم ليس في معرفة ذاتنا، والإمكانات الهائلة التي تختزنها وإنما أيضاً في معرفة الخصم بكل أبعاده.

وإزاء أسئلة كثيرة مطروحة اليوم، ينكشف التقصير الكبير الذي ميز مسيرة الثقافة الفلسطينية، التي سلمت مبكراً راياتها للسياسة، أو أنها أصلاً لم تنجح في تسلم أي من تلك الرايات في أي وقت. هل كان علينا الآن أن نكتشف خلل معادلة السياسة والبندقية؟ وهل كان علينا الآن أن نكتشف العلاقة الصحيحة بين الوطني والقومي العربي؟ وهل كان علينا أن ندفع الثمن باهظاً حتى ندرك أهمية المصالحة والتوافق بين مختلف التيارات الفكرية والسياسية ابتداء من الماركسي ووصولاً إلى الديني المستنير؟ وهل كنا ندرك حقيقة الظروف التي نعمل بين ظهرانيها، والحاجة إلى صياغة أفكارنا وممارساتنا وبرامجنا وفق منظور واقعي ينطلق من الواقع المجتمعي المعين، لنعود إليه ثانية في علاقة تبادلية، دائمة الحركة تستهدف النهوض به، ومن أجل تحقيق أهدافه؟

من يبصر حالنا اليوم يدرك دون تعب أي مشروع كان مشروع الثورة الفلسطينية، وأي دور كان على المثقفين القيام به قبل فوات الأوان، لذلك كان من اليسير على القيادة المتسيدة أن تبدأ تقشفها المالي المزعوم، بإغلاق كافة المؤسسات العلمية والبحثية، وأن تحيل منابرها الثقافية إلى مؤسسات تافهة يقتصر دورها على الإعلان عن حركة القيادة والتغني بإنجازاتها، وتوليف القصائد والروايات الكاذبة عن ثورتها، وزهدها، وإخلاصها، وفي شرح محاسن سياستها، والاجتهاد في ممارسة التضليل على الشعب لتزين مفاسدها. . . من ذلك فقد تكاثرت الصحف، والمجلات، والمنابر، والدوريات، والوكالات وأجهزة البث الإذاعي والتلفزيوني، إلى آخر ما هنالك من وسائل خضعت بغالبيتها الساحقة للمال ومراكزه، ليس في الساحة الفلسطينية فحسب، مما أدى إلى الاستحواذ على أبرز الكتاب والمثقفين من مختلف فروع الإبداع. وبفعل تحولات عديدة، بات من النادر العثور على منبر مستقل تماماً، ومعها تقلصت المساحة التي يمكن أن يبرز من خلالها مثقفون مستقلون مناضلون، غير قابلين للإنكسار أمام الإغراءات المتزايدة التي تقدمها بسخاء صحافة النفط ومنابره المتكاثرة.

وفي مثل هذه المناخات أيضاً، وبفعل التحولات السريعة التي جرت، أخذت الأسماء تعطي مدلولات أخرى فمن يرفع راية الاستقلال لم يعد يقوى على مجابهة استحقاقاته، ولا يرفع اسم الأهرامات إلا كي تعود بمردود أكبر ثمناً لها، والنضال من أجل الوطن أصبح «نضالاً» من أجل إلغاء الوطن وتسهيل إخضاعه لسيطرة الأجنبي، واستحال القبس إلى شعاع رمادي هو إلى السواد أقرب، والأخبار إلى واحد من أحط أنواع الردح.

ولم تنجُ الأحزاب من ذلك فقد أخذتها موجات التجديد الكاذب، فاحتفظت بشعارات براقة أعطتها الممارسات مضامين تتوافق مع روح العصر، وبعضها تخلص من عبء الأسماء والألقاب التي تشي بشبهة التقدمية والثورية، فاستبدلت بها يافطات وكلمات غير مفهومة، لا لتجنب نفسها غضبة إرهاب الغرب الحضاري بل لتندرج في إطاره، وتستمد منه مقومات وجودها. من ذلك فإن العقل العادي، أي البسيط، لم يعد قادراً على الإلمام بحجم التبدلات، مثقفون تعرف أنهم كانوا في هذا الموقع، فتراهم في آخر كما لو أنهم خلقوا له، وأحزاب يشتبه في تاريخها من فرط سرعة تمثلها وهضمها لقيم العصر الجديد، وشعارات كبيرة تفقد بريقها فتسقط كأوراق الخريف، صفراء ذابلة، لا حراك فيها سوى استجابتها السريعة لكل عوامل الجفاف والتيبس.

يقال عن حق، إن الثقافة هي الدرع الأخير، الأكثر صلابة في الذود عن الأمم والشعوب، وهي ذاكرة تراثها وحضارتها ومرآة آمالها، تنهض بالأمة حين تخذلها السياسة، وتبصر طريق التطور حيث تعوزك الرؤيا بسبب قتامة الواقع وبؤسه.

تنظر من حولك مرة أخرى فترى أكذوبة الديموقراطية والتعددية، التي تغنينا بها ردحاً وخلعنا عليها ألقاباً غريبة غير

مألوفة، فالبعض أسماها ديموقراطية البنادق، في حين يطلق عليها آخرون الديموقراطية المستحيلة. تغدو الثقافة الفلسطينية مرآة الواقع الرديء، وبعضاً من الثمار المرة لمسار طويل بطول عمر الثورة الفلسطينية المعاصرة، تماهى فيها الثقافي مع السياسي في أفضل الحالات، والتحق به غالباً، يسوغ له منطقه، وأفكاره وشعاراته، وسلوكياته. ينقسم المثقفون على أنفسهم تماماً كما ينقسم السياسيون، فيكون منهم المدافع المتحمس عن اتفاق غزة ـ أريحا كما لو أنه النصر المبين، ويكون منهم من يلعن الحاضر والتاريخ، والاتفاق، والشهداء الأحياء منهم والأموات.

يمر على الانتفاضة ست سنوات، فلا تشكل مصدر إلهام لبعض كبار المثقفين وتسقط طائرة الرئيس، فلا يبرأ من جراحه إلا وقد قرأ رواية كتبت على عجل وفي سرعة خيالية، أين منها أفضل كتاب التكنولوجيا الغربية الحديثة! ونساء يرفعن على أكتاف القادة، وفي الحضرة القيادية المباركة يستلهمن غث الأفكار فيبدعن في الإنتاج، ويكثرن منه، وتنفق الأموال لترجمة الكتب، فلا تواكب الإبداعات المتدفقة كشلال لا يتوقف من أوساخ مدنية عاثرة الحظ.

وصاحب المتشائل، ينحني، ليتسلم جائزة جلاده، فتكون فعلته حالة ارتقاء حضارية، وبعض لحظات انتصار نادرة فيما يراها آخرون بأنها الاستنقاع بعينه، والسقوط الأخير في هاوية استبدال الهوية، بعد أن غدت الصهيونية حركة تحررية، ربما ندم أن يضيف عبارة أخرى تقول «وتستحق الاحترام والتأييد». لقد انقسم المتشائل إلى نصفين، نصفه المتشائم ذهب مع هويته السابقة، في حين التصق نصفه الآخر المتفائل بهويته الجديدة التي تشهد صعودها بانضمام الكثيرين إليها.

ويبدو أن الأمر طبيعي إلى حد الصدمة، فقد نما وترعرع طيف واسع من جيل المثقفين الفلسطينيين في أحضان الثورة المهزومة، وما كان لها أن تهزم، لو أنها لم تهزم من داخلها قبل أن نلقي باللائمة هنا وهنالك.

لم يرَ المثقف نفسه من موقعه الخاص، ولم يطلب أو يفعل، ما يرفعه إلى مقام القاضي والحاكم النزيه المتجرد الذي يزهد في السلطة، ويرتضي القليل حتى بات من الصعب أن نميز بين القائد المتثاقف، والمثقف القائد.

أصبح المثقف قائداً، وكادراً، وموجهاً سياسياً، ومقاتلاً شرساً، وصاحب بيت المال، أصبح المثقف كل شيء وأي شيء، إلا أن يكون مثقفاً، مرشداً، وناقداً، ومصححاً اعوجاجات ما أكثرها ولم يعد يراها إلا بعين الحياة الرغيدة التي لا تتوافر إلا في كنف القائد وتحت إبطه، وباحتلال موقع بين كتبة الوحي المتكاثرين.

وهكذا يكون للمال صولته، بعد أن استحال إلى أنشوطة لا يكتمل فعلها، إلا وهي تحصد الرؤوس المتسابقة إلى دائرتها، تمنح بركاتها القاتلة لمن يسبق أولاً، ويخر صريعاً من يحتفظ ببعض قولة حق.

وبكلمات كان المثقف ظلاً مطابقاً لصورة السياسي، الذي يحكم ويتحكم في المال، والمؤسسات يدير العقول، والممارسات، فإن أتت مخالفة، كان مصيرها التجاهل وحرباً لا هوادة فيها.

قليلون هم المحظوظون الذين نجوا بأنفسهم من هذه الكارثة، وهم إما احتفظوا بمواقعهم خارج إطار الثورة، أو أنهم امتلكوا، أرضاً صلبة يقفون عليها.



السياسي امتلك بيت المال والجريدة والمطبعة

مراثي أوغاريت

محمد القيسي
شاعر من الأردن



اللسان المعقود

■ مِنَ الآنْ
يَتغيَّرُ نشيدُنا
وَنغني بنصفِ قلبْ
لَأنَّ النصفَ الآخرَ دخلَ العَتمةْ
فالمرض يشوبُ مجلسَ الحكَماءْ
الشيخوخةُ أتتْ على الريحْ
فَما نفعلُ في المصائدِ الجديدةْ
النهارُ حزينٌ لِنفسِهِ وأوغاريتُ صَامتةْ
الأودية لا تهدر،
الغيوم لا تصرِّفُها العَاصفةْ
لَأنَّ بعلْ بن إيلْ
مشدودٌ إلى جبلٍ ، وَيداهُ مُقيَّدتانْ
مَنْ يعزفُ الرعدَ، ويجزلُ العَطَايا
ونصفُ القلبِ مَعْصُوراً يقطرُ كحبةِ ليمون
لَأنَّ بروشورَ الحفل
حَدَّدَ الأصابعَ وَالقاموسَ
وَساحةَ الدبكةِ،
فأَينَ نقيمُ احتفالاتِنا القَادمةْ
ولأيِّ نصفٍ
بِغزالاتِنا الميّتةِ نَمشي
فَاللسانُ معقودٌ
وَميراثُ الحنينْ
لا يَقبلُ القِسْمَةْ

أمحو وأمحو

أُؤلفُ أفكاراً وَأمحوها
الأفكارُ عَجيجُ الأنهار، الممحَاةُ حَصاةُ الوادي
أمحو لَأبدأَ، أمحو لَأصحو
وَأمحو فلا خَطَّ على الطريقِ قُدَّامي
ولا أرى وَرائي
سِلالاً تُقيتُ هذا الإندفاعْ
أَجوبُ طيَّاتِ الأقاصي



بحثاً عنْ صِفْرٍ يكونُ لي
في صفحةٍ أو أرضٍ وَيكونُ صِفري
لا تحضرُ الجيوشُ لي
وَالأغرابُ دَخلوا البيتَ
نَظَّفوا ما بين المَناضِدِ، أمحو وَأمحو
وَأكْهنُ لِنفسي
أَفرطُ يَومي بلا حساب
لَأنَّ الكرومَ والحقولَ لا تَنبري
فَتشْفَعُ لي
يَبستْ أرغفتي، وَدَقيقي نُثِر،



وَأَمّا

دَناني

فَ

فارِغَةْ

وَواهبُ الحياةِ لي بِالخُبزِ وَالخمرِ يَنساني



إلهي، إلهي

ماذا فَعلتُ كي لا يَسندَ قلبي أَحدْ؟

فانظرْ أَرضكَ، وانظرني

وَانظرْ كلَّ هذه الدُمى المُهيأَةِ،

لِصدرِ البيتْ

كيفَ سَلِساً أكون حيالَ هذه الضَغائِنْ

أُوغاريتْ   أُوغاريت

يا السجينة

يَا الآيلةُ إلى غيابي.

ميتات جديدة

عَديد الميتاتِ رَأيتُ، عديدَ الميتاتْ

وَأنا أعبرُ بيدكِ،

تُخومَاتٍ لَيليَّةٍ وَأبكي

وَعديدُ الميتات أمدَّتني

وَأنا إلى جانبكِ،

بجماليّاتِ المشيْ

مَدفوعاً بحكمةِ العَطَشْ

كنتُ أَنقشُ أيامَنا القادماتْ

وَسَلفاً أتغنّى

بِينابيعَ تكونُ لنا

وَدفاتِرَ خَضراءَ لكتابة خُطاكِ،

بحبرٍ غامِقْ

وَكَراءٍ أعمى

يَتهيَّأُ فيما بعد

لِخدمةِ مآثر الموتى

أَرصدُ المقصوفَ مِنَ الحَيواتْ

فَأَين صارتْ مدينةُ القلبْ

تلكَ التي نَزلنا!

هلْ أَقولُ لي:

الينابيعُ أمامَنا لا تزالُ،

الدفاترُ في الغابةِ،

الميتاتُ الجديدةُ أَيضا

بَيْنا لا شيءَ يَحدثْ

وَكلُّ ما هُناكْ

أني أزدادُ كهولةً،

وَأعبرُ وَحدي!



محاسن النسيان

يَحدثُ أحياناً أَنْ نَنسى

أينَ وَضعنا كتاباً ما

أو قصيدةً فرغنا منْ عِناقها

مثلما أَنَّ المسنّينَ أحياناً

يَنْسوْنَ مخابِىءَ الكنزِ،

وأوراقَ الطابو!

يَحدثُ في غَمرةِ ما يملأ أباريقَنا

منْ مَراراتٍ

أَنْ نتوهَ عنْ مَخابِئِنا

وَيحدثُ أن نَعْشى

فَلا يقودُنا ضَوْءٌ أو

تَتفتَّحُ ذاكرةٌ،

يحدثُ في المقهى وَالبيتْ

أنْ نطلعَ إلى أيامنا

مُجرَّدينَ منْ أيِّ فَرحٍ،

نحنُ الذينَ عبرنا الجسورَ،

لا مُبالينَ بالرُّماةِ

مُسْبلينَ كغيمِ الجبالِ أَهْدابَنا

مُشْرعينَ الصدورَ الشَفيفةِ لسهامِ النَدامةِ

بينا يُواصلُ الكتابُ وُجودَه،

القصيدةُ نموَّها،

وَالكنزُ نومَهُ الهادىء

يَحدثُ أَنْ نَستيقظَ يوما

وَنَرى مَخابئنا

عاثرينَ بالكتابِ، أو القصيدةِ،

أَوِ الكنزْ

وَهذه محاسِنُ النِسيانْ□

عماد العبدالله

حكايات خارجة على القانون

سلالة الغرباء

في غدواتي ومشاويري من أمام منزلها ذي الشرفة المستطيلة، كنت أعلم أن «أم أحمد» جالسة هناك سواء تطلعت ناحيتها أم لم أتطلع.

كان ذلك في قريتي والزمان دائماً فصل الصيف. وأم أحمد كناية عن عجوز ملمومة - كما العجائز العديدات في قريتنا - في ثوبها الأقرب إلى قميص النوم مع النقاب الأبيض. تجلس على الدشك الخشبي المدعم بمساند القش وطاريح الصوف، غارقة في هدوء من تطرده شمس الظهيرة إلى نعمة الظل.

لا أعرف إلى اليوم شيئاً عن ابنها أحمد، ربما كان لها ابن ذات يوم ثم مات، لكن الذي كنت أعلمه علم اليقين أن زوجها «عبد علي» هاجر منذ خمسين سنة إلى الأرجنتين، وبقيت هي في ما يشبه العزلة الأبدية تنتظر عودة المهاجر.

في فترة، غير مستقرة أبداً من فترات لبنان الحرب، عاد فجأة «عبد علي» من الأرجنتين، ولم يكن ثمة وقت لأعاين عودته وأتملاها، وأراقب، من بعد، ماذا فعل به الزمن، وما هي الصورة التي ستكون عليها علاقته بأم أحمد، وهل ستتواصل العبارات المقطوعة بينهما منذ نصف قرن إلخ . . . مع ذلك أثارت عودة «عبد علي»، بعد طول غياب، دهشة ولغطاً مع قليل نميمة، خصوصاً وأنه رجع إلى القرية بقبعة بيضاء كبيرة على جسد ضئيل وباسم ارجنتيني هو «سلفادور» وشنطة ثياب وبضعة ملايين من الليرات الأرجنتينية حوّلت، كما روى بعض المقربين، إلى الليرة اللبنانية فعادلت في منتصف السبعينات، على ما أذكر، ما مقداره ١٨٦ ليرة لبنانية لا غير؟!

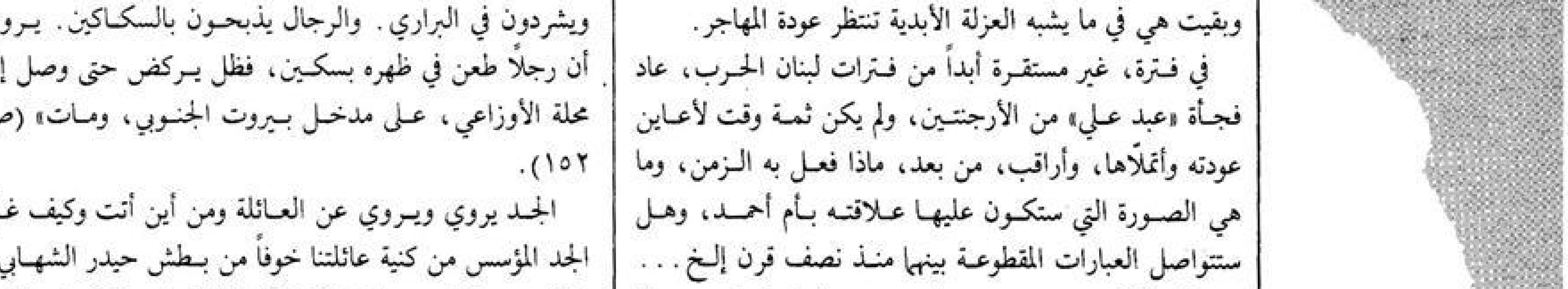
وسواء كانت قصة النقود حقيقية أم لا، فإن «عبد علي» أو «سلفادور» بدا فقيراً للغاية وقتها، وجرى لفلفة حكايته أو هجرته بسرعة قياسية بعد أن ابتلعتها، كما غيرها من الحكايات، الأحداث اللبنانية التي كسرت السياق التقليدي لحياة الناس من بداية ونهاية، وذكرى وعبرة واستدراك وطول أناة وطول تأمل.

* * *

«عبد علي»، «سلفادور»، في حكايتي. «يعقوب نصار» في رواية «مجمع الأسرار»(*) لالياس خوري. «سانتياغو نصار» في «قصة موت معلن» لغابرييل غارسيا ماركيز. وكذلك «سعيد المكسيكي» عم والدتي الذي هاجر إلى المكسيك ولم يعد. ويقال أن أبناءه كانوا في عداد وحدات المارينز التي نزلت إلى الشاطىء اللبناني أثناء أحداث ١٩٥٨. الحكاية تستسقي الحكاية. الحكايات تولول في هذا الزاروب أو تستريح في فيء ذاك الزقاق. والسكاكين تلعب بأجساد الأقرباء وسط الانتخابات النيابية، واحد وقع بجانب الحائط والدماء تفور من فمه، وآخر تمزقت رئتاه بعد أن طعن عدة طعنات من الخلف، أما الذي ضرب بخيزرانة الحديد حتى تحول إلى قطعة لحم طرية، فقد تغيرت ملامحه.

في مجمع «الأسرار» يكتب الياس خوري: «ما جرى بعد اكتشاف المذبحة لا يوصف. هربت الناس، وبدأت البيوت تحترق. النار تشتعل، والنساء والأولاد يهربون إلى الحقول ويشردون في البراري. والرجال يذبحون بالسكاكين. يروى أن رجلاً طعن في ظهره بسكين، فظل يركض حتى وصل إلى محلة الأوزاعي، على مدخل بيروت الجنوبي، ومات» (ص ١٥٢).

الجد يروي ويروي عن العائلة ومن أين أتت وكيف غيّر الجد المؤسس من كنية عائلتنا خوفاً من بطش حيدر الشهابي. وظلت معركة عيندارة شوكة في الذاكرة. وكيف استقبلت



العائلة المهجرين المسيحيين الهاربين من جبل لبنان بعد أحداث ١٨٦٠. بالموازاة مع ذلك ظل حديث الأدب موزعاً بين اثنين، السيرة الشعبية (الزير ـ عنترة) والشعر (رواية وتأليفاً). أما حكايات الناس والمنطقة فبقيت خارج القانون الأدبي الرسمي المرعي الإجراء.

ذهب العثماني وجاء الفرنسي وبقيت أرض الجنوب برمتها «أميرية» ولم تكتب ولا كلمة واحدة عن الموضوع. ولم يكتب أحد الرواية. ولدت إسرائيل وانقطع الجنوبيون عن الذهاب إلى الناصرة وعكا وحيفا. وطويت على سبيل المثال حكاية خالي «فايز» الذي دخل سلك الشرطة في فلسطين ثم تزوج ومات هناك. خالي الغريب لم يؤبنه أحد. نزح الجنوبيون إلى بيروت فواكبهم الشعر وبقي جاثماً في منازلهم وسط أحزمة البؤس والمنازل المهلهلة والغرف الضيقة.

***

الجو الذي أشاعه الياس خوري في «مجمع الأسرار» وهو الراوي وغريب الغرباء الذي وزّع شذرات من أطراف غربته على شخصيات غريبة بدورها وتوحش فتآلف مع الشذاذ والمهاجرين والضاربين في أرض الله الواسعة. وتغرب فأنِس إليه الغرباء وآنسنا بحكاياتهم، هو ما جعلني أحتشد بما تقدم وربما بما يتعداه. خصوصاً وأن حكاياته تشترك مع حكايات لدي أو لدى آخرين بـ«حياة» عضوية.

«عبد علي»، «سلفادور»، «يعقوب نصار»، «سانتياغو نصار» «سعيد المكسيكي»، «ابراهيم نصار»، «حنا السلمان»، «فايز العبد الله»، من غير الضروري أن يهاجر المرء كي يصبح غريباً كما حاول أن يقول الياس خوري في روايته. فابراهيم نصار عاش غريباً في بلده رغم أنه لم يهاجر إلى كولومبيا. كذلك هو «حنا السلمان» وباقي شخصيات الرواية.

من يحكي الحكاية؟ ومن أيضاً سيمنح بركة الحكاية؟ والذي يدخل طرفاً في حكايه هي أكبر من نواياه سيفوز ورب الكعبة!

كنت شغوفاً وما زلت بقراءة الروايات الأجنبية المترجمة. وكنت أصاب بدهشة لذيذة عندما يأتي ذكر العربي أو السوري في روايات جورج أمادو أو غابرييل غارسيا ماركيز. فأشعر بصلة نسب إلى تلك الأعمال أو ما يشبه الحضور القوي في قلب حكاية العالم. التاجر السوري تحت الأضواء. «أنا» تحت الأضواء أو أنا طرف في الحكاية الكبرى! من «أنا»؟ ربما أكون الغريب الشغوف بغريب الرواية... وكل غريب للغريب نسيب!

***

ما السر إذاً وراء الأسرار المجمعة؟ أو وراء تلك السلالة من الغرباء؟ لست أدري. ورغم أن الهجرة والموت والفقر والعمل والبطالة والثروة والجنس والتهريب والجريمة وأثرياء النفط والسجون والمجازر الطائفية تشكل الخلفية الكبرى لمصائر وأقدار شخصيات الرواية، إلا أن العبرة تبقى في تمثل الحدث أو الواقعة من قبل كل فرد على حدة، كيف تكون ردة الفعل، وكيف تشتغل الفيزياء الشخصية ووفق أي إدراك وأي زمن؟

ربما تكون الرواية ولدت عند الياس خوري من أحاسيس امتلأ بها بينما هو يهم بدخول منزله وسط سكون سكان الحي أو جلبتهم. كائنات تختفي في غرف النوم أو تسهر في الصالونات أو هي بانتظار شيء ما. كل واحد ينطوي على قصة أو على حياته الداخلية. وعلى الراوي هنا أن يحول الصمت إلى رواية. أو يحول عزلة المدينة وألغازها إلى حالات وموضوعات قابلة للهتك والفضح. كل ممنوع مرغوب وابراهيم نصار في «مجمع الأسرار» يشبه جاراً لنا في منطقة برج أبي حيدر في بيروت، كان لا يقيم أدنى علاقة بالحي الذي كنا نقطن فيه. باب منزله المحاط بسور عالٍ كان مقفلاً على الدوام. حتى صرت أشك في أن باب ذلك البيت يفتح لأحد. مع أنني علمت فيما بعد وعبر جهود لا يبذلها عادة المرء في المدينة، أن ذلك الجار هو موظف كبير ورب أسرة تتألف من تسعة أشخاص. وفوق ذلك هو زميل لأخي الأكبر في العمل، مع أنني لم اسمع أخي ولو مرة واحدة يذكر ذلك المنزل أو أنه يذهب إلى زيارته! ما سر ذلك الهدوء الذي كان يلف المنزل؟ إلى الآن لا أدري. أعلى ما يشبه هذا انعقدت اللقاءات والحوارات في رواية «مجمّع الأسرار» من مثل حوار جوليا مع نورما، بأنها قتلت ابراهيم نصار لأنها تريد سرقة نقوده وأن جوليا بدورها تعتقد أن ابنتها أنجبت ولي العهد من الثري الخليجي. وأن حنا السلمان الإسكافي بدّد ثروة ضخمة بين يوم وليلة! لست أدري أيضاً.

الحكاية تولد من أخرى. والأساطير تتورم بناء على الظن وبناء على الأسرار المحيطة بالمنازل في فترة القيلولة أو عتمة الليل. وحكايات حي الفرنيني تمتد صوب أماكن بعيدة عنه. وهي أماكن قوية وجذابة في بنية الرواية وتتمتع بتاريخ انطباع مزمن: كولومبيا، قرية عين كسرين، سباق الخيل، الشياح، السوق العمومي، سجن الرمل، حمانا، عين المريسة، ساحة البرج، منزل آل نصار، سوبرماركت نصار، دكان الإسكافي حنا السلمان. حوران.

إنه قاموس الأماكن البيروتية بامتياز.

ترى ماذا تفعلَ الأماكن بعد موت أبطالها!؟□



(٤) مجمع الأسرار، الياس خوري، رواية، دار الآداب، بيروت ١٩٩٤.



محمد متولي

بعد ٥٠٠ عام من التجوال

شاعر من مصر فاز بجائزة يوسف الخال للشعر للعام ١٩٩٢ عن مجموعته «حدث ذات مرة أن».

■ سلحفاة على ظهرها

تنتظر الموت

ترى درقتها وقد تحولت إلى سريرٍ لإله كسول لا يفلح الضوء المتسرب ولا سكرتيرته الغَنِجَة في إيقاظه قبل ساعةٍ ـ على الأقل ـ من بداية العمل

أو ربما يوماً ما

يكتشفها عالِم حفريات

بين أنقاض مدينة تحول سكانها إلى تماثيل

توشك على القيام بالحركة الأخيرة

تتمنى الآن أن ترى الرجل الذي داوم على زيارتها من آخر محل حيوانات كانت تقطن به (ذلك المطل على البحر) فكم كانت تثلج صدرها نظراته المعجبة بحكمتها

فلينتظر الزمن قليلاً

حتى تنتهي من تدوين مذكراتها

واستبدال عدساتها القديمة

ستكتب شيئاً ما عن الصوت المتلاحق للأبواب التي صفقت في وجهها

وعن نَفْسها حين تدخل درقتها وتبكي وحدها

وعن عُريها الآن وهي تبدو لعاشق السلاحف ـ من نافذته البعيدة ـ نقطةً صغيرة على الرمل تدحرجها شيئاً فشيئاً أمواج الشاطىء. □



كتب



أحمد مفلح

كاتب من فلسطين

١٣ أيلول
نظرات وتوقعات
أنيس صايغ
منشورات بيسان - بيروت ١٩٩٤

فلسطين عام ٢٠٠٠

بعد طول انقطاع يطل علينا أنيس صايغ بكتابه الجديد «١٣ أيلول» والذي هو عبارة عن مجموعة مقالات كان قد نشرها في بعض الصحف والمجلات اللبنانية، والقسم الثاني منه هو المذكرات الخيالية الاستشرافية إلى حد ما، حول الوضع الفلسطيني والعربي أو السلطة الفلسطينية عام ٢٠٠٠.

يبرر صايغ هذا الانقطاع بالخوف والحرص على استمرار مشروع «الموسوعة الفلسطينية» التي كلفته إدارتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ومحاولة حمايتها من التسلط السياسي والإداري الذي مارسته قيادة منظمة التحرير الفلسطينية، ثم يتابع صايغ التبرير بالقول: «ثم انتابني شعور شديد بالقرف من اللعبة السياسية القذرة التي يهوى لعبها ويتقنها بعض المسؤولين الفلسطينيين ضد أي مشروع ناجح ومستقل ليجيروه إلى مصلحتهم أو ليخنقوه».

وعلى الرغم من تقديرنا واحترامنا لموقف د. صايغ ومشروعه الذي خاف عليه لا يمكننا قبول تبريره هذا الغياب وسكوته عن الحق، خصوصاً أنه مؤمن بدور المثقف وأهميته في الدفاع عن القضية والتصدي للعدو الصهيوني أولاً والقيادة المنحرفة التي عملت وتعمل منذ تسلمها قيادة المنظمة على هدم هذا الانجاز (المنظمة ومؤسساتها) وتفريغه من محتواه الوطني والقومي. وما أريد قوله هنا هو سؤال د. صايغ: إذا اعتكفتم أو ابتعدتم أنتم القدوة ومعايشي القضية منذ بداياتها عن قول الحق والتصدي وإنارة دروب الشباب والمثقفين الصاعدين فمن في رأيكم سيحل محلكم؟؟ أكيد ولا شك في ذلك هم المنحرفون والانتهازيون والشوفينيون، وساعتئذ لا يحق لنا لعن هذه الساعة بل لعن أنفسنا، وساعتئذٍ لا يمكننا الإصلاح الجذري بل «الترقيع» أو الترميم، وربما لا ينفع لأن المادة التي تلفت لا يوجد عندنا المثيل لها لنرمم بها، وهذا ما يحصل اليوم معكم ومع الفصائل الفلسطينية المعارضة (أو ما يسمى معارضة) والتي هي مهترئة، فقولكم: «ولكننا اليوم أمام وضع مختلف وخطير. إننا نمر بواحدة من أخطر مراحل القضية الفلسطينية في الأعوام المئة الأخيرة... ولأول مرة... يبرز الخطر الرئيسي من داخل الصف الفلسطيني - بل من داخل القيادة الفلسطينية.» (ص - ١٨ و١٩).

كتب

مفكرون عرفوا الحقيقة باكراً وسكتوا عنها!

الحقيقة أننا لسنا اليوم فقط أمام وضع خطير ومختلف بل إننا منذ العام ١٨٨١، بداية الهجرة اليهودية الفعلية إلى فلسطين، ونحن في وضع مختلف وخطير، ومن ذلك الوقت إلى اليوم والأخطار والعثرات والتراجعات والخيانات والانتهازية والارتهان... الخ هي شعارات العرب (وهنا أقصد الأنظمة العربية وقياداتها)، فمنذ مؤتمر باريس عام ١٩١٣ إلى ثورة حسين بن علي عام ١٩١٦ إلى التخاذل أمام الثورة الفلسطينية الأولى عام ١٩٢١ و١٩٢٩ إلى التآمر على الثورة الفلسطينية الكبرى عام ١٩٣٦ إلى مؤتمر لندن عام ١٩٣٩... إلى الكارثة الكبرى عام ١٩٤٨... إلى عام ١٩٥٦، إلى انفصال ١٩٦١، إلى إعلان المنظمة ١٩٦٤، إلى انطلاقة «فتح» عام ١٩٦٥، إلى تعديل الميثاق القومي الفلسطيني عام ١٩٦٨ ليصبح الميثاق الوطني الفلسطيني، إلى افتعال معارك الأردن ١٩٧٠ والانتقال إلى لبنان والدخول في السياسة الداخلية بعد عام ١٩٧٠، ورفع شعار السلطة الوطنية عام ١٩٧٤، إلى عام ١٩٨٢ والهروب من لبنان، إلى حملة الاغتيالات في تونس وإعلان «الاستقلال» عام ١٩٨٨ وأخيراً إلى الاستسلام المباشر عام ١٩٩٣ وما بعد. كل ذلك محطات مهمة وخطيرة لا يمكن السكوت عنها، بل إن عدم السكوت هو ضرورة قصوى، وإلا فهو تراجع لا يقل تراجعاً عن القيادة الفلسطينية، ولا يمكننا التوقف عند هذه المحطات جميعها لأن ذلك يطول كثيراً فقط نخرج بنتيجة واحدة هي: «غياب الجماهير صاحبة الحق والقضية عن مسرح أخذ القرار، وكذلك غياب المثقف الذي عليه فرز السياسة وإنارة دربها وليس العكس» وباختصار أكثر يمكن القول إن كل ذلك كان بسبب غياب «الديموقراطية والحرية».

وهنا مهما كان تاريخ ١٣ أيلول/ سبتمبر مهماً وخطيراً، ستكون مجابهته منقوصة ومبتورة ولا نفع منها، لأنها كداء السرطان إذا أصاب أصبع القدم الصغير فإنه سينتشر ويتسع ليقتل الجسد كله، وبتر الأصبع قد لا يفيد، بل يمكن أن يكون بتر القدم أو الساق هو الأضمن، أما مداواة الأصبع فغير مجدية. ولمداواتنا من سرطان الاستسلام علينا بتر قيادتنا، بجميع فصائلنا، والعودة إلى البدايات، والتمسك بالأصول والثوابت، وتقوية وتلقيح الجسد كله وليس الأصبع الصغير، وإن كان هو المصاب مباشرة، فنتصدى لمشروع الاستسلام وننسى الثوابت والمسيرة الطويلة والآفة التي أصابت الشعوب العربية فهذا مسكن وليس دواء.

أما بالنسبة إلى ما العمل أمام هذه الحالة التي وصلت إليها القضية الفلسطينية والأمة العربية؟ فيقول صايغ بأنه ينظر «إلى الموضوع من زوايا ثلاث: زاوية عمل سياسي، وزاوية عمل ثقافي، وزاوية عمل جماهيري، بشرط أن يشمل العمل الرقعة العربية كلها، وإن كان الصعيد الفلسطيني هو، في بعض الحالات، نقطة الانطلاق أو مركز التشديد» (ص - ٣٢). وهنا أتساءل لماذا لا يشرك د. صايغ العمل العسكري الذي هو من ثوابت حضارتنا العربية وديننا؟ فهل طبيعة عمله كباحث تحتم عليه البعد عن المجابهة الحامية؟ أم أنه يعترف بعدم جدوى هذه الوسيلة؟ لكن بسبب عمله كمؤرخ وباحث أيضاً تحتم عليه تقدير هذه الوسيلة إلى جانب الوسائل والزوايا التي ذكر، فالمحتل والطاغي والمستبد لا يمكن أن يخرجوا بالسياسة فقط، كما لا يمكن بالسلاح دون فكر، وما أصابنا نحن الفلسطينيين، ولا أقول العرب، أننا حملنا سلاحاً دون فكر، واليوم نقول فكر دون سلاح، أي إن عملنا دائماً منقوص، ودائماً سنبقى تجريبيين، أما على الصعيد العربي، فبكل صراحة نقول إننا لم ندخل مع «إسرائيل» حرباً، بل هي مجرد دفاع لبعض الدول العربية، أما إننا دخلنا كعرب موحدين، على الأقل وحدة الهدف والصف في حرب مع العدو فهذا لم يحصل أبداً، ولهذا لماذا نحكم على شيء لم يحصل؟ علماً أن العدو الإسرائيلي يواجهنا دائماً كعرب موحدين، وبذلك يبني استراتيجيته على هذا الأساس. وأيضاً لماذا يكتب علينا تحمل أعتى آلة حربية حديثة، ولا نُحمل العدو سوى الكلام؟ أم إننا سنطبق المثل الشعبي الذي يقول: «صحيح هو ضربني، لكنني أهنته بالكلام»؟ أم التذرع بعدم السماح لنا بالسلاح والعسكر؟ فهذه حجة مقيتة، إذ منذ متى المناضل والمضحي بدمه وحياته ينتظر التصريح والسماح!

وعن دور المثقف العربي، وخصوصاً الفلسطيني في هذا التطور المأسوي للقضية الفلسطينية، يقول صايغ إنه لم «يعد للشعب من أمل إلا في نخبه المثقفة وجماعات أهل العلم والفكر، وهم كانوا، في تاريخ الأمة العربية وفي تواريخ شعوب كثيرة، الملاذ الأخير للشعب عندما تتكاثر عليه النوائب وتنزل به المصائب ويقطع أمله في سلاطينه» (ص ٣٨)، وهنا ليسمح لنا د. صايغ بأن نقول إننا لم نسمع ولم نقرأ في تاريخنا العربي، على الأقل المعاصر، لمثل هذه النخبة المثقفة التي هي بمثابة أمل لهذا الشعب. فهذه النخبة إما لحساب السلطان أو هي انتهازية، أو إنها مسلوبة الحركة والعطاء ومقموعة، وبالتالي ليس لعطائها أية فائدة، من منطلق إن فاقد الشيء لا يعطيه. والأكثر أن صايغ في كتابه نفسه (ص ٥٣) يصنف هذه النخبة على أساس نعوت وتعاريف مختلفة، وجميعها صادقة، بدءاً من: البلطجي والحربجي والحكوجي والعرضحلجي والمكوجي والخزمتجي والمصلحجي والعربجي والوطنجي... والهيلمجي والمزاجي والغليونجي... الخ، وهنا نزيد على هذه التعاريف المثقف الكاراخانجي والنسونجي والفصحنجي. فكيف نطلب من هؤلاء المثقفين أن يكونوا أمل الشعب وخلاصه خصوصاً أننا وصلنا إلى مرحلة أصبح فيها الرائد المرشد تابعاً ذليلاً أو عميلاً مأجوراً.

أما القول بأن القيادة الفلسطينية «تتنكر لأماني الشعب وللأهداف التي ركبت القيادة موجة الوصول إليها منذ ربع قرن، من دون أن تبالي بكرامتها ولا كرامة شعبها وحقه ومصلحته» (ص ٣٨)، فنتساءل: منذ متى كان لهذا القيادة كرامة لكي تبالي بها؟! فالقائد الذي يجعل من شعبه عتبة يدوسها ليصل، والقائد الذي يكذب على شعبه ويزور الحقيقة، والقائد الذي يزج بشعبه في مشاكل لا تعنيه لا من قريب ولا من بعيد غير سائل عن حياة هذا الشعب ومستقبله، والقائد الذي يقتل شعبه ويفتك بمثقفيه ومتعلميه، والقائد الذي ينصب نفسه قائداً بالقوة والتزوير لهذا الشعب، والقائد الذي يعزل القضية عن موضعها الصحيح وخطها المنطقي ويتنكر للتاريخ والثقافة والحضارة واللغة، ويضرب عرض الحائط بالثوابت والمنطق والأعراف، هل تراه يأبه لشعبه أو كرامته! وبالتالي ليس عيباً أو معيباً أن تفتقد م. ت. ف. التي ضمت في يوم من الأيام صفوة العقول العربية، مجموعة من المفكرين تتفرغ للتخطيط لمستقبل أحسن ولمواجهة أفضل لكافة المشاكل، فيترك أمر تقرير المصير

وتحديد المستقبل لجماعات جهل ينقصها الرأي السديد والنظر الثاقب، الأمر الذي يتيح المجال أمام تجار السياسة والمبادىء وباعة المشاريع ومروّجي البضائع لكي يتولوا هم، دون سواهم، الشؤون العامة للشعب الفلسطيني ويكونوا هم مستشاري القيادة السياسية ومنظري قرارها ودعاتها ورسلها(ص ٤١).

في الصفحة ٤٢ من الكتاب يدعو صايغ إلى إحياء القاموس القديم (السياسي) ويقول إن فلسطين ستبقى فلسطين ولن تصبح إسرائيل، والخليل ستظل الخليل ولن تصبح حبرون... ولكن ليس بالكلام وحده نحمي هذه الثوابت، بل بالعمل، والمقاطعة والجهاد الذي هو واجب قومي ووطني وديني... وهنا نرى نوعاً من التغيير في الأسلوب في الكتاب نفسه، فبعد العمل السياسي والجماهيري ينتقل صايغ إلى العمل، لكن ما هو نوع العمل؟؟ والجهاد، ولكن ما هي وسائله وطرقه؟؟ فهل العمل هو إنشاء مركز أبحاث، كما يدعو في كل صفحات الكتاب؟؟ ونحن مع هذه الفكرة، استحداث مركز أبحاث ومركز دراسات يعرّفنا بالعدو وأساليبه وتاريخه وبمستقبلنا، ولكن تبقى هذه الفكرة طوباوية ما لم يقدم لنا د. صايغ ورقة عمل مفصلة حول إنشاء هذا المركز: مكانه، هيئته، تمويله، مجلس أمنائه... الخ وهي من الأمور الواجبة لإنشاء هذا المركز، فهل من شخص متمول أو أشخاص متمولين مستعدون للتبرع لمثل هذا المركز؟ ونحن نعرف أننا أصبحنا في زمن استهلاك مادي، المهم الربح الشخصي، والأكثر، هل المتحمسون لهذه الفكرة يملكون المال لإنشاء مثل هذا المركز؟؟ ولنسلم جدلاً أننا أنشأنا هذا المركز، بعيداً عن الحكومات العربية، ألم يخطر في بالنا أننا في زمن تسود فيه الأمية، الأمية بمعنى البعد عن المطالعة والاطلاع! فلو أصدرنا الكتب والكراريس والمنشورات، ووزعناها على ألفين من القراء أو القادرين على شرائها، وهذا أمر مستبعد لأنه إذا بيع في كل وطننا العربي ٢٠٠٠ نسخة من مطلق كتاب رصين وعلمي فهذا شيء جيد! فهل نحن واثقون من استيعاب بعض المشترين؟ وأقول مشترون لأن الأكثرية تشتري هذا الكتاب أو ذاك للزينة والديكور أو للتبجح.

ويبقى سؤالنا: هل سنبقى مكبلين حتى إنشاء هذا المركز؟؟ ولماذا لا نطور مراكزنا الموجودة حالياً؟ والتي تنتج وتعمل وأركانها موجودة، ولا مجال هنا لذكر هذه المراكز في الوطن العربي، ولا مجال للتشكيك في نوايا وعطاء المشرفين عليها، بدلاً من التفكير في إنشاء مراكز جديدة، فلنرمم ما عندنا ونمده ونساعده ريثما ننطلق إلى المركز المثالي الذي نصبو إليه. وهنا أنتقل معكم إلى الصفحة ٢٢٤ حيث يتخيل د. صايغ أنه عام ٢٠٠٠ سيتغير مركز الدراسات، الذي يدعو إلى الوحدة العربية، في بيروت، إلى «مركز دراسات التطبيع الشرق الأوسطي»، فإذا كان هذا المركز، الذي نتمنى أن يبقى بعطائه وعمله إلى العام ٢٠٠٠، والذي أنتج ونشر هذه الفكرة الجلل في تاريخ أمتنا العربية سيتحول بعد الصلح أو الاستسلام إلى مرحلة التطبيع والشرق أوسطي، فما بالك بمركز أبحاث حديث العهد والإنشاء! وهنا نعدكم يا د. صايغ أن فكرة هذا المركز باقية ما بقينا، يمكنهم تحويل المركز الوحدوي إلى مركز تطبيع، لكنهم لا يستطيعون شطب وتحويل ما علق بأذهاننا من نتاجه وعطائه، يمكنهم نزع كل شيء لكنهم لا يستطيعون، وكما تقول في متن الكتاب، إجباري على سلخ فكرة الوحدة العربية من رأسي أو تربية أبنائي وتلاميذي وأصدقائي وبعض أبناء حيّنا وأقاربي على ضرورة الوحدة العربية وأهميتها، ولا أريد أن أقول حقيقتها حتى لا أوصف بالطوباوي والمتخلف، ولا أحد يستطيع فرض التعامل مع العدو والقبول به، والسكوت أمام شطب حضارتي وهويتي، ولنا عبرة في تاريخنا العربي ـ الإسلامي على الجد والمثابرة والعمل، فسيدنا محمد استطاع تغيير ديانة ونمط اجتماعي وقيمي بمفرده، في عصر نقول عنه جاهلية لتخلف أبنائه وشعبه، وجميعنا يعرف ما يعني تغيير ديانة، ولكنه استطاعه بالعمل تارة والسياسة تارة أخرى والجهاد والتحمل والتضحية، ربما يقول قائل إن هناك قوة إلهية خارقة ساعدته وحمته، لا شك في ذلك. ونحن لن نغير ديناً وليس لنا

كيف يهتم بكرامة الشعب من يقتل المثقفين والمتعلمين؟!

سوى تصحيح مسار، والله معنا لأننا مع الله ضد أعتى جماعة وأنجس بشر.

أما عن أسباب الهزيمة فيقول: «أرى هنا أن أسباب الهزيمة تكمن في نوعية الذين انهزموا، هي في عقلية وطريقة تعامل هؤلاء، وأعني طبعاً القيادة الفلسطينية مع نفسها ومع بعضها بعضاً ومع الجمهور. الهزيمة كانت في التهاون والاستخفاف بالقضايا المصيرية... هي تجاوزات قمنا بها في هذا البلد أو ذاك من الأقطار العربية، فابتعدنا كثيراً عن الشعوب العربية، هي عدم الحكمة في التعامل مع بعض الحكومات العربية. في النهاية أسباب الهزيمة يمكن أن نلخصها في



جملة واحدة: هي عدم استخدامنا للعلم والمنطق والفكر في المعالجات السياسية» (ص ٦٥). أولاً ليس هناك استخفاف بالقضايا المصيرية، بل هي سياسة مدروسة ومحكمة في عزل القضية الفلسطينية، عن مسارها الصحيح وهو المسار العربي، فمنذ تسلمت هذه القيادة دفة القيادة الفلسطينية كان في حسبانها وتعليمها ضرب كل صلة قومية للقضية والعمل على خلق الهوة وتوسيعها بين الفلسطيني والعربي، وهذا ما يسمى بـ «يا وحدنا» و«القرار الفلسطيني المستقل» و«التدخل في الشؤون الداخلية» و«الميثاق الوطني الفلسطيني»... الخ. وهي من التعابير التي لم تكن في يوم من الأيام استخفافاً فقط أو مجرد صدفة أو ضرورة سياسية أو تكتيكاً مؤقتاً، بل هي استراتيجية وخطة وجدول أعمال مخطط له بعناية، ونفذ خطوة بخطوة إلى أن وصلنا إلى ما نحن فيه.

وبالتالي التجاوزات التي حصلت لم تكن أيضاً بعيدة عن هذا المخطط المقيت. وجميعنا ساهم في هذه الجريمة، وما زلنا نساهم، لم تكن الجرأة أو روح التضحية عند واحد منا لنقول ونفضح هذه الأساليب، ولا أستثني أحداً، مثقفاً كان أم قيادياً، أما الجماهير فهي مغلوبة على أمرها ولا يمكن تحميلها أكثر مما تحملت، وعلى العكس ضحى الجميع بأعز ما عندهم في سبيل القضية الحقة، لبنانيين كانوا أم فلسطينيين أم سوريين أم عراقيين أم مغربيين، الجميع ضحوا، ولكن الجميع كانوا جاهلين ومغفلين، نعم جميعنا كنا أغبياء، وهذا ليس عيباً أن نعترف بغبائنا، العيب أن نعرف الحقيقة ونسكت، العيب أن نبقى على جهلنا وغبائنا، وشتان ما بين الغباء والهزيمة، فالمعركة لم تبدأ في يوم من أيام القضية الماضية، المعركة يجب أن تبدأ الآن،

فقط هذا التغيير الذي حصل يوم ١٣ أيلول/ سبتمبر، لم يعد هناك حجج وتبريرات نقنع بها أنفسنا. وهنا الملامة تقع على المفكرين الذين عرفوا الحقيقة مبكراً وسكتوا عنها، وإذا كان هناك ملامة وعتب فهي عليكم يا د. صايغ أنتم الذين عرفتم الحقيقة وسكتم!!! واليوم تطلبون شد الأحزمة والتصدي، ومرة أخرى تطلبون من هذا الشعب أن يضحي بحياته وكرامته ليصدقكم في وقت أخفيتم عنه الحقيقة مطولاً!!! تطلبون منه النهوض بعد تكسير عظامه وحتى رأسه، كان الأولى بكم أن تطلبوا هذا وقت كان الجسم مستقيماً، وهذا الكلام نوجهه إلى كل من يعارض الفصائل الفلسطينية وأعضاء اللجنة التنفيذية والمجلس الوطني... الخ إلى كل من يعارض ويشتم، جميعكم تعرفون الحقيقة ولكنكم ساكتون.

أما الأمناء العامون للفصائل الفلسطينية التي تجتمع في دمشق لتأليف جبهة معارضة يكفي أن نوجه إليهم كلمة واحدة فقط: «عيب عليكم»، ولا حاجة يا د. صايغ إلى هذه الرسالة المطولة إليهم، فبمن سأثق؟ بالإنتهازي المتردد؟ أم بصاحب فكرة السلطة الوطنية؟ أم بمن سيعيد هيمنة الحزب التوتاليتاري؟ أم بمن ضرب شعبه بصفر؟ (وهنا أقول صفر أفضل من قول شيء آخر)، جميع هؤلاء ليسوا غريبين على قيادة المنظمة، فشخصيتهم أصبحت رمزاً ترتبط به الايديولوجيا، وجميعهم تربع على عرش القيادة كسد منيع أمام الطاقات الشابة المعطاءة، ورويداً رويداً يشطب اسم الفصيل أمام أسمائهم. فلا خير في من لا خير فيه.

القسم الثاني من الكتاب هو مجموعة من الخواطر يسجل فيها الكاتب ذكرياته عن العام ٢٠٠٠ للميلاد، أي إنها ذكريات للمستقبل، أو قل إنها نعي قبل الوفاة، أو تصورات لوقائع وأحوال قادمة وضعت في صيغة الماضي. وتستند هذه التصورات إلى تجربة الحاضر والمخاوف من مساوئه وشروره.

إنها توقعات يراها في مخيلته تنتظم في حروف وكلمات وصور وكأنها انعكاسات وترجمات لأحداث سابقة. وهي، بكلام آخر، ذكريات مستقبل قاتم تكاد تكون أشد وقعاً في النفس من ذكريات الماضي وتحليلات الحاضر، هكذا يصف أنيس صايغ القسم الثاني من كتابه الذي يطغى عليه الأسلوب الأدبي الساخر، لكنه ممتلىء بالتحاليل الموضوعية والعلمية. وأبرز ما يمكن رصده في هذا القسم هو التسليم بالهيمنة الأميركية على العالم، أو بعبارة أخرى سيادة ما يسمى النظام العالمي الجديد على العالم، وكذلك سيطرة العدو الصهيوني على منطقتنا العربية. ويصور لنا أنيس صايغ حال الأنظمة العربية اللاهثة وراء إرضاء القيادات والشخصيات الصهيونية، وبذلك خنقت الحريات وكمت الأفواه التي تقول إن «إسرائيل» عدو، أو تتلفظ باسم فلسطين، فكل الدوائر والمؤسسات العربية والصحافة ووسائل الإعلام هي بيد الصهاينة، وبذلك شطبت الشخصية العربية والهوية العربية، وحتى الحضارة العربية. ففي زيارة له إلى بيروت عام ٢٠٠٠ يجد د. صايغ أن الكولدج هول في الجامعة الأميركية، وبرجها وساعتها (بغ بن لبنان) لا أثر لها، دمرها العدو قبل أيام الاتفاق والتطبيع بسنوات قليلة، وربما تمهيداً للاتفاق والتطبيع. فمن يهدم هذا المبنى يهدم رمز العلم. ومن يهدم رمز العلم يهدم البلد. ومن يهدم البلد يسهل عليه الاستيلاء عليه وتطويعه. وعن دائرة التاريخ العربي، يقول طارت البناية ثم طارت الدائرة ثم طار المنهج كله، ولم يعد هناك تاريخ

للعرب، وحل محل الدائرة دائرة العلاقات العربية - الإسرائيلية. تماماً كما ألغيت دائرة اللغة والآداب العربية لتحل محلها دائرة اللغات والآداب السامية(ص ٢٢١).

ولم يبقَ في شوارع بيروت إلا مقهى واحد. سماه صاحبه مقهى نشاط ندوة النادي، وهو المقهى الوحيد الذي يذكر فلسطين، وسماه الرواد مقهى نشاط نادي الندوة. وكذلك الرواد والزبائن، لا يتبدلون بين يوم وآخر، من أبكر ساعات ما قبل الظهر الأولى إلى أولى ساعات صباح اليوم التالي. وكذلك موضوعات الحديث والنقاش ومباريات الخطابة وتجربة الخطابة ومهرجانات التسلية بالجد والمزايدة في الوعود والبذل، ثم الهرب أو التهرب عندما يأتي الجرسون حاملاً الفواتير. ويصور لنا د. صايغ المزايدات من قبل الأعضاء وموقفهم من المفاوضات وما حملته إليهم من هزيمة حتى يقف أبو البراعم العضو المواظب مرتجفاً نشطاً صريحاً قائلاً: «اسمعوا يا شباب. من كان من رأيي فليمش معي. نشكّل تنظيماً سرياً. هدفنا الاغتيال ولا شيء غير الاغتيال. نقتل كل ملك أو رئيس أو مسؤول يقبل بالمضي في المفاوضات ثم نقتل من يخلفه ومن يخلف من يخلفه، تباعاً حتى لا يبقى مسؤول عربي واحد يتجرأ على حمل القلم والتوقيع على صكوك الاستسلام (ص ٢٣٤)، لكن أبا البراعم هذا سرعان ما يغير موقفه عندما أصبحت المفاوضات واقعة، وينتهي الأمر به إلى مصاحبة ومصادقة الصهاينة عندما تم الصلح والتطبيع. الحقيقة أن من يقرأ هذا المقطع يشعر فعلاً بما يحصل اليوم في لبنان وفي كل المناطق العربية، وأشعر في نفسي أنني فعلاً حضرت مثل هذه الخزعبلات والخطابات في المقهى نفسه.

وأخيراً، نقول للدكتور أنيس صايغ، صحيح أن هذا الوضع المتردي القاتم هو الذي سيطغى على منطقتنا العربية، وصحيح أيضاً أن حلم الوحدة العربية قد ضرب بتوقيع اتفاقية «غزة - أريحا» وأصبح الفاصل الغريب يشطر الوطن العربي بمغربه ومشرقه، ولكن الأصح أن حضارتنا وإيماننا بالوحدة العربية وصبرنا على مواصلة النضال، كل في مجاله، وروح العطاء والتضحية، وإيماننا بجماهيرنا، التي كانت مغيبة طوال الوقت عن ساحة النضال، كل ذلك سيزيدنا تصميماً وعناداً وتفاؤلاً بغدٍ مشرق.■



فلسفة التأويل

دراسة

نصر حامد أبو زيد

دار التنوير - بيروت ١٩٩٣

الصوفي يصيخ السمع

محمود حيدر

■ في «فلسفة التأويل» يذهب د. نصر حامد أبو زيد إلى منطقة التصوُّف. وبرفقة محي الدين بن عربي يحاول التقرُّب من مطارحها الأكثر شفافية ورهبة. فها هو يستعين بالشيخ الأكبر لكي ينشىء بحثه الفلسفي في تأويل القرآن. لكنني لست إخاله بلغ الأمان والرضى، فيما انتهى إليه النص المُنشأ، على امتداد أربعمائة وسبع وعشرين صفحة. فربما حصل عكس ذلك. فالمنطقة التي ارتحل إليها، وفيها، تحمل على الحيرة. على استطراد البحث عما يخفى منها. فكيف به إذا كانت مفتوحة على فضاء لا حدودَ له، ولا حصر لمنتهاه! ولا سيما أن الباحث قد انبرى إلى الاستغراق في حفر الباطن عن طريق ثلاث نوافذ وعرة:

- التصوف، حيث لا يُقيَّض للداخل إليه أن يدرك عوالمه المجهولة، إلّا إذا عَبَرَ العتمة. إذ تستحيل فيه الرؤيا من دون إغلاق البصر. فالتصوف هو إغلاق العين، على ما يقول كولن ولسن. وهو رؤية ما لا يراه الآخرون.

- القرآن كجامع للوجود. وفيما هو كلمات الله المرقومة التي توازي الوجود وترمز إليه، كما توازي الإنسان وترمز إلى حقائقه. القرآن في مثل هذا التصوُّر موازٍ للوجود وموازٍ للإنسان في الوقت نفسه. وهو - مثل الوجود والإنسان - له جانبان: جانب باطن كليّاً هو جمعيته من حيث هو قرآن تنزّل على قلب النبي وما زال ينزل متجدداً على قلوب العارفين. وجانب ظاهر من حيث تلاوته باللسان وتحويله إلى أصوات وحروف منطوقة. وهذه التفرقة بين جانبي القرآن الباطن والظاهر تمكّن ابن عربي - بسهولة - من حل معضلة قِدَم القرآن وحدوثه. هذه الموازاة بين القرآن والوجود والإنسان تؤدي إلى تحرُّر العارف في فهمه للنص القرآني من حدود المعطيات اللغوية المباشرة، حيث يمكن له أن يرى القرآن في ضوء وجودي ونفس أشمل. ولا تصبح العلاقة بين العارف والنص - في ظل هذا الفهم - علاقة انفصال، بل هي علاقة تَوَحُّدٍ منظور إليها من جانبين وباعتبارين. إن العارف يقرأ في القرآن الوجود بأسره. كما يقرأ فيه نفسه ومعارفه. إذ الوجود كلمات الله، والعارف - أو الإنسان الكامل - هو كلمة الله الجامعة (ص ٢٦٤ - ٢٧٨).

كتب

الكتاب امتداد لدراسة الكاتب عن المعتزلة

- وابن عربي كناطق للباطن. وعارف به. يأتي نصه ليضيء على وجود، يبدو لسواه من غير أهل المقام، عدماً معتماً. بينما هو في الحقيقة، الحقيقة عينها. وجود نورانيٌّ، ألوانه مشعةٌ، مبهرةٌ، لا نهاية لعددها وتنوعها، وتغيرها المستديم.

في هذه النوافذ الثلاث، يستلزم الدخول أقصى المجاهدة. وعلى الداخل، حتى لو كان باحثاً، آتياً من خارج مقامات الصوفية، أن يعدَّ العدة لامتحان صعب. إذ الكلام على التصوُّف والقرآن، ومن خلال ابن عربي بالذات، يماثل البحث عن حقائق الوجود، بوسائط لغوية تستعصي على الفهم والإدراك السهل. حيث يشتبك العقل الفلسفي بالعرفان الذوقي وكلاهما بعلم الكلام والفقه والشريعة.

يعدُّ بحث «فلسفة التأويل» لنصر حامد أبو زيد - من إحدى زواياه - امتداداً للدراسة التي قام بها الباحث في مرحلة سابقة عن «قضية المجاز في القرآن عند المعتزلة». وقد انتهى الباحث في دراسته السابقة إلى أن المجاز تحوَّل في يد المتكلمين إلى سلاح لرفع التناقض المتوهَّم بين آيات القرآن من جهة، وبين القرآن وأدلة العقل من جهة أخرى. وقد كانت هذه النتيجة هي الأساس الذي حدا بالباحث على محاولة استكشاف منطقة أخرى من مناطق الفكر الديني - هي منطقة التصوُّف - لدراسة تلك العلاقة بين الفكر والنص الديني واستكناه طبيعتها ومناقشة المعضلات التي تثيرها، وذلك استكمالاً للجانبين الرئيسيين في التراث: الجانب العقلي كما يمثله المعتزلة، والجانب الذوقي عند المتصوفة. وخلال الفترة الطويلة التي استغرقها هذا البحث تعدَّل كثير من الأفكار والمفاهيم التي انطلق منها الباحث، خاصة المفهوم الرئيسي الذي تقوم عليه الدراسة وهو مفهوم التأويل. لقد بدأ الباحث دراسته الأولى من خلال المفهوم الشائع في فكرنا الديني والفلسفي المعاصر، والذي يرى التأويل جهداً عقلياً ذاتياً لإخضاع النص الديني لتصورات المفسِّر ومفاهيمه وأفكاره. وهي نظرة تُغفِلُ دور النص وما يرتبط به من تراث تفسيري وتأثيره على فكر المفسِّر. إن العلاقة بين المفسِّر والنص ليست علاقة إخضاع من جانب المفسِّر وخضوع من جانب النص. والأحرى القول إنها علاقة جدلية قائمة على التفاعل المتبادل.

سوف نسجل للمؤلف، براعته في توليف دراسته. على الأخص لجهة قدرته على التعامل ولغة ابن عربي الإشارية الرمزية. لقد اعتمد على أهم ما كتب الشيخ الأكبر في عرض فلسفته الذوقية ونظرته إلى الوجود من خلال تأويل القرآن الكريم. وهي:

الفتوحات المكيَّة، فصوص الحكم. والتدبيرات الإلهية. فضلاً عن الاستعانة أحياناً بمراجع أخرى مثل: تنزُّل الأملاك - كتاب الواو والنون والميم - ترجمان الأشواق وسواها. وهذه مرجعيات تشكل بجملتها المشروع الرؤيوي للوجود عند ابن عربي. وهي مرجعيات صعبة المراس نظراً إلى لغتها غير العادية. يقول العلامة نيكولسون في وصف أسلوب ابن عربي في فصوص الحكم: «إنه يأخذ نصّاً من القرآن أو الحديث ويؤوله بالطريقة التي نعرفها في كتابات فيلون اليهودي وأريجن الاسكندري. ونظرياته في هذا الكتاب صعبة الفهم، وأصعب من ذلك، شرحها وتفسيرها، لأن لغته اصطلاحية خاصة، مجازية معقدة في معظم الأحيان. وأي تفسير حرفي لها يُفسد معناها، ولكنا إذا أهملنا اصطلاحاته استحال فهم كتابه واستحال الوصول إلى فكرة واضحة عن معانيه، ويمثل الكتاب في جملته نوعاً خاصاً من التصوُّف المدرسي العميق الغامض» (فصوص الحكم والتعليقات عليه بقلم أبو العلا عفيفي - دار الكتاب العربي ص ١٢).

ويعلق أبو العلا عفيفي على غموض أسلوب ابن عربي وأهل الصوفية عموماً فيقول: «المعروف عن الصوفية إطلاقاً أنهم قومٌ لا يتكلمون بلسان عموم الخلق، ولا يخوضون فيما يخوض فيه الناس من مسائل علم الظاهر، وإنما يتكلمون بلسان الرمز والإشارة - إما ضناً بما يقولون على من ليسوا أهلاً له، وإما لأن لغة العموم لا تفي بالتعبير عن معانيهم وما يحسونه في أذواقهم ومواجدهم. أما ما يرمزون إليه فحقائق العلم الباطن الذي يتلقونه وراثة عن النبي، وهذه الحقائق لا يستقل بفهمها عقلٌ، ولا بالتعبير عنها لغة. وهذان الأمران وحدهما كافيان في تفسير الصعوبات التي تعترض سبيل الباحث في فهم معاني الصوفية ومراميهم. ولذا كان الحذر ألزم ما يلزم الناظر في أقوالهم حين يحللها أو يؤولها أو يحكم عليها». (عفيفي - مقدمة الفصوص ص ١٥).

لم يخفَ على الباحث وجه التحدي في التعاطي ولغة ابن عربي. فهو أدرك منذ الابتداء، أن تحدياً كهذا يستلزم الأخذ بجماع النص الذي يقدمه كبير الصوفية. أي الأخذ باللغة والمعنى فيهما هما كلٌّ متكامل. إذ اللغة هي المعنى، والمعنى هو اللغة. فلا فصل بينهما حتى من الناحية الوظيفية التي تؤديها اللغة لبلوغ القصد في خصوصية تأويل القرآن عند ابن عربي. لذا لا يجد الباحث مفراً - في دراسة التأويل - من مواجهة فلسفة ابن عربي كلها في جوانبها الوجودية والمعرفية. إلى جانب مفاهيمه الخاصة بماهية النص الديني ودوره المعرفي والوجودي، ومفهوم اللغة بمستوياتها المتعددة باعتبارهاالوسيط الذي يتجلى من خلاله النص. الوجود في نظر ابن عربي خيال يماثل الصور التي تتراءى للنائم في أحلامه. والمراتب المختلفة والمتعددة للوجود من أولها إلى آخرها، وهو الوجود الإنساني تخضع جميعها لهذا التصور. من هذا المنطلق يفرِّق ابن عربي بين ظاهر الوجود وباطنه، ويرى ضرورة النفاذ من الظاهر الحسي المتعيَّن إلى الباطن الروحي العميق في رحلة تأويلية لا يقوم بها إلا الإنسان لأنه الكون الجامع الذي اجتمعت فيه حقائق الوجود وحقائق الألوهة في الوقت نفسه.. يتماثل مع هذا التصور الوجودي تصوُّر ابن عربي للنص الديني، فهو الوجود المتجلِّي من خلال اللغة، وهو - بالمثل - يتكوَّن من ظاهر وباطن، وهما مراتب ومستويات تتماثل مع مراتب الوجود ومستوياته. ولا ينفصل تأويل الوجود عن تأويل النص والنفاذ إلى مستوياته المتعددة التي لا يفهمهما إلا الإنسان الكامل الذي تحقق بباطن الوجود وتجاوز ظاهره (ص ٦).

ويذهب الباحث إلى الاستشهاد بابن عربي نفسه في تبيين لغته الحادة الخصوصية، حيث يبيِّن في (الفتوحات المكية (١ /٣٨ و ١ /١٣٥) فيقول عن عقيدته بأنها نفس عقيدة أهل السنَّة الأشاعرة ويضيف: «فهذه عقيدة العوام من أهل الإسلام، أهل التقليد وأهل النظر ملخَّصة مختصرة... ثم أتلوها بعقيدة خواص أهل الله من أهل الطريق المحقِّقين، أهل الكشف والوجود... وأما التصريح بعقيدة الخلاصة، فما أفردتها على التعيين لما فيها من الغموض، لكن جئت بها مبددَّة في

أبواب هذا الكتاب، مستوفاة. مبيَّنة لكنها كما ذكرنا متفرقة. فمنِ رزَقَهُ الله الفهم فيها يعرف قدرها، ويميزها من غيرها، فإنه العلم الحق والقول الصدق، وليس وراءها مرمى، ويستوي فيها البصير والأعمى، تُلحِق الأباعد بالأداني وتَلْحم الأسافل بالأعالي».

إن المعضلة كما يطرحها ابن عربي، هي معضلة الوجود المعرفة. وهي أكبر من أن تتسع لها اللغة العادية الاصطلاحية المتداولة - كما يقرِّر الباحث - ولذلك لا بد من استخدام لغة رمزية جديدة تتغلب على هذه المعضلة وتنفذ من إطار سجن اللغة العادية الضيق. ولكن اللغة الجديدة لا بد أن تتسم ببعض الغموض. وهذا عائد في رأي ابن عربي نفسه «إلى ما تعطيه الألفاظ من القوة في أصل وضعها، لا ما هو عليه الأمر في نفسه عند أهل الأذواق». وهذا يعني أن الأصل، أصل الحقيقة المعرفية هو الذي يقرِّر اللغة المناسبة له. المطابقة لسيرورته الباطنية. إذ الحقيقة هنا مجموعة مستترة إلاّ عمَّن مَنَّ الله عليهم بالكشف. هنا تكمن تأويلية ابن عربي للقرآن. بوصفه لغة إلٓهية تتسع رحابتها للوجود كله، وللإنسان كله بما هو علة هذا الوجود.

والموازاة بين القرآن والوجود والإنسان تؤدي إلى تحرر العارف في فهمه للنص القرآني، من حدود المعطيات اللغوية المباشرة، حيث يمكن له أن يرى القرآن في ضوء وجودي أشمل. ولا تصبح العلاقة بين العارف والنص - في ظل هذا الفهم - علاقة انفصال، بل هي علاقة توحُّد منظور إليها من جانبين وباعتبارين. إن العارف يقرأ في القرآن الوجود بأسره، كما يقرأ فيه نفسه ومعارفه، إذ الوجود كلمات الله، والعارف - أو الإنسان الكامل - هو كلمة الله الجامعة.

العارفون بحسب ابن عربي في الفتوحات ٤ / ١٦١ - يدركون حقيقة أن الله هو المتكلِّم على كل لسان «فكل قائل عندهم فليس إلاّ الله، وكل قول علمٌ إلٓهيّ. وما بقيت الصيغة إلا في صورة السماع من ذلك، فإن ثَمَّ قول امتثال شرعاً وقول ابتلاء، فما بقي إلاّ الفهم الذي به يقع التفاضل».

العارف إذاً يرى الوجود كله كلمات الله، ويرى كل كلام في الوجود كلاماً لله. وهذا الكلام الوجودي ينقسم إلى ما يجب امتثاله شرعاً وهو كلام الله المباشر بالأمر والنهي، وما يعد ابتلاء وهو كلام كل متكلِّم في الوجود. هذا الكلام الابتلاء قد يكون خيراً وقد يكون شراً، والفهم هو الذي يفرِّق بين هذين المستويين. إن استماع الصوفي للكلام - أيًّا كان الناطق به - يعتمد على الفهم. والاستماع والفهم مصطلحان يدلاّن على معنى واحد، فيستطيع التفرقة بين الكلام الذي يجب امتثاله، وهو الكلام المباشر، وبين الكلام الابتلاء وهو كلام الله من خلال المتكلمين. الكلام الذي يجب امتثاله هو كلام الله على لسان المرسل بالوحي المُنزل، أما كلام الابتلاء فهو كلام الله على ألسنة البشر وغيرهم من الكائنات، والصوفي قادر على سماع هذا الكلام كله، وقادر في الوقت نفسه على أن يميِّز بين مستويات الكلام ومراتبه (ص ٢٧٩).

منذ الابتداء يوضح الباحث المقصود من التأويل القرآني عند ابن عربي. وهو يرمي بذلك إلى محاولة إزالة ما يلتبس العلاقة بين التفسير والتأويل. ذلك أن الفارق بين الاصطلاحين جوهري. لا سيما إذا جرى التعامل معهما بمعناهما ومفهومهما الشائع. ومع ذلك فإن كثيرين ممن يفرِّقون بين تفسير القرآن لدى شيوخ الشريعة والفقه واللغة، وتأويله لدى شيوخ الصوفية، يقعون في لبس إضافي. أغلبهم يُعْلي من شأن التفسير ويغض من قيمة التأويل على أساس من موضوعية الأول وذاتية الثاني.

الموضوعية. في الحالة الأولى موضوعية تاريخية تفترض إمكان أن يتجاوز المفسر إطار واقعه التاريخي وهموم عصره، وأن يتبنى موقف المعاصرين للنص، ويفهم النص كما فهموه في إطار معطيات اللغة التاريخية عصر نزوله ومثل هذا التصور يقع في تناقض منطقي من الوجهة الدينية الاعتقادية التي ينطلق منها أصحابه، إذ النص عندهم صالح لكل زمان ومكان لأنه يحتوي كل الحقائق ويعد جماعاً للمعرفة التامة. ومثل هذا الاعتقاد يتناقض تماماً مع القول بضرورة اعتماد المفسِّر على المأثورات المرويَّة عن الجيل الأول أو الجيل الثاني على الأكثر والوقوف عند فهمهم وتفسيرهم للنص.

ولكي يحلّ أصحاب هذا التصوُّر مثل هذا التعارض المنطقي، ذهبوا إلى أن المعرفة الدينية لا تتطور، وأن جيل الصحابة والتابعين قد أوتوا المعرفة الكاملة التامة، فيما يتصل بالوحي ومعناه، وأن التمسك بمعرفتهم هو العاصم من الزلل والانحراف. وهكذا انتهى الأمر بهم إلى عزل المعرفة الدينية عن غيرها من أنواع المعرفة من جهة وإلى إنكار تطور المعرفة الإنسانية من جهة أخرى. وهنا يعطي الباحث دليلاً تاريخياً نموذجياً على هذه الحالة ابن تيمية وتلميذه ابن القيم حيث هما من أكبر ممثلي هذا الاتجاه (ص ١٢).

والإشارة إلى هذا الاتجاه التفسيري ضرورية لكي يستقيم البحث في التأويل من وجهة نظر الصوفية وعلى التعين من وجهة نظر شيخهم الأكبر ابن عربي.

ويبرِّر الباحث اختيار ابن عربي دون سواه من المتصوفة والفلاسفة لدراسة التأويل بثلاثة أسباب رئيسة:

الأول: أهمية ابن عربي ودوره في تاريخ الفكر الإسلامي.

الثاني: إن دراسة ابن عربي نفسه تثير بشكل واسع معضلة التأويل، كما تنعكس هذه المعضلة في التفسيرات المختلفة والمتعارضة أحياناً والتي طرحت لفكر ابن عربي وقيمته.

الثالث: إحساس الباحث المبكر والذي أكدته الدراسة أن التأويل عند ابن عربي ليس مجرَّد وسيلة في مواجهة النص، بل هو



كتب

محاولة لإزالة الالتباس بين التفسير والتأويل

منهج فلسفي كامل ينتظم الوجود والنص معاً. حين أن ابن عربي يطرح لنا فلسفة في التأويل قد تساعدنا على كشف الجوانب المشابهة في فكر غيره، سواء السابقون عليه أو التالون له.

لقد جرى تقسيم البحث إلى ثلاثة أبواب والأبواب إلى فصول بحسب اقتضاء الحاجة العلمية.

الباب الثاني خصّص للتأويل والإنسان وذلك من خلال تحليل مستويات ثلاثة في تصور ابن عربي لعلاقة الإنسان بالوجود. الأول هو علاقة الإنسان بالعالم أي تحليل جوانب الاختلاف بين الإنسان والعالم من حيث ظاهره الذي يتماثل مع حقائق الكون ويضمها في كيانه الصغير.

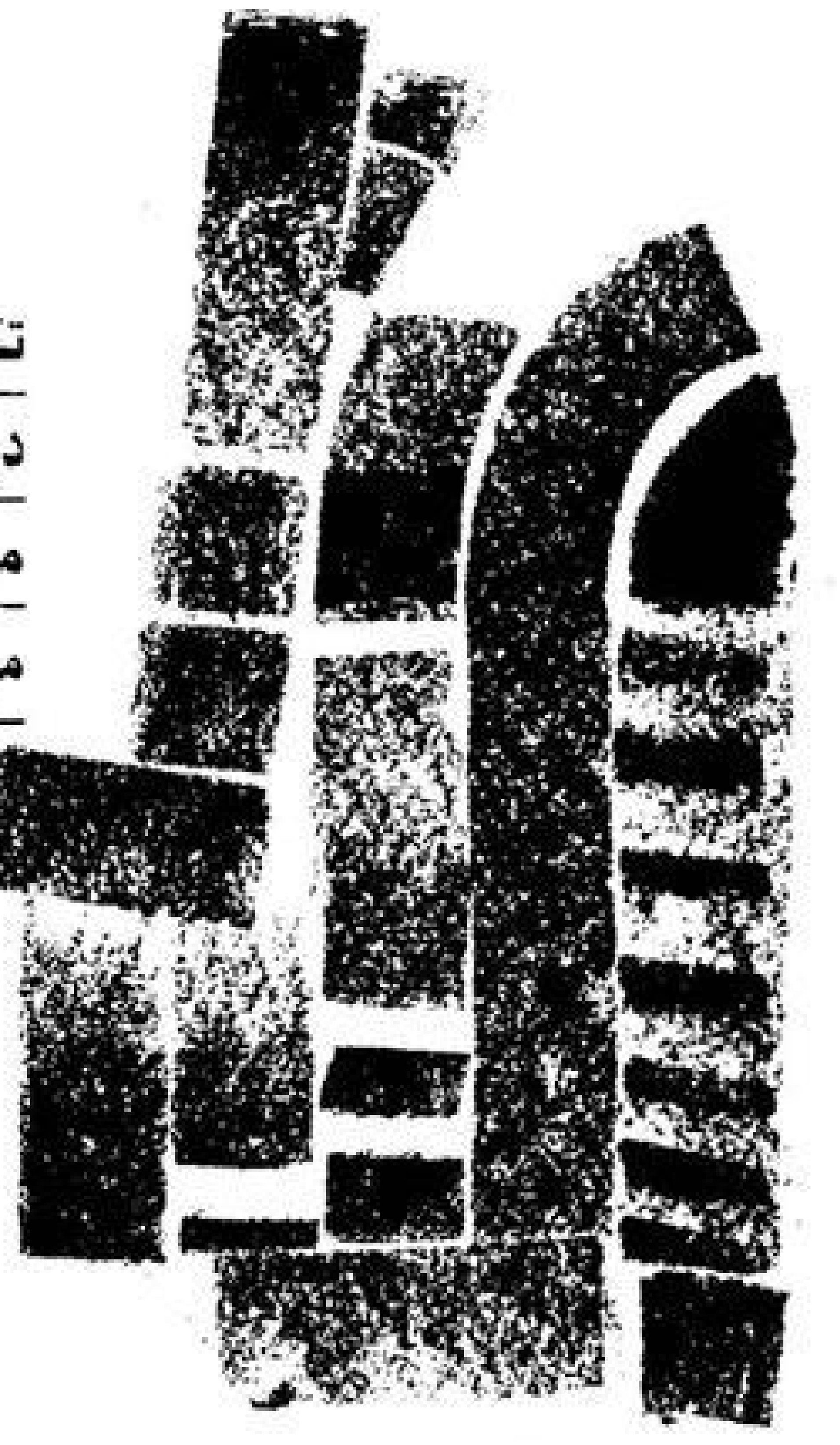
والثاني دراسة الجانب الباطن في الإنسان وتماثله لحقائق الألوهة من حيث إنه خُلِقَ على الصورة الإلهية وجمع في حقيقته وباطنه حقائق كل الأسماء الإلهية التي توجهت على إيجاد العالم.

والثالث تعرض لمعضلة المعرفة الإنسانية وتأكيد ابن عربي على أن المعرفة لا تتم إلا بتجاوز ظاهر الإنسان ـ وهو ظاهر الكون ـ إلى باطنه الروحي الإلهي من خلال رحلة خيالية.

الباب الثالث والأخير مكون من فصول ثلاثة: يهتم الفصل الأول بتحليل العلاقة بين القرآن والوجود، وتماثل مستويات النص القرآني مع مراتب الوجود الأربعة، وتماثلها مع مراتب العارفين.

والفصل الثاني خُصِّص للغة والوجود وفيه محاولة تحليل مفهوم ابن عربي للغة في جانبيها الإلهي والإنساني بدءاً من المستوى الصوتي للغة وانتهاءً إلى مستوى التركيب. وجرى التركيز في تحليل الجانب الدلالي على تأكيد ابن عربي على ذاتية العلاقة التي بين الدال والمدلول في اللغة في جانبها الإلهي. وهي العلاقة التي لا يكتشفها إلا الصوفي، من خلال اكتشافها يرى القرآن في ضوء وجودي أشمل.

وقد كان الفصل الثالث والأخير عن قضايا التأويل وفيه تحليل مفهوم التنزيه والتشبيه، والمحكم والمتشابه، والجبر والاختيار والثواب والعقاب. وهي مجرد نماذج لا يمكن الادعاء ـ بحسب الباحث ـ أنها تستوفي كل الجوانب التطبيقية لتأويل القرآن في فكر ابن عربي. □



تكوين العرب السياسي

دراسة

محمد جابر الأنصاري

مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت ١٩٩٤

خالد زيادة

الوقوف عند العتبة

■ يريد محمد جابر الأنصاري في: «تكوين العرب السياسي ومغزى الدولة القطرية» أن يقدم فهماً للواقع العربي على ضوء التطور الأبرز المتمثل في قيام الدول الوطنية التي يسميها «الدولة القطرية»، ليكون أميناً لمرجعيته القومية العربية. وحقيقة الأمر أن الأنصاري يبدو مدافعاً عن هذه الدولة القطرية التي عادة ما انتقدها ووقف ضدها دعاة الوحدة العربية باعتبارها عائقاً في سبيل تحقيق الوحدة المنشودة. وعلى هذا النحو فإن الأنصاري يريد من خلال كتابه أن يكون مجدداً في ميدان الفكر القومي العربي.

كما أنه يسعى إلى نوع من التوفيق والمصالحة ما بين الدولة القطرية من جهة، والتي هي واقع قائم، وبين نظرية القومية العربية التي تجسد أحلام القوميين العرب في دولة الوحدة أو وحدة الأمة.

ولا شك في أن الكتاب ينطلق من بديهية، لا يعتني بإبرازها أو التنويه بها على الإطلاق. وهي أن الوحدة العربية أو وحدة الأمة هو أمر لا بد أنه قادم، وهو يقول بتفاؤل لا تشوبه شائبة: «يمكننا القول إنه كلما نضج النظام القطري وحقق وظيفته التاريخية في التنمية.. كلما اقترب الموعد التاريخي للوحدة القومية وتم تجاوز المرحلة القطرية لذاتها» (ص ١٦٨). وهذا الاقتباس يعطينا فكرة عن نوع المعالجة التي يمارسها الكاتب، صحيح أنه يستشهد ويقتبس ويناقش عشرات الكتاب العرب الذين عالجوا ودونوا ملاحظاتهم وأفكارهم حول الواقع العربي الراهن والماضي، إلا أن كتابه لا نستطيع أن نعتبره عملاً منهجياً صارماً طالما أنه يتنقل من المعالجات النظرية إلى التاريخية ومما يعتبره اجتماعياً إلى الاقتصادي والجغرافي. ولهذا فإن الكتاب هو أقرب إلى المحاولة ESSAI التي لا تلتزم منهجاً محدداً بل تريد أن تستفيد من جملة مناهج ومن جملة اختصاصات انسانية واجتماعية واقتصادية.

ويتحدث الكاتب عن رؤية. يقول: «من منطلق هذه الرؤية ذاتها، يتم الاقتراب في القسمين الثاني والثالث من إشكالية الدولة القطرية باعتبارها الظاهرة والحقيقة السياسية الكبرى في حياة العرب... فيتناول الفصل الرابع ظاهرة «فصام» العرب بالدولة القطرية على صعيد الوعي الملتبس... بينما يقارب الفصل الخامس حقيقة ذلك الفصام في دراسة تطبيقية تاريخية.. الخ» (ص ١١). فهناك السياسة وهناك الفصام والوعي الملتبس وهناك التاريخ ولا يكتفي بذلك بل يطالب في الصفحة التالية بتأسيس علم اجتماع عربي جديد. ولكن ذلك لا يعني أن

المؤلف سيعمد إلى المواءمة بين هذه العلوم جميعها، فهو عادة ما يلجأ، إلى الاستنتاجات والمقارنات التي تخدم وجهة النظر التي يريد أن يتوصل إليها.

يتحدث المؤلف عن أزمة في الفصل الأول، وهو يعتقد بأن للأزمة الراهنة امتداد في الماضي، وهو يعود قروناً إلى الوراء: إلى «أول ما يلفت نظر المتأمل والباحث في التاريخ السياسي الإسلامي ويثير دهشته ظاهرة تفجر الصراع الشديد والحروب الأهلية العنيفة التي طبعت الحياة السياسية منذ العصر الراشدي..» (ص ٢١). ويقول: «والنتيجة التي تفرض نفسها على الباحث هنا هي أن تاريخ العرب والإسلام كان عبارة عن تسابق تراجيدي خطير بين بناء، حضاري وصراع انتحاري..» (ص ٢٣) «وهذا الاضطراب الذي شمل الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية منذ نشأتها يجب أن يُرد في النهاية إلى خلفيتيه التاريخية والواقعية قبل الإسلام وفي التاريخ العربي القديم» (ص ٢٧). ويخلص: «من هذه القاعدة والخلفية التاريخية السياسية بدأ العرب في العصر الحديث تجاربهم في السياسة والدولة والأحزاب والمعارضة. وكما تبيّن، فإنه إرث سياسي مثقل بالأعباء والإشكالات، خصوصاً أن العرب المحدثين لم يرثوا عصر المجد السياسي العربي وإنما كانوا، بتكوينهم المجتمعي التاريخي، نتاج قرون طويلة من الحكم المملوكي..» (ص ٢٩ - ٣٠).

يريد المؤلف أن نصدق بأن أزمتنا الراهنة، التي لا نجد توصيفاً محدداً لها هي نتاج الجاهلية والعصر الإسلامي الأول، وهو لا يجد غضاضة من أن يضيف بأننا ورثنا إرثاً مملوكياً. فيقفز هكذا في تاريخ طويل قفزات غير محسوبة دون أن يعود إلى التاريخ الأقرب الذي لعله ترك آثاراً أكثر بروزاً في الحاضر. وحين يصل إلى الدولة القطرية وإبراز حسناتها، لا يجد أن المطلوب أن يذكر لنا كيف انبثقت الدولة هذه من قلب التشتت ومن هي القوى التي عملتها وتبنتها. فهل ثمة قوى وطبقات وفئات اجتماعية كان لها مصلحة في إنهاء، التشرذم القبلي والعشائري؟ أم أن الدول المنتدبة هي التي فرضت هذه الوحدات الإقليمية أو القطرية وفق نموذج الدولة في أوروبا؟ لا نجد أي إشارات إلى ذلك سوى قوله وخوضه في تأثير الجغرافيا. وإذا كانت: «الدولة القطرية تمثل أول محاولة عربية حديثة في الوحدة والدولة» (ص ١١)، فإننا لا نجد سوى الجغرافيا عاملاً أسهم في قيامها: «الفراغات والفواصل والحواجز الصحراوية الشاسعة الممتدة بين معظم الأقطار العربية في تقطيع وتجزئة المنطقة العربية عمرانياً وسكانياً وبالتالي مجتمعياً وسياسياً..» (ص ٣٨). وإذا كانت الجغرافيا قد أعاقت قيام دولة الوحدة فإنها أدت إلى انبثاق الدول القطرية.

يعطي الأنصاري للجغرافيا دوراً فائقاً إلى درجة انه يطالب بتأسيس فلسفة جغرافية، ومع ذلك لا يوضح لنا الحدود بين الفلسفة والعلم والايديولوجيا، يقول: «فكيف نعيد تأسيس «الفلسفة» الجغرافية الموحدة لإقليم الوطن العربي، تأسسها على واقع العلم قبل تصورات الايديولوجيا، فلا ايديولوجيا فاعلة بدون معرفة علمية محققة» (ص ٦٠).

بعد هذه المداخل يمكننا الوصول إلى الخطوط الأساسية للأفكار التي توجه الأنصاري في كتابه. فالفكرة الرئيسية هي قيام دولة مركزية توحد المجال الجغرافي، ومن هنا يرى بأن الدولة العربية كانت دائماً هلامية في التاريخ لأنها لم تحقق ذلك. ويعتقد أن الصين تقدم النموذج المثالي التاريخي بسورها العظيم: «ففي الصين، مثلاً، نجد - تاريخياً وحتى الآن - أن الفرد الصيني ينتمي إلى الأمة والثقافة والحضارة الصينية.. إلى الدولة الصينية الواحدة.. دون أن يتوزع أو يتوتر ولاؤه» (ص ٩٢). وكذلك الدولة الأوروبية: «وفي أوروبا، إذا كان الفرد ينتمي إلى الثقافة والحضارة الأوروبية بعامة، وإلى دولته القومية من بريطانية أو فرنسية أو المانية بخاصة، فإنه ليس ثمة تصادم أو توتر بين الجانبين» (ص ٩٢). وعنده أن الدولة هي وليدة الإقطاع لا محالة، ومن هنا استشهاده بشارل عيساوي في حديثه عن اليابان. يقول: «من الأهمية بمكان التنبه إلى أن الإقطاع الياباني بعد أربعة قرون من بدايته المجزأة قد نجح

هل أزمتنا الراهنة نتاج العصر الإسلامي الأول؟

في التحول إلى إقطاع مركزي أخذت فيه الإقطاعيات الكبيرة القوية والفعالة تضم تدريجاً الإقطاعيات الأصغر منها.. بحيث اقتربت اليابان.. من مشروع واقعي قائم على الأرض للوحدة القومية» (ص ١٦٢).

لكن العرب لم يعرفوا الإقطاع. ويفرد فصلاً من الكتاب ليفند ما جاء به الماركسيون العرب حول مقولة الإقطاع العربي. وخلاصة الأمر عنده هو التالي: إذا كان الإقطاع الغربي الأوروبي والياباني قد مهد لقيام الدولة القومية فإن الدولة القطرية هي إقطاع مؤجل تقوم بمهات المرحلة الإقطاعية. ويضع جدولاً بين ما أنجزته الكيانات الإقطاعية الفيدرالية في أوروبا ليقارنه بجدول إنجازات الكيانات القطرية العربية. ويؤكد ما يلي: «ما يهمنا التأكيد عليه هنا هو هذا التماثل التاريخي المقارن بين الكيانية الإقطاعية الفيدرالية ودورها في التوحيد القومي - بأوروبا الغربية واليابان على الأخص - وبين الكيانية القطرية «الوطنية» في الوطن العربي، بصورة دالة على أن هذا التماثل والتشابه لا يمكن أن يكون مجرد مصادفة. وإن ظاهرة الدولة القطرية مرشحة لأن تصل - موضوعياً - إلى حيث وصلت الظاهرة الإقطاعية - جدلياً - من التجزئة إلى الوحدة» (ص ١٧٠).

وإذا لم تكن التشابهات بين الفيدرالية الغربية والقطريات العربية مجرد مصادفة،



فينبغي أن تكون قانوناً. لكن المؤلف لا يحدثنا عن هذا القانون وقواعده التي تخلق التماثل بين تجربة أوروبية في القرون الوسطى وبين تجارب عربية، وغير عربية أيضاً، في القرن العشرين، ولو أنه اجتهد قليلاً لذكر لنا كيف أن الدولة القطرية ليست إلا تقليداً للدولة القومية الأوروبية بنظريتها ودساتيرها وبرامجها في المركزية وقيادة المجتمع والتخطيط له. ولعله كان حل الإشكال النظري الذي يريد أن يطرحه علينا على شكل أمنية يريد أن يصل من خلالها من الدولة القطرية إلى الوحدة.

لا يمكن الخوض في نقاش طويل مع الأنصاري سوى تذكيره ببعض الأمور وأبرزها: أن العوائق الجغرافية التي قطعت المجال العربي يمكنها أن تتسرب إلى داخل دولة القطرية، فالصحاري لا تفصل بين دول بل تفصل بين أقاليم ومدن داخل «القطر» الواحد: كليبيا والجزائر ومصر والسعودية، فينبغي أخذ الحيطة والحذر النظرين من تسرب آثار الجغرافية الانفصالية إلى داخل الأقطار. وإذا كان يرى بأن الدولة القطرية هي الطريق إلى الوحدة، ونحن نأمل معه ونتمنى ذلك، إلا أننا نخشى أن تكون الدولة القطرية قد رفعت الخلافات والأحقاد القبلية إلى مستوى الحكومات والدولة (مثال اليمن).

وفي جميع الأحوال فإن الأنصاري الذي أراد أن يجدد قد بقي أسير ما ينتقده، فإذا كان ينتقد الماركسيين لأنهم تحدثوا عن إقطاع عربي وفند خطأ مقولاتهم محقاً، فإنه وقع في حتمية ماركسية حين أراد أن يؤكد ضرورة المرور بمرحلة إقطاعية ولو عن طريق الدولة القطرية كما يسميها. وهو حين أراد أن يكون مجدداً في الفكر القومي العربي، وأراد أن يستوعب إيجابياً تجربة الدولة القطرية، فإنه لم يعتبرها سوى عتبة للوحدة الشاملة فرجع إلى بداية الفكر القومي.. الخ. الخ. □

جرس الطفولة

وش الفجر
قصص
يوسف أبو ريّة
مختارات فصول - القاهرة ١٩٩٣

ابراهيم صموئيل



■ يقسّم يوسف أبو ريّة مجموعته إلى قسمين، في الأول منها يقدّم لنا لقطات أو لوحات مشغولة بكثافة شديدة تذهب إلى تحييد كل التفاصيل والزوائد والترهلات لتبقي على الخطوط الرئيسة، والألوان الأساسية التي يصعب حذف أي منها أو اختصاره.

اثنتا عشرة قصة - في القسم الأول - ترصد الزوايا الحارة من حياة القرية، والمفاصل الدالة على حيوات سكانها، علاقاتهم، أحلامهم، أسرارهم، وانكساراتهم. وقد كشف هذا الرصد عن تجربة الكاتب العميقة في بيئته من جهة، وتمكّنه من التقاط التفاصيل البسيطة واستخدامها جمالياً من جهة أخرى.

من هنا، يلغي الكاتب كل التفاصيل عن حياة الأب والأم في قصة «خطوة» ليقدّم الوليد الصغير صاحب البلبل الراقد بين فخذيه. ونكاد لا نعرف شيئاً عن المرأة الراقدة في مقبرتها «تسفّ الرغام، تخضع لتعاقب الليل والنهار» إلا ببضع إشارات بالغة الاختزال. ويتكرّر الأمر مع والدة (محمد) في قصة «الأسود»، وأسرة «الولد الكفيف» الذي يرى في الحلم، ومعظم قصص القسم الأول.

هذه الغاية هي التي دفعت القاص - كما أقدّر - إلى أن يسهب في مواضع، كشرب الماء أو وصف المقبرة، ويقنّن في مواضع غيرها، كبيان الوضع الاجتماعي لأسرة، أو الطباع الخاصة لشخصية، أو منشأ العلاقة فيما بين الشخصيات أو الأحداث الناظمة للقصة.

هكذا تراه في قصة «بيت وحيد» - وهي لا تتجاوز مائتي كلمة - يتوقف عند المقبرة ليقول: «تأتيها الشمس بالذباب الأزرق الجسور، وبالنور يكشف البكاء على الشواهد المجاورة ويفضح وحدتها، بينما الليل يقبع في عباءته الشيطان والملاك... إلخ». أو يفيض بالشرح التفصيلي لشرب الماء في قصة «محروم» إذ يقول: «ورفعت القلة إلى أعلى ليسقط ماؤها في خيط رفيع يبرق في نور عمود الشارع، ويتلقف الفم بعضه، ويسيل الباقي على الصدر متخذاً فلقة النهدين... إلخ».

إلى الغاية السابقة يمكن أن نضيف توقاً بدا واضحاً لدى يوسف وهو: شهوة التصوير. فهو شغوف بالمشهد، مشغول بالمرئي، يقصّ بعينيه أو بما يقع على سطحها من العالم الخارجي، لذا ترى قصصه أقرب إلى مشاهد سينمائية مرسومة بمهارة مصوّر خبر علاقة الظل بالنور، وأهمية الزاوية ودلالة الفسحة وجماليات المكان عموماً.

ومن المؤكد أن هذا الشغف بالبيئة والمكان لم يكن مجانياً، بل كان جمالياً ودلالياً في آن، قصد منه تحقيق الإدغام بين هواجس شخصياته وأحوال المكان وتجليات الطبيعة. لنقرأ المقطع التالي من قصة «المحروم»:

«وسمعت الباب القديم للحوش يزيق، ويفتح بحذر، وأطلت بعين واحدة، فرأت الشجرة الكبيرة تُسقط أخيلة أغصانها على بركة الطلمبة، والكون - المحاط بسور قديم - ساكناً إلا من خربشات الدجاج، وصياح الديكة الذي يتردد من الحظيرة البعيدة».

ثم لنلاحظ كيف ينسج بين قلق المرأة وفضولها و«قلق» المكان وغموضه.

وليس من سبيل - كما يبدو - لتحريض الدهشة وحفز التأمل عند القارىء سوى النظر بعيون الأولاد، وهو ما فعله يوسف أبو ريّة، إذ محور معظم قصصه حول الأولاد ليتمكّن من إعادتنا - نحن القراء الكبار - ولو لدقائق إلى يناعة طفولتنا وجرس قرانا اللذين راكمت السنون عليهما طبقات من الصدأ والتلبّد والنسيان.

ضعف التكثيف في قصص القسم الثاني من المجموعة، والذي عنونه بـ«سوداء في المقهى» وإن ظل القاص يحرص على بناء جملته - كما في قصص القسم الأول - بناء مغايراً لمألوف الكلام السردي العادي كأن يقدّم الخبر على المبتدأ أو الفاعل على الفعل أو الصفة على الموصوف، أو تراه يحذف بعض الأسماء الموصولة أو حروف العطف والجر وما إلى ذلك بما يتفق ورغبة الكاتب في شحن لغته ومفرداته بطاقة جديدة على التأثير والتعبير. كما وضحت أحداث قصص هذا القسم وتسلسلت على غير ما كانت عليه قصص القسم الأول، أي أنها لم تقم في بنائها على جملة واحدة، أو إشارات خاطفة وعبارات قصيرة، لا تعدو مفردة واحدة أحياناً - كما لو كانت المفتاح المعدني الصغير لولوج البيت الفسيح - كما لاحظنا في القصص الأولى من المجموعة.

لقد تمكنت القصص في مجموعها، من إدخال القارىء إلى مناخاتها وعوالمها... إلى أجواء البيئة التي عبرت عنها، إلا أن ذلك لم يحلّ إشكالية ظهرت بجلاء، وهي أن قصة بمفردها لا تملك القوة اللازمة للثبات في ذهن القارىء كما بدا لي. إنها تنزلق حال انتهاء قراءتها لتحلّ محلها قصة أخرى سرعان ما تنزلق كسابقتها في هاوية النسيان. وعلة ذلك، في تقديري، شغف يوسف بالتصوير واندفاعه لتحقيقه على حساب الأحداث والوقائع وأهمية بنائها درامياً. تلامسك الحالة أثناء القراءة ثم تتبدد بعدها، تغور في صورة ضبابية كما لو كنت قرأت القصص منذ زمن بعيد. إنها لوحات مرسومة بمهارة لكن ألوانها وخطوطها سرعان ما تبهت في ذاكرة القارىء وتّمحي من داخله.

وإلى ذلك، وربما في سياقه، فقد أسهم غياب خواتم القصص في نمو تلك الإشكالية واتضاحها، هذا التغييب المتعمد من القاص، الذي لا يشبه في شيء الخواتم المفتوحة على احتمالات متعددة، قد جاء مبتوراً بتراً في معظم القصص مما يثير التساؤل عن الغاية والقصد من ذلك، خصوصاً وأننا نعلم - كما يعلم يوسف حتماً - أن افتتاحيات القصص وخواتمها إلى بنائها الدرامي وكثافتها من أبرز سمات نجاحها وبنيتها. □



أحمد عمران
سورية

باب الإجتهاد أغلقته السياسة

ردّ على مقالة محمد شحرور «الأسوة الحسنة» في العدد ٧١ أيار / مايو ١٩٩٤

■ طالعت في مجلة «الناقد» بعدد مايو/ أيار سنة ١٩٩٤ مقالة بقلم «محمد شحرور» تحت عنوان «الأسوة الحسنة ـ الطاعة لمحمد الإنسان ـ أم لمحمد الرسول» وقد قدمته المجلة إلى القراء بالعبارة التالية: «محمد شحرور ناقد سوري صدر له: «الكتاب والقرآن ـ قراءة معاصرة»».

ولما كنت موشكاً على الانتهاء من كتاب حول «القراءة المعاصرة» لم يكن من الصعب اكتشاف أن «المقالة هي عبارة عن مختصر لبعض الأفكار التي كانت قد احتلت الباب الثالث من كتابه بكامل فصوله الأربعة تقريباً. لذلك بادرت إلى كتابة هذا التعليق، بمثابة «قول على قول» مبتدئاً بتحديد أفكار كاتب المقالة كالآتي:

١ ـ تعريف الأسوة الحسنة ـ علماً وعملاً.
٢ ـ مدى الإلزام القرآني بطاعة الرسول.
٣ ـ الفرق بين النبي والرسول في شخص «محمد بن عبدالله».
٤ ـ حول أولي الأمر ـ تعريفهم وطاعتهم.

الأسوة الحسنة

تساءل الكاتب قائلاً: ما هي الأسوة الحسنة التي يجب علينا اتباعها والتي تعتبر خطاً عاماً وضعه الرسول للمسلمين؟ ثم أجاب: «الأسوة الحسنة تتمثل في الحركة ضمن حدود الله مضافاً إليها الأعراف السائدة». فكررَّ بهذا التعريف ما كان قد وضعه في الصفحة ٥٤٥ من كتابه من فارق وحيد هو أنه في «القراءة المعاصرة» ربط ما بين آية الأسوة الحسنة[١] وبين حديثين منسوبين إلى النبي جمع، بأحدهما بين القرآن والسبع المثاني[٢]، وجمع بالآخر بين الكتاب والسنة[٣] وجعل من الآية والحديثين عنواناً ومنطلقاً لأفكار الباب الثالث من القراءة المعاصرة[٤].

نعود إلى السؤال الذي طرحه كاتب المقالة المؤلف: ما هي الأسوة الحسنة؟ هل هي خط عام وضعه الرسول للمسلمين، يتمثل في نهجه الحياتي؟ وهل يعتبر نهجه الحياتي الخاص فيما انطوى عليه من قول أو عمل داخلاً في المطلق بين المناهج والقيم التي تدخل في ميزان الإسلام وصدق الإيمان؟!؟

الأسوة الحسنة، تعبير قرآني ورد في آيات ثلاث، تحددت مناسبة وموضوع كل منها بوضوح لا يحتمل التوسع أو التزيد أو القياس.

ففي الآية من سورة الممتحنة ورد الخطاب إلى المؤمنين لكي يكون لهم في إبراهيم والذين معه أسوة حسنة في أمور معينة وهي «مصادمة الكافرين» و«التبرؤ منهم» و«مما يعبدون من دون الله» وتابعت الآية عينها حض المؤمنين على التأسي بإبراهيم ومن معه: «قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده. . .».

أمّا الأسوة الحسنة في الرسول، فقد جاءت وحيدة، بوضع رسولي خاص ومحدد، هي الآية ٢١ من سورة الأحزاب التي أنبت المنافقين إذ تخاذلوا في معركة الأحزاب عندما اجتمع اليهود بأجمعهم والمشركون بأسرهم وحاصروا المدينة من وراء الخندق الذي احتفره الرسول. فكان الرسول في مقدمة المحاربين قدوةً لهم وأسوةً ومثالاً.

في هذه الآية، ورد تعبير الأسوة الحسنة، وهو تعبير مرتبط بأسبابه، وليس من الأسباب ما يفيد أن الأسوة الحسنة المنصوص عليها، هي النهج الحياتي للرسول، أو هي الخط العام الذي دخل في المطلق الإسلامي وأصبح من بين موازين الإيمان والكفر.

هنا نحب التنويه بحديث عن السيدة عائشة إذ أجابت من سألها عن خلق النبي بقولها: «كان خلقه القرآن» وهذا يعني أن الأسوة الحسنة الحقيقية الملزمة للجميع، رسولاً ومؤمنين، هي في اتباع

القرآن والتخلّق بأخلاقه. فالمؤلف لم يكن في حاجة - في رأينا - إلى قراءة القرآن «قراءة معاصرة» ليثبت أن نهج الرسول الحياتي أي أخلاقه العامة هي أخلاق القرآن. وأن التأسي بالقرآن هو المطلوب من الرسول ومن المسلمين كافة. وبالتالي لم يكن ثمّة حاجة إلى تسخير الآية ٢١ من سورة الأحزاب في غير أغراضها المحددة.

طاعة الرسول

قال كاتب المقالة:

١ - لقد أثبت الذكر الحكيم ثلاثة مقامات أساسية للنبي هي: «محمد الرجل الإنسان» و«محمد الرسول» و«محمد النبي» فالطاعة في القرآن هي لمحمد الرسول وليس لمحمد النبي. لأن الرسالة تتحرك بالأحكام والعبادات والتقوى ومناط ذلك جميعه، هو في أم الكتاب التي بموجبها أصبح محمد رسولاً. وبها وجبت طاعته. أما النبي فمناط نبوته القرآن والسبع المثاني، وهما مجموع الآيات المتشابهات التي لا يبنى عليها حكم شرعي ولا تحتمل الطاعة ولا المعصية.

٢ - والطاعة الرسولية نوعان، متصلة ومنفصلة، ولكل منهما ميزانها الشرعي والتشريعي، فما كان منها متصلاً بطاعة الله يكون مثل طاعة الله تماماً. وهما مستمرتان إلى الأبد. أما المنفصلة فهي تختلف عن طاعة الله، وهي متوجبة حال حياة الرسول وغير متوجبة بعد مماته.

٣ - وقد تحددت الطاعتان تحديداً قاطعاً في الآيات القرآنية، فما كان منها بصيغة «وأطيعوا الله والرسول» فهو من المتصل الذي وجب إلى الأبد وما كان منها بصيغة «وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول» فهو من النوع المنفصل[١].

بعد هذا التحديد الواضح صار في مقدور أي قارىء أن يجدد - على مسؤولية الكاتب - أين ومتى توجبت وتتوجب كل من الطاعتين. وذلك باستعادة قراءة آيات الطاعة في القرآن. ولكنه قبل ذلك عليه أن يعود إلى القراءة المعاصرة التي هي الأصل الفكري للمقالة ليجد مواضع كل من الطاعتين، محددة ومفصلة كالآتي:

- فالطاعة المتصلة، جاءت حصراً في «الحدود» و«العبادات» و«الأخلاق - الصراط المستقيم -»[٢].

- والطاعة المنفصلة، جاءت حصراً في «الأمور والقرارات التي مارسها الرسول كرئيس دولة وكقاض وكقائد عسكري وفي الأمور المعاشية»[٣].

وهذا التحديد، ورد باختصار في العمود الثاني من ص - ٥ وكامل الصفحة ٦ - من مقالة «الناقد». بعد هذا ولكي يكون القارىء على بينة من مدى انطباق أقوال الكاتب المؤلف على القرآن نورد آيات الطاعتين. كل منها، متبوعة بتعليق مختصر. كالآتي:

آيات الطاعة المتصلة

«يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون. واتقوا النار التي أعِدَّت للكافرين وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون» (سورة آل عمران، الآيات ١٣٠ - ١٣٢). فالأمر بالطاعة استهدف نوعين من المحظورات هما: ١ - الامتناع عن أكل الربا، وهو يدخل في باب التشريع أي في مقام الرسالة والطاعة فيه متصلة. ٢ - اتقاء النار بالإيمان، وهذا من مقام النبوة والطاعة فيه منفصلة. ومع ذلك ورد في آية واحدة بطاعة متصلة. «فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً... ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقاً» (سورة النساء، الآيتان ٦٥ و٦٩). إن الأمر بالطاعة ينصب على حكم مارسه رسول الله كقاضٍ وكرئيس وكان ينبغي أن يدرج في الطاعة المنفصلة، ولكنه - خلافاً لنظرية المؤلف الكاتب - أدرج في الطاعة المتصلة. «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون. ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون» (سورة الأنفال، الآيتان ٢٠ و٢١).



من أجل معرفة الأمور التي جاء فيها الإلزام بالطاعة، عدنا إلى ما سبق من الآيات. فتبين أن الآية ١٥ من سورة الأنفال جاء فيها الأمر بعدم الهروب من مواجهة العدو في القتال. وفي الآية ١٦ - توعد الهاربين بأن مأواهم جهنم والآيات ١٧ - ١٨ - ١٩ فيها حديث الوحي مع النبي عن النصر الذي حققه الله له. فجميع هذه الأمور هي حربية تتوزع بين عمل القيادة وواجبات المحاربين. وكان يجب أن تأتي فيها طاعة الرسول منفصلة عن طاعة الله، ولكنها جاءت متصلة خلافاً لنظرية الكاتب. كذلك الآيتان: ٤٥ و٤٦ من سورة الأنفال تحركتا ضمن المفاهيم العسكرية، فكان ينتظر - بمقتضى النظرية - أن تكون من الطاعة المنفصلة، ولكنها جاءت متصلة: «يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون. وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين».

آيات الطاعة المنفصلة

«أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلامُ رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون... وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين» (سورة المائدة، الآيتان ٩٠ و٩٢). فالطاعة، هي في اجتناب تلك الموبقات. ومع ذلك جاءت منفصلة. أي إنها بمقتضى النظرية، يسقط الإلزام بها بعد موت الرسول.

ويمكن لأي كان أن يتصور مدى الحرج التشريعي والأخلاقي إذا صارت هذه المحظورات من المباحات. ولا يخفف من أهمية هذا الحذر - قول المؤلف إن الحدود عامة، مستثناة من هذا الحكم. ويظل الإلزام بالامتناع عن خرقها مستمراً على الدوام. لأن «الأزلام، والأنصاب، والميسر» ليست من الحدود التي ورد ذكرها وتعدادها في الآيات ٦ - ١٢ من سورة النساء وصار تلخيص الحكم فيها بصورة عامة في الآية ١٣ من السورة عينها: «تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات». «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نِعمّا يعظكُم به إن الله كان سميعاً بصيراً. يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول» (سورة النساء، الآيتان ٥٨ و٥٩).

فتأدية الأمانات والحكم بالعدل، والتماس حل النزاع من كتاب الله وقضاء رسوله، ليست من الأمور اليومية التي تنقضي الحاجة إليها، ويسقط الإلزام بها بموت النبي بل هي من رواسخ الحياة والقواعد الدينية الدائمة مما كان ينبغي بمقتضى النظرية أن تكون من



الطاعات المتصلة.

توزيع شخصية محمد عند المؤلف

محمد الإنسان: الذي مارس الحياة مثل باقي الناس.

محمد الرسول: الذي تمثلت رسالته في «أم الكتاب» وهي مجموعة الأحكام والحدود والعبادات والتشريع والتقوى.

محمد النبي: وقد تمثلت نبوته في القرآن الذي تجمعت فيه العلوم الكونية وإعجاز الخلق والحياة والموت والبعث والنشور والجنة والنار والمغيبات التاريخية وما وراء الطبيعة.

هذه الشخصيات - يقول المؤلف - تتحرك كل منها في فضائها الخاص على وجه الاستقلال عن ما عداها فهي لا تتجاوز ولا تقبل التجاوز. والفارق بينها، ليس فقط في النشاط، بل في الماهية والمآل.

وفي تتبعنا لعدد من الآيات وجدنا أن نظرية المؤلف تقوم على الافتراض، وليس على اليقين العلمي. فمن هذه الآيات ما أضافت تعبير «النبي» إلى مواضع صنّفها الكاتب في القرآن. ومنها ما أضافت تعبير «الرسول» إلى مواضع صنّفها الكاتب بأم الكتاب: «وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً» (سورة الفرقان، الآية ٣٠). «يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين» (سورة الأحزاب، الآية الأولى).

وبعد:

ففي الآية ٦٧ من سورة المائدة تعميم يكتسح التجزئة: «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس». وهذا يدل على أن جميع ما أنزل إلى الرسول من الفاتحة حتى آخر سورة الناس، داخل في تكليف الرسول من حيث وجوب تبليغه إلى الناس. أي إن رسالة محمد اشتملت على تكليفين أولهما: الإنباء بالعلوم والمعارف والإعجاز الكوني وغيرها. والثاني الإخبار بالحدود والأحكام والعبادات والتقوى. وفي الآيتين ٤٥ و٤٦ من سورة الأحزاب صراحةٌ في أن النبي هو رسول: «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً».

حول أولي الأمر - تعريفهم وطاعتهم

لم يتفق العلماء على تعيين المقصود بأولي الأمر. فقد قال الكثيرون منهم أن «أولي الأمر» هم العلماء الذين يستطيعون استنباط حدود الله وطاعته من الكتاب فهؤلاء الذين لهم الأمر في الشرع. وقد أطلقت عليهم كتب أصول الفقه «اسم أهل الحل والعقد». أما الحاكم، فلا يطلق عليه هذا الاسم، لأنه بمقتضى طبيعة الحكم فيه لا يأمر - غالباً - إلا بالظلم. وقد اتفق رواة الحديث على عددٍ كبير من الأحاديث تخرج الحاكم الظالم، من هذا التعريف: مثل «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» و«إنما الطاعة بالمعروف» و«أعظم الجهاد عند الله كلمة حق تقولها في وجه حاكم ظالم». وتفسير المؤلف لظاهرة الاستبداد السياسي في تاريخ الحكام بقبول المسلمين للآية ٥٩ من سورة النساء، على أن طاعة الحاكم، هي قدر لازم من الله. فإنه تفسير خاطىء.

لأن استخزاء الشعب أمام الحاكم الظالم، كان اتقاءً من وسائل القمع والبطش التي كان يمارسها الحكام ولم يكن التفاف المنافقين من القراء والعلماء حول السلطان، والالتواء بالآية إلى غير مقاصدها الإلهية، ووضع الأحاديث المكذوبة عن رسول الله إلا عاملاً مساعداً، ولكنه لم يكن العامل الأساس ولا الرئيس. فالقلة من الدهماء هي التي أصاخت بآذانها إلى رواة السوء يروون - زوراً وبهتاناً - عن الرسول: «اسمعوا وأطيعوا ولَو وُلي عليكم عبدٌ كأن رأسه زبيبة». أما أولو الإيمان والألباب فقد فهموا من تلك الآية: أن الطاعة المأمور بها ليست طاعة على الجهل، ولا الكفر والمعصية. بل هي طاعة في حدود الله، ومرضاته، خاضعة لتبادل الرأي، ومرشحة لحصول الاختلاف والنزاع في التفسير وإذ ذاك يكون أولو الأمر، من حكام وعلماء، طرفاً في هذا النزاع يفصل فيه كتاب الله ورسوله. فلا يستقلون بفرضه ويتساوى أمام الكتاب طالب الطاعة والمطلوبة منه. كما أن الآية عينها ربطت الطاعة بالقبول والقناعة، وأخضعتها للنقاش وانتهت بهذه الصراحة: «فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول» (سورة النساء، الآية ٥٩).

ماذا عن الاجتهاد؟

ألقى المؤلف باللائمة على «إغلاق باب الاجتهاد» واعتبره العامل الأساسي في تخلف المسلمين عن الآخرين. وتجمدهم على جميع ما مضى، مما سمَّرهم في قواقع القرن الرابع الهجري مسبوقين بعشرة قرون من الحضارة. نحن لا ننفي قيام الفارق الحضاري. ولكننا نرى الكاتب يلتفت عن أبرز أسباب التخلف إلى أدناها. فالاجتهاد لم يغلق بنص كتاب الله أو سنة من رسوله. بل أغلقته ظروف سياسية، كانت لها السطوة والسلطان على الاجتهاد وسواه. والقائلون بإغلاقه لم يزعموا أنهم ينفذون حكماً قرآنياً أو سنة رسولية، أو نهجاً راشدياً. لذلك لم تجد الدول والحكومات الإسلامية حائلاً دينياً أو حاجزاً شرعياً، يمنعها من تطوير وتوسيع اجتهاداتها، ووضع الشرائع والأنظمة والأوامر التي تجاوزت اجتهادات الفقهاء الأربعة الذين كانوا قد أغلقوا الباب على أنفسهم وعلى الآخرين. □



(١) «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله اليوم الآخر وذكر الله كثيراً» (سورة الأحزاب، الآية ٢١).

(٢) الحديث: «أوتيت القرآن ومثله معه».

(٣) الحديث: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه».

(٤) ص - ٩٦.

(٥) العمود الثاني من ص - ٥ من المقالة. والعمود الأول من ص - ٦ - منها.

(٦) ص - ٥٥٠.

(٧) ص - ٥٥٢.



عبد الحميد باحوص
قاص من المغرب

متى كان الانتحار مُخْلِصاً

ردّ على مقالة أبو فخر «الموت النبيل» في العدد ٧٠، نيسان (ابريل) ١٩٩٤

■ سيظل الموت كلغز إنساني وفلسفي، من الألغاز التي يضيع في أنفاقها المعتمة، كل من يتصدى لها بالمساءلة والحوار.. . فلا الشاعر ولا المفكر ولا العالم ولا الفيلسوف بقادر على فك طلاسمها، إلا بالقدر الذي يبقي السؤال حولها مسعَّراً.

السؤال، هنا، نقيض للموت، أي حياة، بعد أن يجرف «هادم اللذات» الكائن البشري المبدع طبعاً. إذاً، ليس هناك من موت سوى غياب جسدي، يفنى صاحبه بمجرد أن يطويه التراب، ولن تطويه الذاكرة المعرفية. لنتذكر: هوميروس، امرؤ القيس، أينشتاين، إزراباوند، إليوت، السياب.. . فما قدموه للمعرفة الإنسانية من إبداع، لكفيل بأن نعتبر موتهم، ديمومة في الحياة وتالياً نبيلاً:

ـ ديمومة في الحياة، لأنهم أرسوا ما يخلد حياتهم في إبداعاتهم.

ـ نبيلاً، لانتقالهم إلى «العالم الآخر»، بخطى واثقة يقوم بها من كان وجوده منفعلاً وفاعلاً في الحياة البشرية.

أي موت هو الإنتحار ممارساً من طرف شعرائنا ومبدعينا العرب، حتى تنعته «بالنبيل»؟

إن الإنتحار حسب صقر أبو فخر يدخل ضمن «الموت الإرادي» المختلف عن «الموت الطبيعي»، من حيث كون الأول يذهب إليه الإنسان، أما الثاني فينتظر أن يأتي إليه.

هذا الإختلاف بين هذين النمطين من الموت، يوحد اشتمالها على مصير مأسوي مشترك، وفي رأيي أن «الموت الإرادي» ـ الإنتحار يطال ثلة ليست بالقليلة من الشعراء والمبدعين في وطننا العربي، إذ نصيبهم من هذا المصير المأسوي أوفر، وطريقة الموت بهذا الشكل، تكشف أن العالم المعيش أصبح لا يطاق العيش فيه، قد انسدت طرقه، وانطبق بعضها على البعض بحيث غدت لا تؤدي إلا إلى نفسها.

إنها الدائرة المفرغة أو الدوامة، وسمّها ما شئت.. .

صحيح أن الإحباطات والصدمات بكافة أشكالها وألوانها (نفسية اجتماعية وتاريخية أو متداخلة بين كل هذه) تتعدد في وطننا العربي إلى حد الخبل، سواء التي يبدو الشعراء والمبدعون قريبين منها أو بعيدين، لكن ليس الأمر الذي يدفع بهم إلى «الموت الإرادي» انتحاراً، واضعين حداً لحياتهم في مأسوية مرعبة أشد الرعب، كان من المفروض تحويلها (الإحباطات والصدمات) كطلقة نارية مصوبة نحو الذين يختلسون المستضعفين على هذه الأرض، ولو بكلمة مبدعة، «وذلك أضعف الإيمان».

صحيح كذلك، أن الذي يراه (من الرؤيا) الشعراء والمبدعون، ويحسون به وهم من «طينة» مختلفة عن الناس العاديين، يجعلهم على شفا حرف من الحقيقة، أو يضيئون سبلها الصعبة، لما لهم من الطاقات الإبداعية الكاشفة والخلاقة.

وسأعيد طرح السؤال: أي موت هو الإنتحار ممارساً من طرف شعرائنا ومبدعينا العرب (من خليل الحاوي وفخري أبو السعود، أحمد العاصي، إسماعيل أدهم، تيسير سبول، عبد الباسط الصوفي، إلى فؤاد عيسى شطارة.. والأسماء ليست محصورة) حتى تنعته «بالنبيل»؟

إن اختيار هذا «الموت الإرادي» ـ الإنتحار، في وجهه الحقيقي، اندفاعي، صخّاب هيجاني فاقد للروية الرزينة في أوقات المواجهة، مع الذات كانت أو مع العالم. وإليك أيها الصديق صقر أبو فخر رزنامة من الأسئلة بخصوص الإنتحار الإرادي في هذه الشذرات.

متى كان الإنتحار مخلصاً؟

أيكشف الإنتحار عن سلبيات ما؟

هل هذه السلبيات، تقيم في الذات أم في العالم الخارجي أم فيهما معاً؟

أنكتفي بالقول: طوبى لمن انتحر من الشعراء والمبدعين، حينما أراحوا أجسادهم (هل فعلاً أراحوا أجسادهم؟) وتركوا من بعدهم العالم يتعذب؟

من يؤدي ضريبة الإنتحار في هذا العالم (العربي طبعاً) الموسَّع بخرابه؟ أطرح هذا السؤال وتحضرني الإدانة التي تركها المؤلف والمخرج والممثل المسرحي المغربي حوري الحسين مكتوبة على ورقة، بعد أن انتحر شنقاً:

«لم يقتلني أحد، قتلت نفسي، أحبكم جميعاً». □





جمال قعوار
فلسطين

الشعر ليس سلاحاً

ردعلى مقالة فاضل العزاوي «الذهب والتراب» في العدد ٦٨، شباط (فبراير) ١٩٩٤

■ كتب فاضل العزاوي مقالة بعنوان «الذهب والتراب» أثارت إعجابي، رغم عدم موافقتي على العديد من أفكاره خصوصاً في ما يتعلق بعمود الشعر، ووضع الشعر العربي العمودي وجموده عبر العصور القديمة وأسباب ذلك، فإن لي فيه رأياً آخر.

كان للعرب في الجاهلية بعض العلوم، منها الطب والفلك والأنساب وزجر الطير والكهانة والعرافة وغيرها، ولعل الشعر كان من أبرز هذه المعالم الثقافية في ذلك العصر، إذ كان العرب في الجاهلية يحتفلون بنبوغ شاعر، تماماً كما كانوا يحتفلون بِذَكَرٍ يولد أو بفرس تنتج.

ثم، وبعد أن خرج العرب من الصحراء واتصلوا بالأمم الأخرى، بالفرس والروم والتقت الحضارات انتصرت العلوم اليونانية والفارسية على العلوم العربية، فارتقى علم التاريخ وانحسر علم الأنساب. وتطور الطب على أيدي الذين تتلمذوا على أبوقراط وجالينوس. وازدهر علم الفلك على يد ثابت بن قرة الصابئي، أي أن العلوم الأجنبية انتصرت على العلوم العربية رغم انتصار العرب العسكري.

أما الشعر العربي فقد اختلف شأنه عن العلوم، إذ انتصر هو على الشعر الأجنبي.. بل اتخذ الأجانب أسلوب العرب في أشعارهم فنظم الفرس واليهود في الأندلس وغيرهم أشعاراً على أسلوب عمود الشعر العربي.

فما هي خصائص هذا الأسلوب وما الذي جعله ينتصر ويزدهر في حين تراجعت العلوم الجاهلية الأخرى؟

إن في الأسلوب العربي في الشعر والذي نسميه «عمود الشعر» لسحراً يؤثر في نفوس السامعين بحيث يجعلهم ينقلبون من رأي إلى ضده بعد سماع قصيدة أو حتى بيت من الشعر، وقصة الأعشى والمحلق، والحطيئة وبني أنف الناقة، ورواية الحارث بن حلزة وارتجال معلقته أمام عمرو بن هند في قضية النزاع بين بكر وتغلب لخير دليل على ذلك.

ومن تلك الروايات التي يستطيع فيها الشعر أن يغير الموقف ما روي من أن عبد الملك بن مروان كان عاتباً على جرير لأن الأخير لم يقصده ولم يمدحه بل كان يمدح الحجاج، فأوفد الحجاج جريراً إلى عبد الملك الذي أظهر له النفور أو عدم المبالاة، وبدأ جرير ينشد، وقال:

أتصحو أم فؤادك غير صاح ... عشية همَّ ركبك بالرواح

فقال عبد الملك غاضباً: بل فؤادك أنت.

وتابع جرير، ولما وصل في إنشاده إلى قوله:

ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح

إنفرجت أسارير عبد الملك وقال: نحن والله كذلك. ورضي عنه وأجازه.

ولعلّ من أروع الروايات التي انتصر فيها الشعر على الحقد قصيدة الأنباري التي يرثي بها الوزير ابن بقية عندما قتله عضد الدولة وصلبه والتي مطلعها:

علو في الحياة وفي الممات ... لحق تلك إحدى المعجزات

كتبها الأنباري ورماها في شوارع بغداد وتداولها الأدباء إلى أن وصل الخبر إلى عضد الدولة فتمنى أن يكون قد صلب وقيلت فيه.

فما هو السحر الكامن في هذا الأسلوب حتى يستطيع قلب الأوضاع وتغيير المواقف؟

كان الشاعر ينظم قصيدته بإيحاء شيطان كما كانوا يقولون أو لموهبة معينة. وعندما ينشدها تقع في آذان المستمعين على إيقاع رتيب. فيستمع السامع إلى الكلمات الأولى التي تعرف بصدر البيت إلى أن ينتهي إلى قافية يحتفظ السامع برنينها وينتظر تكرار الإيقاع ويُشد في انتظاره لسماع رنين القافية في القسم الثاني من البيت الذي يعرف بالعجز. هذا إذا كان مطلع القصيدة مصرّعاً. ثم يصغي المستمع

إلى البيت التالي بتلهف لسماع الإيقاع نفسه ويبقى مشدودا في انتظار رنين القافية التي تملكت سمعه، وهكذا يبقى المستمع مسحوراً بهذا الإيقاع الموسيقي في كل بيت ومشدوداً لسماع رنين القافية دون أن يغيب عن باله ما في الشعر من معان ليست كاذبة بالرغم من قولهم أعذب الشعر أكذبه، ولكنها التورية والكناية والإشارة والخيال المجنح الذي يأخذ بمجامع القلوب.

وهذه التورية والكناية والإشارة والخيال والتشبيه وما إلى ذلك من صنوف البلاغة العربية، موجودة أيضاً في الخطب والرسائل والتصانيف النثرية المختلفة، فماذا بقي للتمييز بين الشعر والنثر سوى الإيقاع العروضي والقافية؟!

ولكن إلغاء الشعر العمودي أو إلغاء أسلوبه والتحول إلى «الحداثة» بمفهومها القاموسي أو بمفهومها الأوروبي أو بأي مفهوم كان، أمر يحتاج إلى تفكير طويل.

يدّعي فاضل العزاوي في مقالته أن الشاعر العربي «كان شاعر قبيلة أو بلاط... ولم يبقَ أمام الشعراء سوى دورهم الذي تكرس أكثر مما مضى كشعراء يحتاج إليهم الملوك والأمراء في الدعاية لهم أو في إدخال السرور إلى قلوبهم، وفي الحقيقة فإن الشاعر الحر المستقل إقتصادياً عن مراكز السلطة والذي يعتبر الشعر عملية إبداعية شخصية لم يظهر (وهنا نتحدث عن حالة وليس عن استثناءات) إلا في هذا القرن... إن ثبات وظيفة الشعر العربي هي التي فرضت عليه ثبات إيقاعاته التقليدية طيلة كل هذه القرون... وقد نشك أن الفئات الأرستقراطية الحاكمة مستندة إلى وصايا وعاظها لعبت دوراً كبيراً في الإبقاء على حالة ثبات الشعر العربي من خلال منظورها الرافض لكل تغيير واعتبار كل جديد بدعة».

وفي اعتقادنا أن الذي أبقى على حالة ثبات الشعر العربي هو روعة إيقاعه، وأن دور الأرستقراطية الحاكمة يكمن في مضمون التصانيف الأدبية وحصره في أخبار الملوك والأمراء وشعرائهم.. هؤلاء الشعراء الذين هم الإستثناءات وهم القلة القليلة بالنظر إلى عدد كبير من الشعراء الأحرار الذين اعتبروا الشعر عملية إبداعية شخصية، ولكن جرى التعتيم على إنتاجهم في كتب الأدب أو مر مصنفو كتب الأدب على شذرات ضئيلة من أخبارهم وأشعارهم مثل شعراء الصعاليك في العصرين الجاهلي والأموي وشعراء الخوارج والمتصوفين والشيعة، وأيضاً من أطلقوا عليهم اسم شعراء المجون والسخف في العصر العباسي وهؤلاء هم الأغلبية وهم أكثر بكثير ممن أطلق عليهم اسم أمراء الشعر في العصور القديمة.

ويقول فاضل العزاوي:

«وإذا كان ثمة من لا يزال ينظم الشعر على الطريقة العمودية حتى الآن ويجد قبولا أيضاً فذلك لأن بعض العرب ما زال يعيش في الماضي أكثر مما يعيش في الحاضر مستمتعاً بالغزل بالمرأة الجارية في السرير أو مصفقاً للقصائد التي تشتم الأعداء بالطريقة نفسها التي كان فيها الشاعر القديم يشتم أعداء قبيلته قبل ألف عام أو أكثر بدون إدراك الفارق. لقد كانت القصيدة حينذاك تجرح أعداء القبيلة بالفعل، أما أعداؤنا الجدد فلم يسمعوا حتى بها».

ترى هل سمع أعداؤنا الجدد بالقصيدة الجديدة التي يدعو إليها العزاوي؟ إن الشاعر المجيد لا يطلب من الأعداء الجدد أن يسمعوا بقصيدته، ولكنها شجون النفس تمرح في صدره فيعبر عنها بالشعر وبأسلوب الشعر الذي يرتأيه، فهو كالطبيب الذي يجري العملية الجراحية ويقول: لقد قمت بدوري والباقي على الله. أما أعداؤنا الجدد فإن مقاومتهم لا تكون عن الطريق الشعر.

وأما نحن المحافظين فنرى أن الشعر يختلف أسلوبه باختلاف الفكرة وباختلاف الهدف الذي يرمي إليه الشاعر، وأن التجدد وكل تجديد ليس هدفاً بحد ذاته، بل هو وسيلة للتوصيل بطريقة أفضل، وإذا لم يكن هذا الأسلوب الجديد أفضل من سابقه فلا حاجة لنا به، لقد قال خليل مطران مرة: فلنقل أفكاراً جديدة بأسلوب قديم. وقال الجواهري: ليس بهذه النماذج ينهد عمود الشعر.□

عين الناقد



الحبيب القادم

«إن الشعر في إجازة ، ويوم يرسل لي «فاكس» ويقول إنني قادم يا حبيبتي فسوف أعلن عن ذلك» .

سعاد الصباح

«القبس» - الكويت ١٩٩٤/٤/١٠

غربة

«من أنا في زمن الحاسوب والروبوت والقلب الصناعي وموسيقى مادونا . من أنا في زمن يصنعون الحب فيه في عيادات الأطباء» .

نزار قباني

«الحياة» - لندن ١٩٩٤/٦/٢٤

جزار

«في فيلم «مستر كاراتيه» غنى أحمد زكي أغنية يقول فيها : «آه يا دنيا يا بنت الإيه . . بتهز ليّتها» . فاعترض الرقيب على كلمة «ليّتها» وقال لمنتج الفيلم أحمد السبكي : «هو علشان إنت جزار لازم تضع بصمتك على الفيلم !» .

ملحوظة : منتج الفيلم أحمد السبكي من كبار تجار اللحوم في مصر .

مصطفى ياسين

«فن» - بيروت ١٩٩٤/٧/٢٥

قراقوش

«أطالب بإيجاد محكمة أدبية تحكم على كل انتاج وآمل أن أرى أحكاماً من مثل : حكمت المحكمة الأدبية على فلان بالسجن في زنزانة خاصة لمدة تسع سنين لأنه أصدر كتاباً ادعى فيه الشعر ، ويتحدث عن اللواط والسحاق والهلوسة والشذوذ وبعد تأدية العقوبة يُغرم بثمن إتلاف كتابه . ثم تقوم الدولة ببيع هذا الشاعر المستعار في سوق نخاسة» .

محمد صادق

«نداء الوطن» - بيروت ١٩٩٤/٦/٢٧

الرقيب

« هبوط مقص الرقيب لاجتزاء بعض من النص يؤلم صاحب العمل الفني ولكنه لا يتعدى فن الألم ، إذ يتفشى المصاب ، وتتحول رقابة المتسلط إلى عقاب يحتل ذات الكاتب» .

فوزية السندي

«الأيام» - البحرين ١٩٩٤/٥/٢٩

فتش عن الترجمة

«أصبح مقياس نجاح الأديب في الواقع هو مدى نجاحه في ترجمة أعماله ، لدرجة أن البعض يكتب الآن بصيغ تعكس تخلفنا وتصف شرقنا بالاستبداد والحياة خارج الزمن ، رغبة في الترجمة والتواجد عند الآخر الغربي» .

سعيد الكفراوي

«الشعب» - القاهرة ١٩٩٤/٦/٢٨

الخادم!

«الفرنكوفونية في فرنسا أقامت دركاً وشرطة على رؤوس الأدباء . ورئيس الدرك بالنسبة إلينا نحن الكتاب المغاربيين ، هو الطاهر بن جلون . فهو يحاربنا في كواليس الجوائز الأدبية ، وفي جريدة «لوموند» . وما يؤسفني في أمر الطاهر بن جلون ، هو أن المثقفين العرب لديهم فكرة مغلوطة عنه ، في حين أني أراه كاتباً هجيناً ومنتحلاً ويلعب دور العربي الخادم ومواقفه ناجمة عن انتهازية محضة وعن امتيازية مالية بالدرجة الأولى» .

رشيد بو جدرة «الوسط» - لندن ١٩٩٤/٦/١٣

النفط الأدبي

«لو ترجمنا أدبنا لعرف العالم أن الأدب العربي هو الثروة الأغلى قيمة من النفط . وهو ميراث الأمة الباقي والذي ليس له علاقة بالخلافات السياسية» .

إبراهيم عبد المجيد

«اللواء» - بيروت ١٩٩٤/٦/٢٥

زهد

«يكفينا من الوحدة العربية نجيب محفوظ وعبد الرحمن منيف وفيروز ومحمود درويش . . ود . عصمت عبد المجيد»

ابراهيم عيسى

«الأهالي» - القاهرة ١٩٩٤/٦/٨

ظلموني

«أنا أديبة بالصدفة . لأنني كنت أتمنى أن أكون ممثلة ، أو مطربة أو عازفة أو موسيقية كبيرة» .

كوليت خوري

«المجلة» - لندن ١٩٩٤/٦/١١

تجارة الشعر

«عندما بدأت أنظم الشعر ، كنت أكتب الشعر الرديء ، ولم أكن راضياً عن كتاباتي . ولكنني تعلمت حتى صرت أنظم الشعر الجيد . . . تدربت على العمل التجاري وتدربت على نظم الشعر» .

سلطان العويس

«النداء» - بيروت ١٩٩٤/٧/٢

حافز

«أم كلثوم ، أنا قلت عنها الكثير لأنها تستحق . . والمؤكد أن هذا السحر المنطلق منها ومن صوتها كان له الأثر الكبير في إقبالي على عملي الأدبي والنجاح فيه . . فشكراً لها» .

نجيب محفوظ

«فن» - بيروت ١٩٩٤/٧/١١